أحمد الصفريوي

صندوق العجائب

رواية

ترجمة
رشيد مرون

كتاب الدوحة

صندوق العجائب

كتاب الدوحة
95

يُوَزَّع مجّانًا مع العدد (138) من مجلَّة «الدوحة» - أبريل - 2019

عنوان الكتاب: صندوق العجائب
المؤلف: أحمد الصفريوي **- ترجمة:** رشيد مرون

الناشر: وزارة الثّقافة والرياضة - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية:
الترقيم الدولي (ردمك):

الإخراج والتصميم: القسم الفَنّي - مجلّة الدوحة
لوحة الغلاف: Guy ROSSEY (فرنسا)

هذا الكتاب:
يُعبِّر عن آراء مؤلِّفه، ولا يُعبِّر -بالضرورة- عن رأي وزارة الثّقافة والرياضة أو مجلّة الدوحة

أحمد الصفريوي

صندوق العجائب

ترجمة
رشيد مرون

رواية

كتاب الدوحة

تقديم

المكان، مدينة فاس المغربية، التي يرجع تاريخ تأسيسها إلى سنة 789م الموافق لـ 172 هـ. الزمان: فترة الاستعمار الفرنسي للمغرب من 1912 إلى 1956. بموجب ظروف الاحتلال التي تطلَّبت تعزيز الإدارة بموظفين محلِّيين، تمّ إنشاء مدارس فرنسية بموازاة مع التعليم الديني التقليدي الذي كان سائداً في البلاد. من رحم هذه الازدواجية، التي فرضت على مجموعة من أبناء المغرب الأقصى تلقّي تكوين يقتصر على اللُّغة الأجنبية فقط، وُلدت الرواية المغربية المكتوبة بالفرنسية. وصدرت باكورة هذا الإنتاج في سنة 1954: روايتا «الماضي البسيط» لإدريس الشرايبي (1926-2007)، و«صندوق العجائب» لأحمد الصفريوي (1915-2004). كاتبان من فاس، من الجيل نفسه تقريباً، هاجر الأوَّل منهما إلى فرنسا إلى أن مات بها، وظلّ الثاني بالمغرب. كتب كلّ منهما، وفق منظوره، عن مدينته العريقة، ومجتمعها التقليدي.

ومن المفارقة الكاشفة أن القدر الأكبر من النقد والاهتمام والشهرة (والترجمة أيضاً) كان من نصيب إدريس الشرايبي، بسبب شحنة التمرُّد السياسي والاجتماعي الذي حفلت به رواية «الماضي البسيط» في نقدها للعلاقات السُّلطوية الذكورية وللعقليات المحافظة داخل المجتمع التقليدي، في حين ذهب مجموعة من النُقَّاد إلى اتهام رواية الصفريوي «صندوق العجائب» بالإفراط في تقديم الجوانب الإثنوغرافية النمطية عن البيئة المحلِّيّة لأعين القارئ الغربي المتشوِّق لصورة عالم شرقي منكفئ على نفسه، وفق الرؤية الاستشراقية المعروفة.

والحقيقة أن مثل هذه الأحكام بعيدةٌ عن الصواب مجانبةٌ للحقيقة، بل وظالمةٌ لرواية «صندوق العجائب»، هذا النصّ المُؤسِّس للرواية المغربية، الذي كُتب في سنة 1952، وصدر عن دار النشر الباريسية العريقة (لوسوي) سنة 1954، سنتين قبل استقلال المغرب سنة 1956. لذا يجدر بنا أن نتساءل عن سرّ القيمة الفنِّيّة المُتفرِّدة التي مكَّنت هذه الرواية من عبور مسافة زمنية، تزيد اليوم على خمسٍ وستين سنة، محتفظة بقدرٍ عالٍ من النضارة الشعريّة والبصريّة والنفسيّة، لتمنح المُهتمِّين شحنةً متجدِّدة من متعة اكتشاف جوانب من حياة المجتمع التقليدي داخل أسوار مدينة مثل فاس العريقة بتاريخها وتقاليدها وعمقها الحضاري المبهر للقارئ العربيّ والغربيّ كليهما. وفي تقديرنا، فإن سرّ هذه النضارة الفنِّيّة يتوزَّع على عددٍ كبير من المكوِّنات التي شكَّلت الخلطة السحرية الكامنة وراء هذا النصّ الأدبيّ المُؤسِّس، والتي سنحاول لفت النظر هنا لمجموعة محدودة منها، ولعلّ أولى هذه المكوِّنات هي كونها:

تنتهي رواية أحمد الصفريوي بلقطةٍ ذات دلالة: تكليف الأمّ لولدها البالغ من العمر ست سنوات بتوصيل كؤوس الشاي من مطبخها إلى «مجلس الرجال»، حيث يستقبل الأب ضيفاً. يقوم الطفل بالمُهمّة بخيلاء، ربَّما لوعيه أنها تدشِّن أخيراً لمرحلة خروجه من بين تلابيب

النساء، وقبوله في رحاب المجتمع التقليدي الذكوري بطبعه. إلّا أن ذلك يكشف أيضاً أن هذا النصّ، المنتمي إلى نطاق ما أصبح يُعرَف لاحقاً بالتخييل الذاتي، إنما هو نصٌّ يحكي عن حياة النساء في المجتمع المغربي التقليدي في ذلك الزمن المُبكِّر خلال النصف الأوَّل من القرن العشرين. إضافة إلى البطل الصغير الذي يتوفَّر، حسب تعبيره، على «ذاكرة من شمع رهيف تنطبع عليها الأحداث في صور لا تنمحي بعد ذلك أبداً»، فإن الرواية تتمحور حول حياة وجوه نسائية مؤثِّرة ذات حضورٍ إنساني ونفسي بديع. وهذه الشخصيات هي الأمّ لالة زبيدة، وصديقتها لالة عائشة، وجاراتها فاطمة، ورحمة وكنزة، وغيرهن. نساء نتعرَّف على حياتهن اليومية ومشاكلهن وأحلامهن، وعقلياتهن الساذجة البسيطة المنسجمة مع مجتمع يحكمه الموروث الشفوي، وعادات الأسلاف، التي كانت سائدة لحظتها. إذ إن الكاتب وُلِدَ سنة 1915، ويمكننا أن نتخيَّل أن الأحداث تدور في زمن طفولته في العشرينيات من القرن الماضي. إضافة لذلك، ترسم «ذاكرة الشمع» صوراً وملامح نفسية للنسوة المذكورات تجعل منهن فعلاً، ورغم أن الأمر يتعلَّق بأوَّل رواية مغربية من الناحية الزمنية، شخصيات روائية إشكالية تعيش وتتطوَّر بفعل تناقضاتها الخاصّة، وتعاني من تعثُّر أحلامها على صخر الواقع، دون السقوط في تبسيط كاريكاتيري لتهميش المرأة وتسلُّط الرجل في إطار مجتمع ذكوري تقليدي. على العكس من ذلك، يرسم السارد صورة حضور نسائي يتحوَّل إلى قوةٍ جارفة بفعل غياب الرجل، وسعي المرأة إلى النجاح في الكسب والحب واستقرار عش الزوجية كأبرز هاجس يراود نساء المجتمع التقليدي، متوسِّلات إلى ذلك بما تعارف عليه أناس ذلك الزمن من معتقدات خرافية تتضمَّن اللجوء لخدمات العرَّافين والعرَّافات، وزيارة الأضرحة والمقامات، وتقديم النذور والتشفُّع بمقامات الأولياء والصلحاء.

ويبدو أن جزءاً كبيراً من متعة القراءة ينتج عن قدرة السارد على نقل القارئ إلى داخل العالم الحريمي التقليدي المغلق في وجهه،

ليكتشف كيف عاش المجتمع النسائي في هذه الفترة موضوع الحب وجعله خيطاً ناظماً لأحلامه، كيف عانى واشتكى من «غدر الرجال»، ولكن أيضاً كيف أحبَّت المرأة التقليدية رجلها ودافعت عنه في لحظات ضعفه وهوانه النفسي والمادي والاجتماعي، إلى درجة أن لعبت، أحياناً، دوراً أهمّ من دوره في رعاية عش الأسرة وحمايتها من نوائب الدهر وغدر الزمان.

وإذا كان «صندوق العجائب» يجترح علاقة جديدة مع نساء المجتمع العربيّ التقليدي، فإن من شأن ذلك أن ينعكس على التصوُّر الذي يقدِّمه عن الرجل الأب أيضاً. والمفارقة هنا هي إسدال علامات القوة على الشخصيات النسوية من قِبَل البطل الرئيسي الطفل الصغير سيدي محمد ذي الست سنوات، مقابل تصوير حالات الضعف الذكوري المُتعدِّدة. وهكذا يعاني الولد من تسلُّط الأمّ زبيدة وإدمانها على النميمة والشجار مع الجارات، مقابل لوذ الأب بالصمت والغياب. وبغض النظر عن النطاق الأسري الداخلي، نجد الثنائية تنطبق على حضور شخصيتين أخريين هما العرَّافة كنزة، والعرَّاف الشيخ الضرير «سيدي العرَّافي». نجد الطفل محمد ووالدته زبيدة يرتاحان لتوقُّعات الشيخ الضرير، لأنهما يلمسان نوعاً من الاعتراف بالضعف الإنساني من قِبَله، بينما يرتابان من شخصية كنزة القوية التي «تشبه لبؤة»، وتقيم علاقات شيطانية مع عفاريت الجن إلى درجة أنها تحرِّك كوابيس في خيال الصبي الصغير. لعلّ الضعف نفسه يعتري أيضاً شخصية مولاي العربي الذي يصبح مثار سخرية النساء، لأنه «لا يملك إمكانيات إرضاء نزوات زوجته الثانية الشابة» بنت الحلّاق عبد الرحمن، التي تزوَّجها بحثاً عن «إنجاب ذرية وليدفئ عظامه المُسنَّة في خريف عمره»، قبل أن يعود صاغراً إلى حضن زوجته الأولى البدينة المُتقدِّمة في العمر، لالة عائشة التي تصبح نوعاً من المعادل للأم المبالغة في احتضان هذا الطفل الكبير إلى درجة خنقه رمزياً، خاصّة وأنها تتَّصف بالكرم المادي وبتحدرها من عائلة عريقة ذات حسبٍ ونسب.

إن شخصية الأب الذكر المهيمن والصِّراع المفترض بين الطفل والأب تتوارى إلى الخلف، على عكس ما جرت العادة عليه في تقاليد الرواية الغربية. ولا تجد تجسيداً لها إلّا في البعد الاجتماعي الذي يتخلَّل، في فترات نادرة، ثنايا النصّ، عبر ملامح شخصية الباشا الظالم والقضاة الفاسدين الذين يتسبَّبون في إفلاس مولاي العربي، في تقلبات القدر الذي يجعل أب الطفل السارد يفقد، بمحض الصدفة، رأس ماله في السوق ويضطر للمغادرة، بعدما خسر مكانته الاجتماعية كمعلم نسّاج وصار مضطراً للعمل أجيراً لدى الأغيار. بل كم نجد مؤثرة بضعفها ووفائها شخصية إدريس الأقرع الشاب الفقير اليتيم الذي يظلّ وحده، دون باقي أهل الحرفة، وفياً ومخلصاً لرئيسه في العمل المعلّم عبد السلام النسّاج في محنته، ولا يمكنه إلّا أن يلوذ بزبيدة التي تمنحه، على فقرها، طعاماً يقيم أوده، في إطار ممارستها لدور الأمّ المهيمنة.

إنَّ الحمولة الشاعرية لنصّ أحمد الصفريوي تتَّضح منذ البداية، بل هي اختيار واعٍ أو غير واعٍ من البطل-السارد الذي يعيش، منذ طفولته الباكرة، نوعاً من العزلة عن أقرانه في الكُتَّاب ومعارفه في الحارة، وينتصب «ذاكرة شمع رهيف» في مواجهة العالم المحيط به. يفشل في نسج علاقات حقيقية مع معارفه فيلوذ بعالم الخيال الرحب الشاسع، بأحلامه وكوابيسه وبروايات الكبار. كما يفهم مبكراً أن «كلمات الأغاني ليس من الضرورة أن يكون لها معنى واضح»، بل ويعتزم كتابة أغانٍ. وبفعل عملية استبعاد الآخر، يتم إبراز مكوِّن أساسي من مكوِّنات النصّ هو البحث في مسار تشكّل الذَّات الحميمة، في مراحل تطوُّرها ونموِّها انطلاقاً من تفاعلها مع العوالم الواقعية والرمزية المحيطة بها. فمكوِّنات «صندوق العجائب»، اللعبة الفردية المُفضَّلة عند الطفل-السارد، التي تتلخَّص في أصداف منمَّقة وأزرار ملوَّنة وبضعة مسامير مهمَلة تلعب دوراً لا يقلّ شأناً عمّا يدرسه الصبي في الكُتَّاب. كما أن الحكايات العجائبية لعبد الله البقّال، ونبوءات سيدي العرَّافي توفر بدورها مادةً لاكتشاف العالم

المحيط، لا تقل شأناً عن ثرثرات النسوة داخل غرفهن وولعهن بتتبع أخبار العائلات وأسرار البيوت في مدينة تقليدية «لا يخفى فيها خبر أحد على أحد». هذه إذن هي المكوِّنات التي يصوغها السارد في حكيه، فتساهم كلّها في نمو وعيه المتوثِّب الذي يسجل ملاحظاته حولها ليضفي عليها طابعاً حوارياً واضحاً يبرز التمكُّن من مكوِّنات فنّ الرواية، ويبني الشخصيات، الرئيسية منها والثانوية، والأحداث، اليسيرة منها والمؤثِّرة، وفق وتيرة تصاعدية تفضي إلى عُقد وأزمات متزامنة تتجلى في غياب والد الطفل محمد والزواج الثاني لمولاي العربي الذي هو بمثابة غياب ثانٍ، ومرض الابن-السارد الذي يبعده عن الكُتّاب وعن شخصية الفقيه التي تشكِّل معادلاً للأب المربي، مما يشكِّل غياباً ثالثاً. إلى أن يتم حلّ العُقد جميعاً بتوازٍ مع زيارة سيدي العرّافي وكلماته ونبوءاته الحكيمة، وجلسة الفضفضة التي يعقدها بحضور الطفل ووالدته وصديقتها الأقرب. بمعنى أن عقدة الرواية لا تجد لها حلاً في الواقع، ولكن في كلام الشيخ الضرير الذي يفعل فعل السحر في النفوس والأبدان، يجعل اللُّغة والنصّ والحمولة الشاعرية والرمزية هي أساس تصالح المرأة مع غياب الرجل، والطفل مع كوابيس الواقع، والمُبدع مع انفلات خيط السرد من بين يديه.

هكذا نجد أن المُؤلِّف، أحمد الصفريوي، لا يجد غضاضة في اتباع إحساسه المُتفرِّد ورؤيته الخاصّة في قيادة خيط السرد بعيداً عن الطرق المألوفة النمطية والسائدة، يجتهد في ابتكار رؤية غنائية شاعرية للأشياء والأشخاص وللعلاقات الاجتماعية متحرِّرة من القوالب الجاهزة، وهو ما يعطي النصّ نوعاً مؤكَّداً من الأصالة الإبداعية عبر تقديم العلاقات داخل المجتمع العربيّ التقليدي من وجهة نظر مختلفة عمَّا درجت عليه الثقافة الغربية الحديثة في هذه المرحلة التاريخية.

المُترجِم

صندوق العجائب

الفصل الأوَّل

في المساء عندما يهجع الخلق جميعاً، الأغنياء منهم تحت أغطيتهم الدافئة، والفقراء على مداخل الحوانيت وعتبات القصور، أعاني وحدي من الأرق. أُفكِّر في عزلتي وأجدها ثقيلة الوطء على قلبي منذ أولى خطواتي في الحياة، فعزلتي ليست وليدة اليوم.

ألمح، في عمق زقاق مغلق لا تبلغه الشمس أبداً، طفلاً في السادسة من العمر ينصب فخَّاً ليقبض على دوري. لكن الدوري لا يأتي أبداً. لدى الطفل رغبة جارفة في القبض على الطائر الصغير، لكنه لا يرغب في أكله أو تعذيبه، بل في اتخاذه رفيقاً له! يجري الطفل بأقدامٍ حافية على التراب الرطب لأرض الزقاق حتى مخرج الدرب ليشاهد حميرَ الحمَّالين تعبر الطريق، ثمّ يعود ليجلس على عتبة البيت منتظراً مجيء الدوري الذي لا يأتي. وعندما يحلُّ المساء، يعود لداخل الدار حزيناً محمرّ العينين، بينما يتأرجح فخُّه المصنوع من أسلاك النحاس في يده الصغيرة.

سكنّا أيامها منزلاً حمل اسم «دار العرَّافة». وبالفعل قطنت الطابق

السفلي لنفس المنزل عرَّافة مشهورة في الحارة. زارتها نساء من أحياء بعيدة ومن فئات اجتماعية متباينة. امتهنت قراءة الطالع، ومارست أحياناً أنواعاً متفرِّقة من السحر والشعوذة. كانت من محبي طائفة اغناوة (الناس القادمون من غينيا)، وتعوَّدت أن تستضيف شهرياً حفلة للموسيقى والرقص الزنجي يعبق الفضاء خلالها برائحة البخور، فيما تمنعنا أصوات الطبول الهادرة والقيثارات الإفريقية من النوم حتى صباح اليوم الموالي.

لم أفهم أيامها شيئاً من الطقوس المُعقَّدة التي كانت تتم في الطابق السفلي. من نافذتنا الواقعة في الطابق الثاني من البناية، كنت أشاهد، عبر دخان البخور، تمايل الأجساد المتراقصة على وقع آلات موسيقية غريبة الأشكال. كنت أسمع زغاريد، فيما تتراوح ألوان ملابس الراقصين بين الأزرق الناصع والأحمر القاني، مروراً إلى الأصفر الفاقع. طغى على الصباحات التي تعقب هذه الحفلات هدوء حزين فبدت أثقل على القلب من غيرها. توجَّب عليَّ الاستيقاظ باكراً للتوجُّه إلى الكُتَّاب الواقع على بعد خطواتٍ قليلة من منزلنا، بينما كان صدى ضربات الطبول مستمراً داخل رأسي، ورائحة البخور النفّاذة مستمرّة الحضور في خياشيمي، فيما تحوم حولي عفاريت سود من الجن الذي تستدعيه العرَّافة رفقة جلسائها بهياج يقارب الهذيان. أكاد أحس بالعفاريت تلمسني بأصابعها المحرقةً، وأسمع جلجلة ضحكاتها كدوي الرعد في الأيام المطيرة العاصفة، ثمّ أضع سبابتي في أذني وأرفع صوتي مردِّداً بأعلى صوت الآيات المسطرة على لوحي الخشبي بلكنة يداخلها القنوط.

سكنت العرَّافة في الغرفتين اللتين تشكِّلان الطابق السفلي، وبذلك كانت المكترية الرئيسية. فيما سكن الطابق الأوَّل إدريس العوَّاد رفقة زوجته رحمة وابنته التي تكبرني بسنةٍ واحدة. كانت تُسمَّى زينب، ولم أحبها قط. قطنت الأسرة كلّها غرفةً واحدة، وكانت الأمّ تقوم بأشغال الطبخ على عتبة المسكن الصغير. فيما اقتسمت

أسرتي مع فاطمة البزيوية كلّ الطابق الثاني، كانت نوافذنا متقابلة، وتطل جميعها على فناء الدار، الفناء المتقادم الذي فقد زلّيجه بريق ألوانه منذ زمنٍ بعيد، فأصبح يبدو كما لو كان مرصوفاً بالطوب. درجت العرَّافة على رش أرضيته بالماء وكنسه كلّ يوم. فلاشك أن عفاريت الجن تحب النظافة، كما أن المنظر الرائق منح زبونات قارئة الطالع شعوراً بالارتياح منذ ولوجهن الدار، شعوراً بالنقاء والهدوء يدعو للاستسلام والفضفضة، وهي عناصر تساعد العرَّافة على قراءة المستقبل بدقةٍ أكبر.

لم تزرها الزبونات كلّ يوم. رغم أن الأمر يبدو صعباً على التصديق، فقد كان يحلّ بتجارتها بين الفينة والأخرى موسم كسادٍ طويل دون سابق إنذار. فجأة تتوقف النساء عن طلب إكسير الحب، وعن الاهتمام بما تحمله الأيام القادمة، والقلق من المستقبل، من آلام الكُلى، والكتف والبطن، تتوقف العفاريت عن مضايقتهن وإلحاق الأذى بهن.

خلال هذه الفترة من ركود الأعمال، تتفرَّغ العرَّافة لعلاج صحتها ومداواة أوجاعها الذاتية الخاصّة التي لا قِبَل للعلم بفهم دواخلها. تبدأ العفاريت في التعبير عن رغبات مذهلة ومتطلّبة حول ألوان القفاطين التي يتوجَّب عليها ارتداؤها، حول أوقات ذلك، وأنواع البخور التي يتوجب أن تحرقها في هذه المناسبة أو تلك. وهكذا تظل العرَّافة تتنهد وتتأوَّه، تصدع بشكاواها المُتنوِّعة داخل غيمة من دخان البخور، في عتمة غرفتها الكبيرة المفروشة بمرتبات مغلَّفة بالقماش.

كنت في السادسة من العمر تقريباً، كانت ذاكرتي مثل قطعة من شمعٍ رهيف تنطبع على صفحتها الأحداث، صغيرها وكبيرها، في صور لا تنمحي بعد ذلك أبداً. لذا تبقَّى لي ألبومٌ حافل من الصور التي تؤنس اليوم عزلتي وتذكِّرني أنني ما زلت في عالم الأحياء.

عانيت من العزلة وأنا بعد في السادسة من العمر، ربَّما كنت تعيساً أيضاً. لكنني لم أمتلك لحظتها نقط ارتكاز تمكنني من فهم عزلتي وتعاستي.

في الحقيقة لم أكُن سعيداً ولا تعيساً. كنت فقط طفلاً منعزلاً، هذا هو الشيء الوحيد الأكيد. لم أكنْ ميَّالاً للعزلة بطبيعتي، فقد حاولت مِراراً نسج علاقات مع زملائي في الكُتَّاب، لكنها صداقات لم تطل كثيراً. كنا ننتمي لعوالمٍ متباعدة، فقد كنت ميَّالاً بطبيعتي للحلم. بدا لي العالم مكاناً عجائبياً مليئاً بالعفاريت والساحرات اللواتي تربطهن علاقات جوار مع قوى خفيَّة غير مرئية. رغبت في اكتشاف أسرار الكائنات غير المرئية فيما اكتفى زملائي الصغار في الكُتَّاب بما هو محسوس، خاصّة إذا اتخذت المحسوسات شكل حلويات زرقاء أو وردية بلون غروب الشمس يقضمون منها بانتشاء. كما داوم زملائي على ممارسة ألعاب يتخلَّلها العِراك بالأيدي، حيث يقبض بعضهم أعناق بعض، ثمّ يتبادلون نظراتٍ قاسية ليقلِّدوا أصوات آبائهم، وشتائم مقذعة مقلِّدين الجيران، وأوامر صارمة تذكِّر بفقيه الكُتَّاب!

لكنني لم أكنْ أهوى التقليد، بل الاستكشاف.

روى لي عبد الله البقّال حكاية ملك عجيب عاش في بلدٍ بعيد من ضياء وورد وعطر وراء بحر الظلمات والسور العظيم. فرغبت في عقد اتفاق مع الكائنات غير المرئية لتحملني إلى ما وراء بحر الظلمات والسور العظيم، لأعيش في بلد العطر والورد.

حدَّثني والدي عن الجنة، لكن لندخلها علينا أن نموت أوَّلاً. كما أضاف أنّ قتل النفس من الكبائر المُحرَّمة، وأنّ مَنْ يقتل نفسه لا يدخل مملكة الجنان. لذا لم يتبقَ لي إلّا الانتظار، انتظار أن أصبح رجلاً ثمّ أموت لأُبعث قرب نهر السلسبيل. الانتظار! الانتظار هو الوجود. لم تخفني فكرة الموت لحظتها. كنت أصحو من النوم وأفعل ما يُطلب مني أن أفعل. وفي المساء تغرب الشمس فأعود للنوم بانتظار الصباح لأفعل نفس الشيء. كنت أعلم أن يوماً قد انضاف لآخر، أن توالي الأيام يفضي لتراكم الشهور والفصول والأعوام. عمري ست سنوات، ثمّ سأبلغ السابعة والثامنة والتاسعة، ثمّ العاشرة. وفي العاشرة يصبح المرء رجلاً. في سن العاشرة سيمكنني التجوال وحيداً في كلّ الحارة،

سأتجاذب أطراف الحديث مع الباعة، سأتعلَّم الكتابة، كتابة اسمي على الأقّل، سأتمكن من زيارة إحدى العرَّافات لقراءة طالعي، سأتعلَّم كلماتٍ سحرية وأصنع طلاسم.

بانتظار كلّ ذلك، كنت في الكُتَّاب وحيداً في جوقة من الرؤوس الحليقة والأنوف الرطبة وسط طوفان عارم من الأصوات المرتفعة التي تقرأ مُقرَّر اليوم من الآيات.

يُوجد الكُتَّاب بدرب «النوّالة». كان الفقيه طويلاً نحيفاً بلحية سوداء ونظرات يقدح منهما الشرر والغضب. كان يسكن درب الجيف. عرفت هذا الدرب جيّداً. عرفت أنه يشبه مصراناً رطباً مظلماً يفضي آخره إلى بابٍ واطئة تخرج منها طوال النهار أصوات لغط نساء وبكاء أطفال. عندما سمعت هذه الأصوات لأوَّل مرّة، شهقت بالبكاء لأنني ظننتها أصوات جهنم، كما وصفها أبي ذات مساء!

هدَّأت والدتي من روعي قائلةً:

- *سترافقني للحَّمام العمومي غداً، سأعطيك برتقالة وبيضة مسلوقة، وستجد الفرصة لتلعب وتنهق مثل حمار!*

واصلت شهيقي قائلاً:

- *لا أريد الذهاب إلى جهنم!*

رفعت والدتي عينيها إلى السماء، وقد أذهلتها سذاجتي.

لم أدخل بعدها إلى حمام عمومي قط، منذ طفولتي. منعني إحساس غير واضح بالرهبة والضيق على الدوام من تخطي عتبته. في الحقيقة لا أحب الحمامات العمومية المغربية. تبعدني عنها الزحمة والصفاقة واللامبالاة التي يتصرَّف بعضهم بها في مثل هذه الأماكن. حتى وأنا طفل، كنت أشم في الأجساد المبلّلة، داخل عتمة الحمامات، رائحة الخطيئة. كان شعوراً عائماً، خاصّة في الوقت الذي كان بإمكاني فيه أن أرافق والدتي إلى حمام النساء، لكنه إحساس كان يُثير لدي نوعاً من القلق.

بمجـرَّد وصولنـا صعدنـا علـى مصطبـة فسـيحة مفروشـة بحصائـر. وبعدمـا أدَّينـا واجـب الدخـول، خمسـة وسـبعين سـنتيماً، بدأنـا التعـرّي وسـط جلبـة أصـوات حادة وحركات لا تنتهي لنسـاء نصـف عاريات تخرجن مـن صرر كبـيرة قفاطـين ومنصوريـات[1] وسراويـل وقمصانـاً وأحيكـة[2] ناصعـة البيـاض. كانـت النسـوة يتكلَّمـن بنـبرةٍ مرتفعـة، يرفقـن الحديـث بحـركات تنـم عـن التوتـر، ويصرخـن دونمـا سـببٍ ظاهـر.

نزعـت ملابـسي وبقيت منبهـراً بالمشـهد، واضعاً كلتا يـديّ على بطني بجـوار والـدتي التـي دخلـت في نقـاشٍ مـع صديقـة لقيتها بالصدفـة. كان بالمـكان أطفـال آخـرون بـدوا مرتاحـين للجـو العـام فركضـوا غـير مبالين بعريهم!

شـعرت بالعزلـة أكـثر مـن أي وقـتٍ مـضى، وكنـت في غايـة الاقتنـاع أن هـذا المـكان لا يمكـن أن يكـون إلّا جهنـم. كادت الغـرف المعتمة السـاخنة العامـرة ببخـار المـاء والحـرارة الشـديدة أن تفقـدني الوعـي. جلسـت في أحـد أركان المـكان أرتعـد مـن الحُمَّـى والخـوف. تسـاءلت عـمّا تفعـل كلّ هـؤلاء النسـوة اللـواتي تتجولـن في أرجـاء المـكان وتركضـن في كلّ الاتجاهـات حامـلات سـطولاً مـن المـاء السـاخن إلى حَـدِّ الغليـان، والـذي كانـت تطالنـي منـه قطـرات متطايـرة محرقـة لـدى مرورهن بمحـاذاتي. ألم يأتـين للاسـتحمام؟ جلسـت واحـدة أو اثنتـان منهـن عـلى الأرض يمشـطن سـوالفهن ويرفعـن الصـوت بالاحتجـاج، لكـن الأخريـات لم يعرنهـن أي اهتـمام وواصلـن تجوالهـن المسـتمر حامـلات السـطول الخشـبية. بـين الفينـة والأخـرى تـأتي والـدتي التـي جرفهـا تيـار الحركـة الدائبـة بعدمـا اختفـت وسـط غابـة مـن الأرجـل والأيـادي، تـبرز لهنيهـة قصـيرة، توجِّـه لي أمـراً أو كلمـة تقريـع لا أتمكَّـن مـن سـماعها، ثـمّ تختفـي مـن جديـد. كان بالقـرب منـي سـطلٌ فـارغ يوجـد بـه مشـط وقـدح مـن نحـاس لامـع وبضع

---

(1) لباس نسائي مغربي تقليدي. [المترجم]

(2) الحايك لباس الخروج في الأزياء التقليدية المغربية في بداية القرن العشرين إلى منتصفه يتكوَّن من قطعة ثوبٍ واحدة بيضاء تلف جسد المرأة. [المترجم]

برتقالات وبيضات مسلوقة. تناولت برتقالة وقشَّرتها، ثمّ أكلت منها على مهل بتلذُّذ، بينما تاهت نظراتي في العتمة. بدأت أفقد الإحساس بالخجل من جسدي الذي غطّته قطرات غليظة من العرق، ثمّ نسيت وجود النسوة وحركاتهن المحمومة، سطولهن الخشبية وتجوالهن غير المفهوم في أرجاء المكان. انقضّت عليّ والدتي فجأة وأغرقتني في سطل ماء، غطّت رأسي بمحلول طيني ذي رائحة نفاذة رغم صراخي ودموعي. أغرقتني في سيلٍ من نارٍ وشتائم. أخرجتني من السطل وألقت بي في ركنٍ من أركان المكان مثل حزمة بضائع قبل أن تختفي من جديد في الدوَّامة المُتحرِّكة. لم يطل إحساسي بالضيق. أدخلت يدي في سطل المأكولات وأخرجت منه بيضة مسلوقة، فقد كنت أعشق هذا النوع من الطعام. بينما لم أُتمّ بعد صفار البيضة، عادت والدتي من جديد وألقت عليّ بالتناوب شلّالاً من الماء الحارق وآخر شديد البرودة، قبل أن تلفّني في فوطة وتحملني نصف ميت إلى حيث يوجد الهواء المنعش بمصطبة الملابس. سمعتها تخاطب عاملة التحصيل:

- لالة فطومة، أترك عندك ولدي الصغير. أرجو أن تهتمي به، لم أحصل بعد على قطرة ماء واحدة من أجل الاغتسال!

ثمّ التفتت إليَّ:

- البس ثيابك يا رأس البصلة! هاك برتقالة لتزجية الوقت.

وجدت نفسي وحيداً فأرخيت يدي على بطني الساخن، شعرت بنفسي أكثر غباءً من أي وقتٍ آخر وسط كلّ هؤلاء النسوة الغريبات وصرر ثيابهن الضخمة. ارتديت ملابسي. جاءت والدتي، فركت رأسي بفوطة ثمّ لفّتها حوله وعقدتها عند ذقني، وجَّهت لي كلّ أنواع التعليمات قبل أن تختفي من جديد في الباب المفضي للغرف الساخنة، الباب الذي تخرج منه أنواع من الهرج والمرج. مكثت فوق المصطبة إلى حلول المساء قبل أن تلحق بي والدتي منهكة القوى، شاكيةً من صداعٍ حاد.

من حُسن الحظّ أن الذهاب للاغتسال في الحمام كان يتم في

مناسبات نادرة. لم ترغب أمّي أن يضايقها وجود الطفل الأخرق الذي كنته. وفي غيابها كنت أرخي العنان لخيالي الخجول. أركض حافياً في زقاقنا مقلِّداً وتيرة عدو الخيول، أصهل بخيلاء وأرفس بين الفينة والأخرى. وكنت أُفرغ أحياناً صندوق عجائبي على الأرض قبل أن أُحصي كنوزه. يُثير حواسي زرٌّ من خزف، أُطيل التأمُّل فيه قبل أن أداعبه بأصابعي. كان في هذا الزرِّ عنصٌر لا يمكن إدراكه بالعين ولا باللمس، جمال مبهر يستعصي على كلّ تعبير، إلى درجة أنني أحسست بالعجز عن الاستمتاع بكامل مكوِّناته. أكاد أبكي عندما أحس بحضور هذا الشيء غير المرئي الذي لا يمكن لمسه ولا إدراكه، الذي ما كان بوسع اللسان تذوُّقه رغم ذوقه اللذيذ. وتجلَّى كلّ هذا في مجرَّد زرٍّ من خزف صار له، بالنسبة لي، روح وخصائص طلسم غامض.

تضمَّن صندوق العجائب مجموعة من الأشياء المتباينة امتلكت لديّ وحدي معنى معروفاً: كرات من زجاج، حلقات من نحاس، قفل صغير قديم دون مفتاح، مسامير مذهَّبة الرؤوس، محابر فارغة، أزرار مزيَّنة وأخرى غير مصبوغة. أشياء من زجاجٍ شفاف وأخرى من معدن أو من صدف. حدَّثتني كلّ قطعة منها بلغةٍ مختلفة. علاقاتي مع هذه الأشياء كانت صداقاتي الوحيدة. كانت لديّ بالطبع علاقاتٌ أخرى، في عالم الخيال، مع أمراء شجعان وعمالقة طيبي القلوب. لكن هذه المخلوقات كانت تسكن في مناطق خبيئة من خيالي. أمّا كراتي الزجاجية وأزراري ومساميري فكانت موجودة هنا، مستلقية في علبتها المستطيلة، ومستعدة لنجدتي في لحظات الحزن والعزلة.

تعوَّدت والدتي، في اليوم الموالي لذهابها إلى الحمام العمومي، أن تحكي لجميع سكان الدار تفاصيل ما جرى به من طرائف. تقلّد طريقة كلام إحدى النسوة المعروفات في الحي أو طريقة مشي جارة لا تحبها. تكيل المدائح للمكلَّفة باستخلاص واجب دخول الحمّام وتشتم المدلِّكات، فهن أصل الداء ومصدر كلّ أنواع المشاكل. بطبيعة الحال، كان الحمام العمومي مكاناً لممارسة النميمة بامتياز، يمكن أن تلتقي

المرأة فيه بنساء الحارات البعيدة. ذهبت إليه النساء للاغتسال، ولكن أيضاً لتقصّي الأخبار حول ما يجري ويدور. غنَّت فيه إحداهن أحياناً أغنية سرعان ما تلقَّف الجميع كلماتها وأصبحت على كلّ لسان في الحارة كلّها. حدثت أحياناً معارك بين النساء تنتف فيها شعور السوالف ومناديل الرأس، فوجدت فيها والدتي فرصة تنكيت وتندُّر طيلة الأيام الموالية من الأسبوع بدارها أمام صديقاتها وزائراتها العابرات. كانت تبدأ بتقديم عام لشخصيات المعركة النسائية واصفةً كلّ واحدة من خلال نبراتٍ صوتها وعيوب جسدها وطريقة نظرتها وكلامها قبل أن تمر لعُقدة الأحداث، تتبّع وقوع المشادّة وتضخّمها قبل نهايتها بالدموع أو بتبادل المصافحة والعناق.

أعجبت الجارات كثيراً بحكايات والدتي. لكنني لم أحب قطّ هذا النوع من التبجُّح والاستعراض. بالنسبة لي، كان للفرحة المفرطة لوالدتي نتائج مزعجة. إذ يتحوَّل حماسها الصباحي، لا محالة، في المساء إلى سبب لمشادّة أو بكاء.

درج والدي على العودة متأخِّراً إلى الدار، ونادراً ما وجد الأسرة تنتظره بمزاجٍ رائق. كان عليه أن يتحمَّل غالباً سماع قصّة مزعجة من طرف والدتيٍ التي امتلكت موهبة تحويل خبر يومي عارض إلى ما يشبه كارثة عظمى.

وذلك ما حدث عندما قرَّرت الجارة رحمة أن تنشر غسيلها يوم الاثنين، بينما كان هذا اليوم مخصصاً حصرياً لوالدتي. احتلَّت رحمة الفناء منذ الصباح الباكر وعمرته بقطع الحطب، بأحواض تستخدمها كمغاسل للثياب، بسطول وأكوام من الملابس المتسخة. ارتدت سروالاً وقفطاناً متهالكين وشرعت في إحراق الحطب لتسخين الماء محرِّكة محتوى الأحواض بقصبة طويلة، لاعنة رداءة الحطب الذي يعطي دخاناً أكثر من السخونة، لاعنة باعة الصابون الأسود الغشّاشين، داعية عليهم بالويل والثبور.

لم يكفها الفناء لممارسة نشاطها فقصدت السطح ومدّت الحبال في كلّ اتجاه، أعلتها بقضبان من أغصان شجر التوت، ثمّ عادت لتثير زوابع

فقاعات الصابون في الفناء. أرسلتني والدتي هذا اليوم إلى الكُتَّاب مرتدياً فقط قميصاً تحت جلبابي، تقريباً دون وجبة إفطار، ما عدا قطعة من خبز مدهونة بسمنٍ مالح وثلاث زيتونات. فقدت غرفتنا أيضاً مظهرها العادي. كانت المرتَّبات دون أغطية، والمخدَّات دون أغلفتها القماشية المعهودة، وبدت النافذة عاريةً من دون ستارها ذي الوردات الحمراء.

خصَّصت والدتي الأمسية لترتيب الملابس. تأخذ قميصاً وتمدّه على ركبتها، تدقِّق النظر فيه للتأكد من نظافته، ثمّ تطويه بعدما وجهت كمَّيه إلى داخله في حركة دقيقة متوازنة. رتقت أحياناً بعض الثياب. لم تحبّ الخياطة قط، وكنت أُفضّل، بدوري، أن أراها تحرِّك مندفها أو تدير آلة الغزل. كانت الإبرة أداة مدينية تمثل بالنسبة لي علامة من علامات الخمول. توارثت عائلتي فكرة كون المهنة النبيلة الوحيدة الصالحة للمرأة هي غزل الصوف. وكان استعمال الإبرة يكاد يعادل التنكُّر لهذه المهنة. أصبحنا من أهل فاس فقط بالصدفة، لذا لم ننسَ أبداً جذورنا الجبلية كسادة للبادية.

لم تفلت والدتي فرصة للتذكير بهذه الجذور خلال مشادَّاتها مع جاراتها. وتجرأت على الادعاء أمام الجارة رحمة أننا ننحدر من نسبٍ نبويٍّ شريف!

- هناك وثائق تثبت عراقة نسبنا، أوراق يحتفظ بها إمام قريتنا حتى اليوم. أمّا أنت فمَنْ تكونين؟ زوجة صانع محاريث بلا أصل ولا فصل تتجرأ على نشر غسيل ملابسها المليئة بالقمل قرب غسيلي الذي نظّفته للتو؟ أعرف مَنْ تكونين، مجرَّد متسولة، شغّالة حافية الأقدام وسخة ومقمّلة تلحس الأطباق ولا تشبع أبداً! مَنْ يكون زوجك! هذا المخلوق الذميم الذي تأكل العثة لحيته وينهق مثل حمار! ماذا تقولين؟ تشكونني لزوجك؟ وهل أخاف من زوجك؟ ليأتِ وسأريه ما تستطيع أن تفعل به امرأة عريقة الأصول مثلي. أمّا أنت فاصمتي واجمعي أطمارك من هنا. كلّ الجارات سيشهدن لصالحي، أنت البادئة، ولست فتاة صغيرة حتى أسمح لساقطة مثلك أن تشتمني!

مـن نافـذة غرفتنـا في الطابـق الثـاني كنـت أتتبـع المشـهد فيما تسـجل ذاكـرتي الشـمعية الجُمـل العنيفة.

في ذات المسـاء سـمعت خُطـى والـدي تطـرق درجـات سـلَّم المنـزل بينـما يثقـل النـوم أجفـاني. دخـل عـلى عادتـه وتوجَّـه صـوب الحشـية الموضوعـة عـلى الأرض. أعـدَّت والـدتي طعـام العشـاء ووضعـت الطبـق إلى جنـب الخبـز عـلى المائـدة المسـتديرة.

كان ثمّة إحساس عام في الجو بأنها متوترة.

شرع والـدي في الأكل دون أن يطـرح أي سـؤال. واصلت والدتي التعبير عـن غضبهـا الصامت، ثـمّ رفعت صوتها فجـأة قائلةً:

- لا يهمـك أن يتـم تمريغنـا في الوحـل، أن نتعـرَّض للسـبِّ، وأن يشـتم أجدادنـا الذيـن كانـوا سـادة القبائـل! لا يهمـك أن يحـاول حقـراء النسـب تلطيـخ اسـم عائلتنـا التـي تضـمّ في موتاهـا الفرسـان الشـجعان والقـادة والأوليـاء والعلـماء!

واصل والدي الأكل صامتاً دون أن يُبالي بها.

- لا يهمـك أن تتعـرَّض زوجتـك للإهانـة، بـل وتظـلّ شـهيتك مفتوحـة كـما العـادة! أمّـا أنـا ففي قلبي من الهمّ والغمّ ما سيمنعني مـن الأكل بقية حياتي!

غطّـت والـدتي وجههـا بكفيهـا وانخرطـت في نوبـة بـكاء. بـدأت تنـدب وتتـأوَّه وتخبـط بيديهـا عـلى أحضانهـا وتُعـدد بصـوتٍ حزيـن الكـوارث التـي حلَّـت بهـا في هـذا اليـوم. الشـتائم والنعـوت القدحيـة التـي تلقَّتهـا مذكِّرةً بشـجرة نسـبها الطويلـة وأجدادهـا الذيـن تلقّـوا، بـذات المناسـبة، إهانةً لا تليـق بمقامهم!

تنـاول والـدي جرعـة مـاء ومسـح شـواربه بعدما أنهى عشـاءه. أمسـك مخـدة اتـكأ عليهـا ثـمّ خاطبها:

- مع مَنْ تشاجرت مجدَّداً؟

فعلـت جملتـه مفعـول السـحر بوالـدتي التـي توقَّفـت في الحـين عـن البكاء.

- مـع هـذه اللئيمـة السـاكنة في الطابـق الأوَّل، زوجـة صانـع المحاريث! هـذه المخلوقـة المقـززة وسَّـخت ملابـسي النظيفـة بأطمارهـا التـي تحمـل رائحـة الإسـطبل. إنهـا لا تغتسـل أبـداً في العـادة، تلبـس الثيـاب نفسـها ثلاثـة أشـهر متواصلـة! لكـن لتفتعـل معركـة، تختـار يـوم الاثنـين المُخصَّـص لي لتخـرج ثيابهـا الباليـة. أنـت تعـرف مـدى صبري. أبتعـد دائمـاً عـن المشـاكل وألتـزم بقواعـد اللياقـة. ورثـت ذلـك عـن عائلتـي، فنحـن جميعـاً معروفـون بالدماثـة والأخـلاق! النـاس الذيـن يحاولـون اسـتفزازنا يضيعـون وقتهـم فحسـب. نحـن نعـرف كيـف نحافـظ عـلى هدوئنـا ووقارنـا، لكـن هـذه المقمّلـة!

شقّ صوتُ رحمة الفضاءَ فجأةً:

- أنـا مقمّلـة! أتسـمعون أيهـا السـكان؟ لم يكفهـا النهـار لتسـبني في الليـل أيضـاً! والرجـال موجـودون الآن في الـدار ويسـتطيعون أن يشـهدوا مَـنْ منـا الاثنتـين جـاوزت حـدود الأدب...

لا يمكـن وصـف مـا حـدث بعدهـا. أصـواتٌ حـادة متواصلـة، سـباب وعويـل غـير منسـجم وغـير مفهـوم. كانـت كلّ واحـدة مـن طـرفي الـصّراع تطـل مـن نافذتهـا وتلـوِّح بيديهـا في الفـراغ، تلقـي وابـلاً مـن سـباب لا يفهمـه أحـد، تنتـف شـعرها مـن الغضـب، وتـأتي بحـركات متشـنجة غريبـة. خـرج جميـع الجـيران مـن غرفهـم وامتـزج صياحهـم بأصـوات الغريمتـين. سـمعت أصـوات الرجـال الغليظـة تدعـو للهـدوء، تصـب اللعنـات عـلى إبليـس الرجيـم، سـبب المشـاكل والخلافـات! لكـن نصائـح الرجـال لم تـزد المرأتـين إلّا هياجـاً. تعـذّر تحمُّـل الضوضـاء. أصبـح الأمـر أشـبه بعاصفـة أو زلـزال حـرَّر قـوى غامضـة مـن عقالهـا فانهـار الكـون عـلى رؤوس سـاكنيه!

لم أسـتطع تحمُّـل الصخـب. لم تعـد أذني تقـوى على تحمُّـل الصرخـات المتشـنجة، فيـما ضـجَّ صـدري بنبضـات قلبـي العنيفـة المتوتـرة وهـي تـكاد تلامـس أضلاعـي. خنقنـي البـكاء فسـقطت عنـد أقـدام والدتي فاقـداً الوعي.

الفصل الثاني

كان مقدم يـوم الثلاثـاء نذيـر شـؤم عـلى تلاميـذ الكُتَّـاب إلى درجـة أنـه كان يـترك في فمـي بقيـةً مـن مـرارة. كلّ أيـام الثلاثـاء كانـت بلـون الرمـاد بالنسبة لي.

حـلَّ الـبرد اللّاسـع وعمـرت ليلتـي الكوابيـس المريعـة التـي شـاهدت فيهـا نسـاء منفوشـات الشـعر يهـددن بفـقء عينـيّ ويكلـن لي أقـذع أنـواع الشـتائم. تحملنـي إحداهـن أحيانـاً وتلقـي بي مـن النافـذة نحـو الأسـفل فأغـرق في الفـراغ. أصرخ بحِـدّة، لكـن يـداً حانيـة تلمـس جبهتـي.

توجَّهـت إلى الكُتَّـاب عـلى عـادتي في الصبـاح. كانـت نظـرات الفقيـه مشـابهة لمـا تعـوَّدت أن تكـون عليـه كلّ يـوم ثلاثـاء: لا رحمـة ولا شـفقة. أمسـكت لوحـي وبـدأت أقـرأ الآيـات المكتوبـة عليـه.

في السادسـة مـن العمر كنت واعياً بهشاشـتي وبقسـوة العالم. عرفت مـراراً الخـوف والألم الجسـدي المترتـب عن ضربـات عصا السـفرجل. كان

جسدي الصغير يرتعد في ملابسه الرقيقة أكثر من اللزوم. كنت أخاف نهاية دوامنا في الكُتَّاب، وهي الفترة المُخصَّصة لاستظهار ما حفظناه. كان عليَّ، حسب العادة، أن أستظهر عشية كلّ يوم ثلاثاء، جميع أحزاب المصحف الشريف التي حفظتها منذ التحاقي بالكُتَّاب. في ساعة الغداء أعطاني الفقيه إشارة الإذن بالانصراف فعلَّقت لوحي على الجدار وخرجت إلى الباب، حيث ارتديت خفّي وعبرت الزقاق.

استقبلتني والدتي ببرود، فقد كانت تعاني من صداعٍ شديد. لتعالج آلامها وضعت على وجنتيها مجموعةً من دوائر الورق الأزرق مدهونة بالطحين المبلل. تناولنا غداء مرتجلاً وبدأ سخان الماء يصفر فوق الموقد.

قدمت جارتنا السابقة لالة عائشة لزيارتنا. استقبلتها والدتي شاكية من آلامها الجسدية والروحية، مُتصنِّعة نبرة صوتٍ ضعيفة كمَنْ يمرّ بفترة نقاهة، مشيرة إلى أطراف جسدها التي تعاني من الألم المزعوم، ومحكمة شدّ منديل رأسها. أسدت لها لالة عائشة كلّ أنواع النصح وأشارت عليها بمراجعة أحد الفقهاء في حارةٍ بعيدة، فقيه يجترح المعجزات بفضل تعاويذه وتمائمه المجرَّبة. كنت جالساً بخجل وصمت في ركنٍ من أركان الغرفة، فلاحظت الزائرة الصفرة التي تعلو ملامح وجهي وسألت:

- هل يعاني ابنك من مرضٍ ما؟

- عيون الحُسَّاد كثيرة هنا. وهي تطفئ نور هذا الوجه الذي كان متألِّقاً مثل ربطة ورود. هل تتذكرين كيف كانت وجنتاه قرمزيتين في البداية؟ ورموشه الطويلة سوداء مثل أجنحة الغراب؟ حسبي الله ونعم الوكيل من أعين الحُسَّاد!

- سأسدي لك نصيحة مناسبة، لنذهب ثلاثتنا اليوم بعد الزوال إلى ضريح سيدي أبو غالب. لن يتحمل الولد العودة إلى الكُتَّاب وهو على هذه الحال. وإذا شرب من ماء الضريح سيسترجع نشاطه وفرحته!

تـردَّدت والـدتي قليـلاً. لكـن لالـة عائشـة حدَّثتهـا بإسـهابٍ عـن آلام المفاصـل التـي أنهكتهـا، عـن ركبتيهـا المتعبتيـن ويديهـا الثقيلتيـن كالرصـاص، وصعوبـة التقلُّـب في الفـراش والليـالي البيضـاء التـي قضتهـا متألِّمـة صابـرة صبـر سـيدنا أيـوب، كلّ هـذه الآلام اختفـت بفضـل بـركات سـيدي عـلي أبـو غالـب وليّ الأطبـاء والحجَّامـين!

- لالـة زبيـدة، إن اللـه أرسـلني لأرشـدك إلى طريـق العـلاج. إننـي أحبك في اللـه أنـت وابنـك، ولـن يطيـب لي مأكل ولا مـشرب إذا تركتـك تعانين ما تعانين!

وعدتهـا والـدتي أن تـزور ضريـح سـيدي عـلي أبـو غالـب بعـد الـزوال في نفـس اليـوم. قضـت المرأتـان وقتـاً طويـلاً في الثرثـرة. ثـمّ صعـدت أمّـي لسـطح الـدار وعـادت بقبضـة مـن النباتـات العطريـة التـي تزرعهـا في مجموعـة مـن الأواني المتقادمـة والطناجـر المثقوبـة. عطّـرت شـايها باللويـزاء والحبـق. اقترحـت عـلى لالـة عائشـة أن تضـع ورقـة مـن أوراق النعنـاع في كأسـها، لكـن هـذه الأخيـرة اعتـذرت عـن ذلـك بلباقـة قائلـة إن هـذا الشـاي معطَّـر بمـا فيـه الكفاية، وإنهـا تعـوَّدت أن تضع في شـايها كلّ النباتـات العطريـة وتتركهـا تختمر طويلاً لدرجة يصبح الشـاي مُـرّاً فتشربه لعـلاج نوبـات مغصهـا.

اسـتعدت والـدتي للخـروج فغـيَّرت قميصهـا وقفطانهـا. بحثـت في قاع خزانـة عـن حـزام قديـم باهت الخـضرة، وجدت حجابـاً من القطـن الأبيض ثـمّ التحفـت بحايكهـا الأبيـض الوقـور الذي غسـلته أمس.

كان يومـاً مشـهوداً أُتيـح لي فيـه أن أرتدي جلبابي الأبيـض الجديد، بدلاً مـن نظـيره الرمـادي المتسـخ الباهـت المبقَّـع ببقايـا الطعـام والحـبر الذي دأبـت على اسـتعماله.

وجدت لالة عائشة صعوبةً في النهوض.

حافظـت ذاكـرتي منـذ الطفولـة إلى اليـوم عـلى صـورة هـذه المـرأة. كانـت أميـل إلى القـصر منهـا إلى الطـول، تحمـل رأسـاً يسـتقر مبـاشرةً

علـى جذعهـا وذراعـين قصيرتـين لا تتوقفـان عـن الحركـة أبـداً. كان وجهها المـدوَّر الناعـم يثـير فيَّ نوعاً من مشـاعر القـرف. لا أحـب أن تقبِّلني. وكلَّما قدمـت لزيارتنـا كانـت والدتي تجـبرني على تقبيـل ظاهر يدها، لأنهـا تتحدَّر مـن نسـبٍ شريـف، ولأنهـا عاشـت في بحبوحـة مـن الغِنـى قبـل أن تتقلَّـب الأحـوال ويغـدر بهـا الزمـان، إلّا أنهـا ظلـت مـع ذلـك صابـرةً محافظـة على علامـات الوجاهـة. كانـت العلاقـة مع امرأة مثـل لالة عائشـة مدعاة للفخر بالنسـبة لوالـدتي.

في النهايـة نـزل الجميـع درجـات سـلم المنـزل وبلغنـا الزقـاق. كانـت المرأتـان تمشـيان بتـؤدة ورفـق، تميـلان على بعضهـما البعض، بـين الفينة والأخـرى، لتبـادل التعاليـق الهامسـة. كانـت أصواتهـما تزعـزع الجـدران داخـل الـدار حين تحكيان أتفـه التفاصيل، في حين تتحـوَّل نفس الأصوات خارجـاً إلى همسـات خجولـة مسـموعة بالـكاد. كنـت أسرع الخطـو أحيانـاً فتمسـكان بي وتنصحـاني بالتمهُّـل، تغدقـان النصائـح والتعليـمات كي لا أمـشي بجـوار الجـدران فهـي متسـخة يمكـن أن تنتقـل أوسـاخها إلى جلبـابي الرائـع، كان علـيَّ مسـح أنفـي بمنديـلٍ مطـرَّز معلَّـق في عنقـي، تجنُّـب الاقـتراب مـن حمـير الحمَّـالـين، عـدم الوقـوف خلفهـا كي لا تركلني ولا أمامهـا لأنهـا تحـب، بصفـةٍ خاصّـة، عـضّ الأطفـال الصغـار. خاطبتنـي والـدتي:

- *هات يدك لأمسكها!*

ثمّ بعد خمس خطوات:

- *اذهب أمامنا، يدك عرقانة!*

أخـذت حريتـي، لكـن لمـدّة محـدودة. ثـمّ اقترحـت لالـة عائشـة أن تمسـكني مـن يـدي لئـلا أضيـع في الزحمـة. كانـت تسـير ببطء وتحتـل مسـاحة معتـبرة. تكوَّن اختنـاق مـروري. ألقى المارّة اتجاهنـا تعليقات تُعبِّر عـن التـبرُّم، غـير أنهـم سـاعدونا. حملتنـي سـواعد مجهولـة فـوق الرؤوس وأخرجتنـي مـن الزحمة إلى مسـاحةٍ خاليـة، انتظرت لحظـاتٍ قبل أن ألمح

الحايكـين الأبيضـين الناصعـين. تكـرّر نفس المشـهد مراتٍ متعـدِّدة خلال رحلتنـا هـذه. عبرنـا مجموعـة مـن الأزقة المتشـابهة. كنـت منتبهـاً لنصائح المرأتـين، حـذراً مـن الحمير، لكنني أصطـدم أحيانـاً بأرجل المـارة، لا أقطع حاجـزاً إلّا اصطدمـت بآخـر. ثـمّ وصلنـا أخـيراً المقـبرة الموجـودة بجـوار ضريـح سـيدي علـي أبـو غالـب فأحسسـت بالفـرح.

كانـت القبـور التـي تزيِّـن ظاهرهـا زهـور المخمـل الأحمر تعكس أشـعة شـمس النهـار. جلـس هنـا وهنـاك باعـة البرتقـال خلـف أهراماتٍ مـن ثمار فاكهتهـم. سـمعنا صـوت قـرع طبل صغير لمغنٍ شـعبي، وصـوت نواقيس سـقَّاء يبيـع المـاء. في السـاحة الصغـيرة، جلـس قرويـون يبيعـون حطبـاً لتسـخين مـاء الغسـيل ومواقـد مـن فخّـار وأطباقـاً لطبـخ الفطائـر. أثـارت انتباهـي سـلال باعـة الحلويـات. كانـت تتضمَّـن ديـوكاً وكتاكيـت مـن سـكّر صفـراء اللـون تزينهـا خيـوط ورديـة، علـى شـكل أوانٍ شـفافة وخفـاف ومنافـخ صغـيرة. ذكّرتنـي أشـكال الحلويات بمـا يتضمَّنه صنـدوق عجائبي. سبق لأبي أن أهـداني بعضـاً مـن هـذه الحلويـات مـن قبـل، غـير أنهـا ذابت قبـل وصولنـا للـدار، صـارت مجـرَّد أكـوام رماديـة لا تسـتحق أن تدخـل صنـدوق كنـوزي، لكنهـا كانـت جميلة هنا، في الشـمس بين لغـط الجمهور وبسـطات الباعـة.

كان سـطح الضريـح المغطـى بالقرميـد الأخـضر ينتصـب فـي الأفـق اللازوردي الـذي ترقـص فيـه غيـوم بيضـاء ووردية. جلسـت فـي المدخـل مجموعـة من النسـاء يتجاذبن أطراف الحديث ويمضغـن العلكة المعطرة تحـت حجابهـن، مُوجِّهـات الأوامـر لأطفالهـن الصغـار الذيـن يلعبـون في الـتراب. اضطـرَّت النسـوة للابتعـاد عـن المدخـل لنتمكّن نحن مـن الولوج.

وجدنـا أنفسـنا بعدهـا في سـاحة بـدت لي فسـيحة الأرجـاء تتوسـطها أربـع أوانٍ مـن الفخـار ممتلئـة بالمـاء. ناولتنـي والـدتي كأس مـاء طالبـة منـي شربـه، ثـمّ بللـت وجهـي وركبتـي ويـديّ، وهـي تتلـو، في أثنـاء ذلـك، أدعيـة غـير مفهومـة وتطالبنـي بلـزوم الصمـت قبـل أن تلتفـت نحـو لالـة عائشـة وتذكّرهـا ببعـض مـا شـاهدناه في طريقنـا إلى هنـا. كنـت أتحمَّـل

هـذه الطقـوس بصـبري المعهـود وبصري شـاخص نحـو جيش مـن القطط التـي تلهـو داخـل هـذا المقـام العجيب. بعد هذه السـاحة يوجـد الضريح، يوجـد بابـان بالغرفـة المُربَّعـة التي تؤوي قبر الـولي الصالح، بابـان يقودان نحـو غـرف إقامـة مخصَّصـة للـزوَّار القادمين مـن أماكن بعيـدةٍ باحثين عن العـلاج مـن آلامهـم وأمراضهـم، والذيـن يقيـم البعـض منهـم أياماً طويلة هنـا بانتظار الشـفاء.

بمجـرَّد وصولنـا، شرعـت لالة عائشـة ووالـدتي في طلب البركـة والعون مـن الـولي الصالـح بأصـواتٍ جهوريـة. تجاهلـت كلّ منهـما أدعيـة الأخـرى وشرعـت تسـتعرض آلامهـا ومشـاكلها الشـخصية الصغـيرة، بينـما تتلمس أيديهـما خشـب الضريـح متأوّهتـين شـاكيتين داعيتـين عـلى أعدائهـما بحماسٍ يقـارب الهيـاج. تمكَّـن هذيـان مقدَّس من قلـوب المرأتـين. طفقتا تعـدِّدانِ آلامهـما، تطلبـان العـون، تسـتجديان انتقـام الـوليّ الصالـح مـن الخصـوم، تعترفـان بذنـوبٍ صغـيرة، تطلبـان رحمـة اللـه وبركـة وعطـف وليّـه سـيدي عـلي أبـو غالـب. إلى أن توقفتـا بعدمـا تعبتـا. جاءت مسؤولة الضريـح فهنّأتهـما عـلى مظاهـر التقـوى والـورع التـي عبَّرتـا عنهـا، ودعـت لهـما بالصـلاح قائلـة:

- سيسـتجيب اللـه لدعواتكـما وسـيمكّنكما مـما ترغبان فيه. الله واسـع كريـم، يشـفي الـضّر ويـداوي الجـراح. رحمتـه وسـعت كلّ شيء وكلّ مخلوق. أليس من علامات رحمته أن بعث لنا الرسـل لينجونا من الضلال، وليهدونـا إلى طريـق الفـلاح والجنـة؟ إن مـن علامـات رحمته أن أرسـل إلينا الهـادي سـيدنا محمـد (صلى اللـه عليـه وسـلم)، ليعلمنـا مـكارم الأخلاق: التراحـم وبرّ الوالديـن والإحسـان إلى كلّ الخلائـق. والذيـن اتَّبعـوا الهـدى وسـاروا عـلى درب الفضيلـة التامـة هـم أوليـاء اللـه الذيـن نرجـو بركتهـم. ومـن هـؤلاء الأوليـاء سـيدي عـلي أبو غالـب. كان يحـب كلّ مخلوقـات الله ويعطـف عليهـا جميعـاً، خاصّـة القطـط! لدينا منها الآن أكثر من خمسـين. يحمـل النـاس إلينـا القطـط المريضـة والمصابـة بالكسـور والجـرب. ومـا تلبـث أن تُشـفَى بعـد قضائهـا مـدّة قصـيرة هنـا. تسـترجع قوتهـا وفرحهـا.

ونحـن نطعمهـا ونعالجهـا ابتغـاء مرضـاة الله!

شرعـت والـدتي في البحـث بين تلابيب ثيابهـا وأخرجت منديـلاً ذا عقدة غليظـة. فسـخت العقـدة بصعوبـة مسـتعينة بأسـنانها بعدمـا لم تفلـح الأصابـع وحدهـا في ذلـك. وشوشـت لالـة عائشـة بكلمـة غامضـة في أذن والـدتي التـي أومـأت برأسـها وأخرجـت قطعتـي نقود مـن فئة فرنـك واحد، أعطتهـما لمسـؤولة الضريـح قائلـةً:

- *هذه القطعة لي، وهذه نيابة عن الشريفة التي ترافقني!*

تلقَّـت المسـؤولة القطعتـين النقديتـين وبـدأت في تـلاوة دعـاء حـار. التحقـت نسـوة أخريـات بمجموعتنـا في هـذه اللحظـة للاسـتفادة من عبق اللحظـة الروحانيـة التـي عطّـرت قلـوب الجميـع.

انسـللت مـن جمـع النسـاء ببـطء وقصـدت قطـاً كبـيراً ممـدَّداً بجانـب الجـدار، حاولـت أن أمسّـد ظهـره، لكنـه نظر باتجاهـي بعينيـه الصفراوين، ومـاء قبـل أن يُسـدِّد لي ضربـة مخلـب قويـة، سـال الـدم من يـدي. أطلقت صرخـة ألم فاقتربـت مني والـدتي بسرعـة وهـي تدفـع النسـوة المحيطـات بهـا وتـكاد تتعـثر في ثـوب حايكهـا المنشـور فـوق الأرض.

آلمنـي الجـرح فشرعـت في البـكاء، وبـدأت النسـوة محاولـة تهدئتـي. أهدتنـي إحداهـن برتقالـة وسـمعت كلـمات مـن نـوع: ولـد يشـبه وردة صغـيرة، ربطـة الياسـمين، قطعـة جـبن أبيـض. أخافتنـي وجـوه النسـاء الكثـيرة فواصلـت البـكاء. اسـتقرَّت يـدٌ مبللة بالمـاء على جبهتي، مسـحت دموعـي وخياشـيمي. هـدَّأت بـرودة اليـد مـن روعـي فتوقَّفـت عـن الصراخ. لكننـي لم أتوقـف عـن النحيـب المتقطع في طريـق العودة، ونامـت والدتي بمجـرَّد وصولنـا الـدار.

تعـوَّد والـدي أن يكـون أوَّل مَـنْ يسـتيقظ في الصبـاح. أشـاهد حركاتـه وقامتـه بشـكلٍ عائـم وهو يلف لمـرَّات متعـدِّدة حول خصره حبـلاً مجـدولاً مـن وبـرِ الماعـز، يـدور حـول نفسـه، يرفـع رجـلاً ويضعهـا قبـل أن يرفـع الأخـرى. ينجـز حـركات واسـعة بيديـه، يرتِّب

أطراف عمامته، ثمّ يرتدي جلبابه ويغادر الغرفة بينما والدتي مستمرة في نومها.

في هذا الصباح سمعته يهمس بأذنها قبل المغادرة:

- *لا ترسليه إلى الكُتّاب فهو يبدو متعباً!*

أومأت والدتي برأسها موافقة وغطست من جديد تحت الأغطية. لم يستيقظ بعد أيٌّ من سكان الدار. حط طائرا دوري على النافذة المطلة على الفناء وطفقا يتقافزان من ركنٍ لآخر ضاربين الهواء بأجنحتهما القصيرة، يتجادلان بولع وحماس. كنت أفهم لغتهما. كان الأمر يتعلّق بحوارٍ بينهما، دار كما يلي:

- *أحب التين المُجفَّف!*

- *لماذا تحب التين المُجفَّف؟*

- *الجميع يشتهي التين المُجفَّف!*

- *نعم! نعم! نعم!*

- *الجميع يشتهي التين المُجفَّف.*

- *التين المُجفَّف!*

- *التين المُجفَّف!*

- *التين المُجفَّف!*

خفقت الأجنحة وواصل الدوريان حوارهما قبل أن يغادرا باتجاه سطوح أخرى.

كنت أفهم لغة العصافير ولغات حيوانات أخرى غيرها، لكنها لا تدرك ذلك وتفرّ بمجرّد اقترابي منها، وكان ذلك يحزنني.

سُمع في الفناء صوت ارتطام سطول ببعضها البعض. فالعرّافة أوّل مَن يستيقظ لتطرد العفاريت، لحسن الحظ! فخيالات الليل

وعفاريته تتأخَّر عن المغادرة وتواصل التسكّع حتى هذه اللحظة قرب البئر والمراحيض وفي المخزن الكبير الذي يغتسل فيه القاطنون.

كانت العرَّافة مطّلعة على التعاويذ التي تهزم شرّ الجن وتكفّ عنّا أذاها. وقد درجت على إحراق البخور بأرجاء المكان ورشّ قطرات الحليب وماء الزهر وتلاوة تعويذات طويلة كلّ ليلة خميس.

سُمع صرير باب يفتح. شرعت زينب بنت الجارة رحمة في البكاء فصفعتها والدتها صفعةً قوية وصلني صداها قبل أن تكيل لها وابلاً من الشتائم.

- ألا تخجلين من التبوُّل في فراشك كلّ ليلة، في مثل هذه السن؟! عليَّ أن أسجنك في إسطبل بدلاً من إعداد فراشك كلّ ليلة!

قاطعتها العرَّافة:

- صباح الخير يا رحمة!

- نوَّر الله صباحك يا سيدتي!

- كيف استيقظت؟ أكل شيء على ما يرام؟

- أحمد الله على نعمته، وأصبر على نقمته منذ وهبني هذه الطفلة المنحوسة البوَّالة في الفراش! أحمد الله في السَّراء والضَّراء!

- أبعد الله عنك كلّ ما يكدر العيش! ستُشفى هذه الطفلة من مشكلتها وستكون سندك في هذه الدنيا الزائلة!

- سمع الله دعاءك يا لالة! وحفظ أحبابك من كلّ مكروه!

تحرَّكت والدتي تحت أغطيتها، سعلت وتنهَّدت قبل أن تجلس فوق فراشها. نهضت وفتحت النافذة فتدفَّق الضوء الذي آلم عيني. سمعت صرير مصاريع نافذة فاطمة البزيوية تُفتح. بدأت والدتي تلاوة النصّ الطويل لتحيتها الصباحية الاعتيادية المُوجَّهة لجارتنا

التـي ردَّت بتحيـةٍ طويلـة مماثلـة تتضمَّـن عبـاراتٍ مشـابهة. لم تكـنْ أي منهـما تنصـت فعـلاً لتحيـة الأخـرى، بـل كانتـا تتبـادلان الحديـث المعهـود الـذي تطـرح كلّ منهـما فيـه أسـئلة حـول الأحـوال تعلـم مسـبقاً أجوبتهـا. ومنذ سـكنّا معاً في نفـس البناية قبل ثلاث سـنوات، تبادلتـا نفـس العبـارات كلّ صبـاح. ربَّمـا غيّرتـا أحيانـاً كلمـةً مـا أو أشـارت إحداهـما إلى حـدث قريـب طرأ على سـكان الدار مؤخـراً، لكن ذلـك كان نـادر الحدوث. كانـت والدتي تكرِّر نفس السـؤال كلّ صباح:

- *كيف أصبحت؟ ألم تعاني من الصداع؟ هل كان نومك هادئاً؟*

قبل أن تواصل:

- *الصِّحة هي كنز الدنيا الأوَّل يا أختي! لا يعوِّضها شيء!*

لكنها أضافت في هذا اليوم:

- *ولـدي ليس عـلى مـا يـرام اليـوم، أنجـاك اللـه مـن كلّ شر وَرَدّ عنـك وعـن أحبابـك عيـون الحسـاد!*

ثمّ ارتفع صوت العرَّافة من الطابق الأرضي:

- *صباح الخير يـا لالـة زبيدة! حفظك الله ومتعـك بالصِّحـة والعافية، أنـت وأسرتـك الصغيرة!*

أجابت أمّي:

- *بـارك اللـه فيك ونـوَّر صباحـك! كيـف أصبحـت؟ رزقـك اللـه الصِّحـة والسـعادة، أنـت وأقربـاؤك.*

ردَّت العرَّافة:

- *لا تقلقـي بشـأن ولدك، أوليـاء الله يتعهدونه، سيسـخِّر الله له أنصاراً مـن الإنـس والجـن. اعلمـي أنـه محبـوب مـن لـدن الأرواح الخـيِّرة. وعندما يكـبر سـيصير سـيفاً من سـيوف الحـقِّ، محارباً شـجاعاً، وعسـل نحل يحب الناس عطـره وطعمه!*

ردَّت عليها والدتي:

- جعل الله العسل والزبد يسيلان من فمك الحلو وعطَّر أنفاسك برائحة الجنة!

ثمّ أضافت متحمسة رافعةً رأسها إلى السماء:

- أسألك يا ربي أن تمطر شآبيب رضاك على هذه المرأة الفاضلة في الدنيا والآخرة. ليرزقها الله حِجَّاً مبروراً إلى الأماكن التي نزل فيها الوحي والرسالة على نبيك صلى الله عليه وعلى آله وصحبه! آمين يارب العالمين!

ردَّدت جميع النسوة بصوتٍ واحد:

- آمين!

خلال كلّ هذا كنت قد نهضت وارتديت جلبابي. أحسست بصفير في أذني لكنني لم أشعر بالتعب. أفرحني احتمال تمضية النهار كله بالمنزل بعيداً عن عين الفقيه وعن عصا السفرجل اللاسعة في يده. كنا في يوم أربعاء. وكان الخميس يوم عطلة تمتد إلى ما بعد زوال الجمعة. كان أمامي يومان ونصف اليوم من العطلة، مدّة سأنعم خلالها بالراحة مثل أمير. ساعدتني والدتي على الاغتسال، ثمّ جلست في الركن الذي خُصِّص لها كمطبخ محاوِلةً إيقاد النار. تعالت في أرجاء الدار التي عمرتها شمس ناصعة الضوء أصوات المنافيخ. نصبت مائدة الفطور في غرفتنا، كانت تتضمَّن بيضاً مقلياً بزيت الزيتون وخبزاً فشرعنا في الأكل. سمعت صوت علاّل البستاني زوج فاطمة في مدخل الدار يستأذن:

- ألا يُوجد أحد؟ هل يمكنني المرور؟

ردَّت رحمة:

- لا يُوجد أحد، بإمكانك المرور.

سمعت صوت خطواته في درجات السلم. اختفى داخل مسكنه وبعد هنيهة دخلت زوجته إلى غرفتنا حاملةً طبقاً من خزف به فطائر «سفنج»[1] مقلية كنت أعشق مذاقها.

نهضت أمّي لاستقبال زائرتها وقد بدا على وجهها الضيق، وهي تردِّد عبارات الشكر والترحيب المعتادة في مثل هذه المناسبات.

- *لماذا أزعجت نفسك. عندنا والحمد لله ما يكفي للفطور. فطيرتا «سفنج»! هذا كثير جداً! لا، لن أقبلهما!*

حاولت جارتنا أن تنهي تردُّد والدتي، أمسكت يدها محتجة:

- *رفض هديتي إهانة لي، أعطي الفطيرتين لسيدي محمد! عافاه الله! هذا شيء بسيط!*

شكرتها أمّي في النهاية.

- *ليغدق عليك الله من طعام الجنة المُخصَّص لأوليائه الصالحين!*

- *ليفتح علينا الله جميعاً!*

خرجت فاطمة، عادت لغرفتها وزوجها. دفعت والدتي صحن الفطيرتين اتجاهي.

- *كُلْ الاثنتين، فأنت تحبُّ الفطائر المقلية! معدتي لا تتحمَّل الزيت!*

- *تلذَّذت وحدي بمذاقهما الشهي.*

طرق الباب عامل متدرِّب كان يعمل في مشغل والدي يناديه الجميع إدريس الأقرع. طلب قفّة ليجلب لنا مشتريات. أوصته والدتي بصوتٍ مرتفع أن يختار لحمة دون عظم وفولاً أخضر ليّن الملمس. كان والدي يعيش آنذاك في حالةٍ من الرخاء المادي مكنتنا من تناول اللحم ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع.

---

(1) فطائر مقلية في الزيت على شكل حلقة. [المترجم]

تحدَّر الوالد مثل الوالدة من أصولٍ جبلية. وبعدما غادر قريته التي تبعد خمسين كيلومتراً عن المدينة الكبيرة، تعب بدايةً في الحصول على عمل يؤمِّن له رزقاً كافياً لإعالة زوجته. كان أهالي قريته يحترفون الزراعة وقطع الطرق. أمّا في المدينة فتوجَّب احتراف صنعةٍ ما أو إنشاء تجارة بسيطة. وكانت عائلتنا تنظر للتجارة نظرة احتقار فلاذت بالصنعة.

تذكَّر والدي أنه سبق له قضاء فترة تدريب في مشغل خاله الذي احترف صنعة نسج الأغطية والأفرشة الصوفية. لذا اشترى عدداً محدوداً من أدوات الحرفة، اكترى ركناً في مشغل وأصبح بدوره نسّاجاً. عمل بهمة وإخلاص وحسّن نوعية منتجاته فاشتهرت بضاعته ولاقت رواجاً مكَّن الأسرة الصغيرة من قدرٍ معقول من الرخاء. وظّف والدي عاملاً مجرَّباً كبير السن يساعده على النول، فيما كلَّف إدريس الأقرع بأعمال السخرة.

درج إدريس على القدوم إلى منزلنا مرتين في اليوم، الأولى لشراء الأغراض، والثانية لتوصيل الغداء لرئيسه في العمل. يتناول والدي غداءه في المشغل ولا يعود لداره إلّا ليلاً بعد صلاة العشاء. فيما شكَّل يوم الجمعة استثناءً، فخلاله يستمر بالعمل إلى منتصف الزوال، يؤدِّي أجور عمَّاله، ثمّ يقصد المسجد للصلاة قبل أن يعود إلى الدار ليتغدَّى معنا.

عاد إدريس مُحمَّلاً بالمقتنيات. لم ينسَ الأقرع شيئاً، كما كانت اللحمة ذات مظهرٍ طيب والفول يانعاً، الشيء الذي أسال لعابنا. تضمَّنت القفة ثوماً وبقدونساً وكميات من التوابل. أمّا الزيت والفحم والدقيق فكان لدينا ما يكفي منه لمدّة شهرٍ كامل.

عندما تحدَّثت والدتي عن عيون الحُسَّاد كانت تقصد، من دون شك، ثروتنا الصغيرة هذه التي أثارت بعضاً من الحسد لدى جاراتنا الأكثر فقراً. لم تكُن الجارات تجهلن شيئاً من حقيقة أوضاعنا. كما أن أمّي كانت تعرف الصعوبات التي عانى منها الجميع: مداخيل ومصاريف كلّ أسرة والديون التي توجَّب على هذا أو ذاك دفعها، وحتى ما يطبخون من طعام.

طلبت مني والدتي أن أساعدها في تقشير الفول. وافقت لكنني سرعان ما سئمت من هذا العمل. ذهبت لإلقاء نظرة على غرفة فاطمة البزيوية فوجدتها تُعِدُّ كسكساً. في أحد الأركان تجمَّعت الخضار: لفت وجزر وقرع أخضر وبصل. كانت هذه الجارة تحبني حباً صادقاً. توقَّفت للحظة عن إعداد كسكسها وفتَّشت في القفَّة قبل أن تجد فجلة حمراء مثل زمردة وتعطيني إياها. شكرتها بابتسامة وشرعت في ازدراد حبة الفجل اللذيذة. كان مذاقها قوياً إلى درجة أن الدمع قارب الخروج من عينيّ. لم أقلْ لها شيئاً عن مذاق الفجلة الحرّيف. خرجت وصعدت درجات السلم التي تقود إلى سطح الدار وألقيت حبة الفجل الرائعة على سطح المنزل المجاور الذي لا يفصله عنّا إلّا جدار.

كانت أشعة الشمس رائقة ساخنة فيما اختار قط جمع في لونه بين الأبيض والأسود أن يرتاح ممدَّداً على طول جدار وعيناه نصف مغمضتين. لم اقترب منه، فمخالب قط ضريح سيدي علي أبو غالب علَّمتني أن ألزم حذري من هذه المخلوقات إذا رأيتها تموء تحت الشمس.

تفطَّنت والدتي لاختفائي وشرعت تناديني بصوتٍ عالٍ. أخذت طريق العودة، وقبل أن أبدأ في الهبوط سمعت صوت حركةِ أرجل حافية وملابس تصعد، ثمّ ظهرت رحمة. كانت والدتي تقاطعها منذ يوم الخصومة المعلومة، فلم أعرف ما يتوجَّب عمله. هل عليَّ الابتسام في وجهها أو الفرار منها. عندما اقتربت رحمة مني داعبت وجنتي بلطف وأعطتني شيئاً بارداً ناعم الملمس زرع في قلبي شعوراً عارماً بالفرحة، خاطبتني:

- *إنه لك.*

لم أُجْب، وركضت نحو أمّي فيما كان الشيء البارد في يدي. جلست في ركنٍ من أركان غرفتنا. كان الأمر يتعلّق بمسمار زجاجي مزخرف كبير نُقشت جنباته على شكل لؤلؤة، لعبة عجيبة غريبة المصدر لا شكّ أنها قدمت من قصر يقع تحت الأرض تسكنه العفاريت غير المرئية. هل كانت هذه رسالة من تلك الممالك البعيدة؟ هل كانت قطعة حجر

ملعون أعطتنيها الجارة العدوة لتجلب علينا سخط الجن؟ لا يهمني سخط كلّ عفاريت الأرض!

كنت أمسك في يدي شيئاً لا يُقدَّر بثمنٍ سأضمّه إلى محتويات صندوق العجائب خاصتي واكتشف مزاياه السحرية لاحقاً!

ضبطتني أمي أتفحص غنيمتي في ركن الغرفة فخاطبتني:

- *أحضرت قطعة زجاج أخرى! حاذر أن تجرح نفسك!*

الفصل الثالث

مـرَّ زمـن العطلـة الأسـبوعية بسرعـة: يومـان ونصـف اليـوم انقضيـا في أسرع مـن لمـح البـصر. وسرعـان ما وجـدت نفسي بعـد زوال يـوم الجمعة المـوالي جالسـاً بـين أقـراني في الكُتَّاب، منحنيـاً على لوحي الخشـبي الذي كُتِـبَ عليـه مقـرَّر اليـوم مـن الآيـات القرآنية التـي أردِّدها بأعـلى صوتي.

أُحرِّك رأسي فيتحرَّك معه شـعري في كلّ الاتجاهات بينما أنا مسـتغرق في حفـظ درس اليـوم، وأضرب عـلى اللـوح بأصابعـي فتؤلمنـي. كان كلّ تلميـذ يتـصرَّف بنفس الطريقـة ويحفـظ بحـماس، بينـما راود النـوم أجفان الفقيـه الـذي يمسـك عصـاه الطويلـة في يـده. أتعبتنـي أصـوات زملائي من التلاميـذ ونقرهـم المسـتمر على الألواح. شـعرت بسـخونةٍ غـير معتادة في وجنتـيّ وبصفـير حـاد في أذنيّ وأنـا أرمـق بقايـا بقعـة مـن ضـوء الشـمس عـلى الجـدار المقابـل داخـل الكتّـاب. اسـتيقظ الفقيـه فجـأةً وكال لبعـضٍ مـن التلاميـذ ضربـات عشـوائية بعصـاه الطويلة، قبـل أن يغفـو مـن جديد.

تناقص حجم بقعة الشمس على الجدار.

تحوَّلت أصوات الأطفال إلى طوفانٍ هادر، إلى ما يشبه صخب زوبعة عاصفة.

اختفت بقعة ضوء الشمس.

استيقظ الفقيه وتثاءب. تنبَّه، من بين كلّ الأصوات المتداخلة، إلى كون أحد التلاميذ ينطق إحدى الآيات بطريقة خاطئة فصحَّح له ثمّ عاد للنوم. لكنه سرعان ما تنبَّه لاختفاء ضوء الشمس من المكان ففرك عينيه واكتسى وجهه شعلة من نور النشاط فجأة، ودعانا بعصاه إلى الاقتراب. توقفت جميع الأصوات وشدّت الأبصار كلّها إلى مصطبة الفقيه. دعانا لتلاوة الفاتحة التي يحفظها عن ظهر قلب صغار التلاميذ وكبارهم، فقد درجنا أن لا نغادر الكُتَّاب في نهاية اليوم قبل قراءتها. كما تعوَّدنا أن نعقبها يوم الجمعة بمجموعة من أذكار ابن عاشر المُخصَّصة لفرائض الوضوء قبل أن ندعو لوالدينا ولمَنْ علَّمونا، الأموات منهم والأحياء.

كنّا نسعد عندما نبدأ تلاوة الأذكار والأدعية، فذلك يعني أن الانتهاء من تعب الدرس قد قارب، وأن العودة إلى منازلنا ركضاً عبر الدروب الرطبة ستتاح لنا بعد هنيهة أو أقلّ. سمح لنا الفقيه بالمغادرة الواحد تلو الآخر. كان علينا أن نذهب إلى المصطبة لتقبيل يديه قبل الخروج من الكُتَّاب.

استعاد كلّ منّا خفَّه الموضوع في خزانة خشبية أُعدَّت لهذا الغرض بباب الكُتَّاب، ثمّ أطلق الصبيان سيقانهم للريح.

عندما وصلت الدار كان الظلام قد أرخى سدوله على المدينة. وبانتظار عودة والدي تناولت قطعة خبز صغيرة وأخرجت محتويات صندوق عجائبي، طفقت أتأمَّل كنوزي. كان المسمار الزجاجي مستمرّاً في ممارسة فتنته على كلّ حواسي. أتلمّسه وأنظر إلى مادته الشفافة قبل أن أقرّبه من وجنتي.

أشعلت أمّي شمعةً كبيرة وضعتها في شمعدانٍ من نحاس.

كان ثمَّة ضوءٌ مبهر غير معتاد في غرفة فاطمة البزيوية هذا المساء، فخاطبتها والدتي:

- فاطمة! ما الأمر معك؟هل تحتفلين بعرس؟ لماذا أشعلت الكثير من الشموع اليوم؟ ماذا تقولين؟ لمبة! انتظريني! فأنا قادمة لأرى...

توجَّهت والدتي للغرفة المجاورة فتبعتها.

يا للعجب! كانت لمبة بترول ساطعة تتوسَّط الجدار. كان الضوء الأبيض الهادئ يتوسط قمعاً من زجاج يشبه في شكله آلة كلارينيت، بينما جعلت مرآة مدورة خلف الفتيل لتعكس الضوء وتقوّيه. نظرنا للأمر بدهشة أنا ووالدتي التي قالت:

- لمبتك تُنير جيّداً، لكن أليس هناك خطرٌ؟ ألا يمكن أن تنفجر؟ أن تشعل حريقاً؟ يقولون إن رائحة البترول كريهة.

ردَّت البزيوية بهدوءٍ أقرب للخجل:

- لا أظن في الأمر خطراً. العديد من سكان الحارة يستعملون اليوم هذه اللمبات ولا يواجهون معها مشاكل، أظن أن عليك اقتناء واحدة. فالغرفة تبدو هكذا مبهجة أكثر.

- معك حقّ، ردَّت أمّي، إن اللمبة أفضل من الشمعة، لكنها تفتقد جمال شمعدان النحاس.

عدنا إلى غرفتنا بعدما أرضت والدتي فضولها. لم تقلْ شيئاً، بانتظار مقدم الوالد. وضعت المائدة كما العادة، جهزت العشاء وعِدَّة الشاي.

بمجرَّد ما دخل والدي الغرفة ذهبت لاستقباله فانبسطت أساريره وحملني قائلاً:

- اكتسب الولد وزناً، عمَّا قريب سيصبح رجلاً!

- نعم أريد أن أصير رجلاً حتى أحصل على لحية سوداء! في الموسم

الماضي دعكت ذقني ووجنتي بعصير البطيخ، ورغم ذلك لم تنبت لي لحية !

- حاول إذن في موسم البطيخ القادم، وربَّما تحصل على نتيجة، على لحية جميلة ناصعة السواد!

- أمّا أنت فأظنك أصبحت شيخاً. لديك شعرتان بيضاوان في لحيتك!

- لا، أنا أتركها عمداً. من الأفضل أن نترك قطرة حليب في سواد اللحية، عوضاً عن تينة أو عنقود عنب فوق الأنف!

أثار هذا الرَّدُّ ضحكاتي.

تناولنا عشاءً لذيذاً كان من أكلاتي المفضلة: حمص بأرجل الغنم، ثمّ أتبعناه بكؤوس الشاي المنعنع، وسردت الوالدة على سمع زوجها الأحداث البسيطة التي شهدها النهار. لم يعقب والدي على حديثها إلّا نادراً. ارتعش ضوء الشمعة فجأة فنظفت والدتي فتيلتها بواسطة مقص صدئ. واغتنمت الفرصة لتتحدَّث عن كون الشموع المطروحة في الأسواق أصبحت من نوعية رديئة مكلّفة، لأننا نستهلك شمعة كلّ ثلاث أو أربع ليالٍ، كما أن الغرفة تبدو حزينة بفعل الضوء الخافت والظلال التي تتجمَّع في أركانها، قبل أن تضيف:

- جميع الناس يُنيرون منازلهم بالبترول هذه الأيام!

حافظ والدي على لامبالاته فيما برقت عيناي من الفضول منتظراً قراره، معجباً بذكاء أمّي وطريقة عرضها للموضوع، لكنني أصبت بخيبة أمل بعدما لم يعلِّق الوالد واستعد للنوم كما العادة. قصدت فراشي ونمت. وفي الليل حلمت بضوء اللمبة الساطع يعمر الغرفة فأمسكه واسجنه في مسماري الزجاجي المنحوت مثل لؤلؤة.

عدت من الكُتَّاب يوم غدٍ لتناول الغداء، فغمرتني فرحة كبرى عندما رأيت لمبة بترول مشابهة للمبة جارتنا تتوسَّط جدار الغرفة.

أحضرها إدريس الأقرع صباح نفس اليوم عندما جاء لأخذ قفّة

المشـتريات، وأحـضر- إضافـة لذلـك- قنينـةً مـن بـترول وقمعـاً.

صعـدت العرَّافـة التي سـمَّيناها «خالتـي كنزة» إلى الغرفة كي تكتشـف اللمبـة متمنِّيـة لنـا مزيـداً من الرخـاء. كان وجه والدتي يشـع مـن الفرحة. ربَّمـا أحسّـت في هـذه اللحظـة فقـط أن الحيـاة تسـتحق أن تعـاش وأن العـالم مـليء بمخلوقـاتٍ طيبـة. كانـت تغنِّـي، تداعـب قطـاً غريبـاً عـن المنـزل قصدنـا وتضحـك بسـببٍ أو بدونـه.

كانـت لحظـات الفرحـة تقـترن دومـاً، عنـد والـدتي، بلحظـات ذرف الدمـوع، بنوبـات بـكاء تعتريهـا بـين الفينـة والأخـرى فتغتنمهـا «للتفريـج عـن قلبهـا». وسرعـان مـا سـتتاح لهـا فرصـة مناسـبة لذلـك في هـذا اليوم.

خرجـت رحمـة، زوجـة صانـع المحاريـث، من الـدار صباحـاً رفقـة ابنتها زينـب قاصـدة حـارة الخلخالـين لحضـور حفـل عقيقـة، لكنهـا سرعـان مـا عـادت باكيـة وشرعـت في العويـل ونـدب الخـدود بمجـرَّد مـا ولجـت بـاب الدار:

- يـا ويـلي ويـا مصيبتي! أنا أسـوأ الأمهـات! المـوت أهـون مـن الحياة بعد هذه المصيبة!

انهالـت الأسـئلة من جميـع النوافذ. توقَّفت النسـوة عن مـا بين أيديهن مـن أشـغال. كـن يرجونهـا أن تعلمهـن بطبيعـة المصيبـة التـي ألمَّـت بهـا. نسـيت والـدتي أن رحمـة مجـرَّد امـرأة مقمّلـة، شـحاذة بنـت شـحاذين، وسـارعت بالنـزول إلى الطابـق الأوَّل صائحـةً:

- مـاذا حـدث لـك يـا أختي المسـكينة؟ قـولي لنا مـاذا جرى لنسـاعدك، بـكاؤك يقطع أنـواط قلوبنا!

أحاطـت النسـوة بالتعيسـة رحمـة التـي حكـت لهـن مـا جـرى بصعوبة: ضاعـت منهـا طفلتهـا في الزحـام، بحثـت عنها في جميـع الأزقـة، لكنها لم تعـثر لهـا عـلى أثـر، كأن الأرض قـد انشـقَّت وابتلعتها!

شـاع خـبر اختفـاء زينـب في كلّ الحـارة بسرعـة، وقدمـت العديـد مـن

النسوة عبر السطوح لمواساة الأمّ الحزينة وحثها على الصبر. انخرطت النسوة في بكاء جماعي صاخب. تذكَّرت كلّ واحدة منهن مُصاباً جللاً حلّ بها في الماضي أو مشكلة شخصية عصيّة على الحلّ فانخرطت في نحيبٍ لا يتوقَّف.

كنت جالساً بين أحضان النساء النائحات فشرعت بدوري في البكاء. لم ينتبه لي أحد. في الحقيقة إنني ما كنت أحب زينب قليلاً ولا كثيراً، بل إن اختفاءها أثار في نفسي نوعاً من الفرحة الخفيّة، لكنني كنت أبكي من أجل أسبابٍ أخرى. أبكي لأن الجميع يفعلون ذلك، فوجدت أن من باب الأدب أن أشاركهم فيما يفعلون! كما كنت أبكي لأن أمّي تبكي، ولأن رحمة التي أهدتني المسمار الزجاجي الجميل تحس بالألم والحزن. لكن ربَّما كان السبب الحقيقي هو بكاء أمّي. ثمّ توقَّفت النسوة عن البكاء ومسحن دموعهن بالمناديل أو بأكمام الملابس. وواصلت البكاء وحيداً. حاولت العديد من الحاضرات تهدئتي فلم يفلحن. وخاطبتني والدتي:

- سنعثر على زينب قريباً، توقَّفْ عن البكاء يا سيدي محمد! ستؤذي عينيك بكلّ هذه الدموع!

أجبتها منتحباً:

- لا يهمني أن تعثري على زينب، أنا أبكي لأنني جوعان!

أمسكت بي والدتي مغضبة وجرَّتني إلى خارج الغرفة.

تناولت طعام الغداء وعدت إلى الكُتَّاب. قضيت فترة ما بعد الزوال في حفظ الآيات المُقرَّرة والنقر على لوحي الخشبي كما العادة، ثمّ قفلت عائداً إلى الدار، متوقعاً أن أجد حالة الفوضى مستمرة بها. غير أنني فوجئت بأن جميع النسوة انتهين من بكائهن وعدن إلى مشاغلهن المعتادة من طبخ وطحن توابل في جوٍ من الهدوء العام. ولم أجرؤ على سؤال أمّي حول مصير زينب ومغامراتها.

عاد والدي على عادته بعد صلاة العشاء. تناولنا الوجبة المسائية

بشكلٍ عـادي، وبعـد رفـع المائـدة تحدَّثـت أمّـي عـمَّا شـهده النهـار مـن أحـداث:

- لقـد قضـت هـذه المسـكينة رحمـة اليـوم في دوَّامـة مـن القلـق والعـذاب، وتأثرنـا جميعـاً بمـا حصـل لهـا!

سأل والدي:

- ما الذي حصل معها؟

- تعـرف عـلّال عامـل الفـرن الـذي يسـكن في حـارة الخلخالـين؟ طبعـاً تتذكـره! فهـو زوج خديجـة أخـت جارتنـا رحمة. قبل سـنة جاء هـو وزوجته لقضـاء أسـبوع هنـا عنـد أقربائهـما. إنهـما زوجـان محترمـان، متدينـان وخلوقـان، لكـن لم يرزقهـما الله ذريـة، رغم أنهما كانا يرغبـان في الإنجاب منذ ثلاث سـنوات. لأجل ذلك زارت المسـكينة خديجة العشَّـابين والفقهاء والسـحرة والعرَّافـات دون جدوى. منذ سـنة، ولنفس الغـرض، قاما بزيارة مقـام الـوليّ الصالـح سـيدي عـلي بوسرغـين. اغتسـلت خديجـة في العـين التابعـة للـوليّ ونـذرت أن تذبح له كبشـاً إنْ تحقَّق مرادهـا بالإنجاب، وفعلاً اسـتجاب اللـه لدعواتهـا. رُزقـت بطفـل وغداً سـيقام حفـل العقيقة.

تجـرَّأ والـدي عـلى إبـداء ملاحظـة مختـصرة حـول كـون هـذه الأحـداث جميعهـا لا تتضمَّـن مـا يفسِّر عـذاب رحمـة وقلقهـا، لكـن أمّـي قاطعتـه بحِـدّة واتهمتـه أنـه لا يسـتطيع أبداً أن يكمـل الإصغاء إلى خبرٍ مـن البداية إلى النهايـة:

- انتظـر! فـلا يمكننـي أن أكمـل القصـة وأنـت تقاطعنـي منـذ بدايتهـا! تلقَّـت رحمـة دعـوة لحضـور حفـل العقيقة. اشـترى لهـا زوجها بالمناسـبة ثوبـاً جميلاً يحمـل صـورة أزهـار متنوِّعـة الألـوان. أخرجـت، خصيصـاً لهذه المناسـبة، منديـل الـرأس الـذي لبسـته يوم زفافهـا، المنديـل الأحمر الذي يحمـل صـور الطيور. ألبسـت ابنتها زينب ثوبـاً جديداً وذهبتـا لحضور حفل العقيقـة. مرّتـا في طرقهـما بحـارة المشَّـاطين والصفَّاريـن والعوَّاديـن...

تضايق أبي:

- لا تسردي عليَّ أسماء كلّ حارات فاس!

غلبتني نوبة ضحك، لكن عينين قاسيتين وجّهتا لي نظرة حادة فلزمت الصمت.

عندما وصلتا إلى زقاق الرصيف كانت جموع المارة تسد مجال السير وكان أحد باعة السمك يبيع بضاعته بفرنك وخمسة وسبعين للرطل (بينما في ساحة الجوطية يبيعون السمك بفرنكين اثنين وخمسة وعشرين). تزاحم الناس لشراء السمك وحدث اختناقٌ مروري. استطاعت رحمة أن تخرج منه بصعوبة، وبينما هي تعيد ترتيب حالة ثوب حايكها، فوجئت باختفاء زينب. صاحت وشرعت في العويل والبكاء، أوقف بائع السمك عمله وتجمَّع الناس حول المرأة المسكينة لمساعدتها، لكنها لم تعثر على ابنتها إطلاقاً!

عادت رحمة باكية إلى الدار فواسيناها كما استطعنا. ذهب علّال البستاني لإخبار زوج رحمة بما جرى. خرج اثنان من البرّاحين[1] وقطعا دروب وأحياء المدينة كلها لإعطاء أوصاف الطفلة الصغيرة التائهة وتقديم وعود بتقديم مكافأة لِمَنْ يعثر عليها ويُعيدها لبيت أهلها.

طوال كلّ هذا الوقت ماذا كان بإمكاننا أن نفعل؟ لسنا إلّا نساء ضعيفات! لذا واسينا الأمّ المسكينة التي أصبحت تعيش في القلق والعذاب. بدوري حلّ الحزن بقلبي. قرَّرنا الذهاب أنا وفاطمة البزيوية إلى ضريح مولاي إدريس، ففي المصائب يجدر بالإنسان أن يلوذ بباب الله وبأوليائه الصالحين. لاحظت امرأة مُسنَّة حزننا فسألتنا عن سببه، وعندما أعلمناها بما حدث طلبت منَّا مرافقتها إلى دار «القيطون»، دار الأدارسة التي تستقبل كلّ من ضلَّ عن طريقه في أزقة المدينة، وهناك وجدنا الطفلة زينب. كانت مسؤولة الدار قد استقبلتها وأطعمتها لوجه الله. أعطيناها ريالاً كاملاً مكافأةً لها وشكرنا صنيعها. وهكذا استعادت

(1) بصوتٍ مرتفع في المدينة منادي عمومي مهمته نشر الأخبار بتلاوتها. [المترجم]

رحمة فرحتها بعد عودة ابنتها زينب!

رَدّ والدي:

- الحمد لله! أعدّي فراش النوم للولد، فهو متعب ومحتاج للراحة.

تحت غطاء النوم طفقت أتخيَّل شكل دار الأدارسة بفنائها الكبير وزلّيجها الباهت الألوان وأصوات النساء التي تجعلها مثل خلية نحل هادرة. نساء مهددات بالطلاق، فتيات تعيسات وأطفال تاهوا عن منازل ذويهم...

كنت بدوري تائهاً في مدينة خالية من السكان أبحث عن ملجأ بها. شعرت بعزلتي تزداد، تثقل وتخنقني. أطلقت صيحةً مدوية، جاء صوت خافت يواسيني من حالة الحمَّى التي أصابتني. ثمّ غرقت في ظلمة الليل الحالِك الهادئة وانتظمت وتيرة تنفسي.

يوم الخميس الموالي نظمَّت رحمة حفل عشاء للفقراء شكراً لله على عودة ابنتها سالمةً. ساعدتها في ذلك كلّ نساء الدار. غسلت لالة كنزة الشوّافة أرضية طابقها بالماء بمساعدة تلميذتها الوفية فطّومة، ثمّ فرشته بحصائر وأبسطة بالية. تكفلت رحمة ووالدتي وفاطمة البزيوية بطبخ الكسكس على سطح الدار، واستعملن الحطب في طهيه. كانت إحداهن تنقل الماء، والثانية تقشر الخضار، والثالثة تطبخ وتحرِّك المرق الذي يغلي في قدور النحاس بمغرفةٍ طويلة من الخشب.

قضيت الوقت مع زينب نعدو في درجات السلالم، نصعد للسطوح ونتلقَّى سحب دخان الطبخ في عيوننا مرفقة بالأوامر والنواهي، ثمّ نعود للاختباء غير مدركين ما يمكن أن نفعل بحرّيّتنا. كنا ننتظر بشوق ساعة العشاء ومشهد وصول المُتسوِّلين.

عندما نضجت أطباق الكسكس سقيت بالمرق واعتلتها أهرامات من الخضار واللحوم، ثمّ ذهب إدريس العوّاد إلى ضريح مولاي إدريس وإلى دار العميان الواقعة برياض جحا لإحضار الضيوف. وما لبثنا أن سمعنا مجموعة من أصوات الرجال ووقع عصيهم على الأرض. دخل إدريس

العـوّاد أوَّلاً إلى الفنـاء متبوعـاً برجـلٍ ضريـر ذي لحيـة بيضـاء يقـوده صبي صغـير في حـوالي العـاشرة مـن العمـر. دخـل بعدهـا عـدد من المُتسـوِّلين والمُتسـوِّلات إلى سـاحة الـدار. كان الجميـع يأتمـرون بأمـر الشـيخ الأعمى الأوَّل الـذي بدا أن له سـلطة مطلقة عليهـم. علمت لاحقاً أن لدار العميان، الموجـودة في زقـاق ريـاض جحا، رئيسـاً منتخباً وقانوناً داخليـاً توجَّب على جميـع النـزلاء الخضـوع له، تحـت طائلة الطـرد والحرمان.

كان الأمر يتعلَّق إذن برئيس المُتسوِّلين وسط قبيلته.

جلسـوا جميعـاً على الأبسـطة المتقادمـة، وقبل أن تبدأ وجبة العشـاء تلـوا أذكاراً تتحـدَّث عـن مصير المُحسـنين الذيـن يطعمـون السـائل والمحتـاج ويسـتقبلون ضيـوف اللـه. ثـمّ ختمـوا بأدعيـة تسـتجلب البركـة علـى الـدار المضيفـة وسـكانها، قبـل أن يرفعـوا أكفّهـم ويقـرؤوا الفاتحـة. شـاركتهم في قراءتهـا بحـماسٍ، لأننـي كنـت أحفظهـا عـن ظهـر قلـب.

بسم الله الرحمن الرحيم...

مالك يوم الدين.

مرّرنـا أكفنـا عـلى وجوهنـا، لاح الكسـكس، اقتعـد المُتسـوِّلون الأرض حـول الصحـون وتداولـوا كؤوسـاً مـن الفخـار نُقشـت عليهـا زخـارف بالقـار مليئـة بالمـاء. أكلـوا بتـؤدة دون عجلـة ولا جلبـة. وعندمـا انتهـت الوجبـة لحسـوا بتلـذُّذ أصابعهـم قبـل أن يمسـحوها في قطـعٍ مـن القـماش أُعـدت لهـذا الغرض.

بعـد إشـارة مـن رئيسـهم، بـدؤوا تـلاوة حـزب مـن القـرآن الكريـم. فـتردَّدت، في فضـاء منزلنـا الـذي طالمـا شـهد نغـمات الطبـول والقيثارات الزنجيـة التـي تعشـقها العرَّافـة، أصداءُ الآيّـات المباركـة. اختـار القُـرَّاء تـلاوة حـزبٍ طويـل رتّلـوه بطريقـة جميلـة. شـكّل منظـر العميـان الذيـن يرتـدون أطـماراً باليـة ويرتّلـون كلام اللـه مشـهداً نبيـلاً وقوراً لا يمكـن إلّا أن ينطبـع في المخيلـة.

بعـد موجـة أخـيرة مـن الأدعيـة التـي أُختتمـت بآمـين، نهـض العميـان

وسمعت أصوات ارتطام عصيّهم بالزلّيج المتقادم. خرجوا يردِّدون عبارات الشكر المعتادة.

دعت رحمة المبتهجة مجموعة من الجارات القادمات من المنازل المجاورة لغرفتها وقدَّمت لهن طبيخ لحم ممتاز بالخرشف وكسكساً بالحمص، مرفقاً بسلطات من قطع البرتقال التي نُثر عليها السكر والقرفة. أعدّت والدتي الشاي المنعنع، بينما كانت النسوة يثرثرن ويمزحن ويطلقن زغاريد مدوّية بين الفينة والأخرى. وقبل تناول العشاء كانت والدتي وجاراتها قد فتحن خزاناتهن الخشبية وغيَّرن ملابسهن فارتدين القفاطين المُلوَّنة المُطرَّزة بأشكال الزهور ومناديل الرأس الحريرية. استمر الحفل إلى مغيب الشمس قبل أن ينتهي فوق السطوح بزغاريد وأدعية أخرى، ووعود بلقاءات وحفلات مشابهة.

خلال هذه الأثناء لم ينتبه لي أحد. شاركت زينب الطعام في طبقٍ صغير كنت أملكه، لأن والدي أهداني إياه بمناسبة عيد الأضحى الماضي، شربنا الشاي بعدما صببناه في إبريق من تنك يعود لزينب، ثمّ تشاجرنا في النهاية.

بحلول ظلام الليل، عاد الهدوء للدار من جديد فشعرت بالحزن يدركني. أخرجت صندوق عجائبي وأفرغت محتوياته على ركن مرتبة. تأمَّلت كلّ قطعة على مهل. كانت كلّ القطع متجهمة صامتة في ذلك المساء، فقدت قدراتها السحرية على الحركة والكلام وأصبحت حذرة منطوية على نفسها. أغلقت عليها باب العلبة. وبمجرَّد ما عَمّ السواد من جديد صندوق العجائب، استيقظت القطع وبدأت ألعابها المُعقَّدة الفاخرة. كانت تجهل أن غطاء الصندوق لا يصمد أمام قدراتي على التأمُّل. كان مسماري الزجاجي يتمدَّد، يصبح بمساحة قصر أحلام يزخرفه الضوء والأقمشة الفاخرة. تتحوَّل المسامير والأزرار والمشدات واللؤلؤات إلى أميرات وعبيد وصبية وصبيّات، يعزفون ألحاناً هادئة جميلة، يأكلون من أطباقٍ لذيذة، يلعبون على أراجيح، يطيرون إلى أعلى الأشجار كي يقطفوا فواكهها، ثمّ يرتقون إلى عنان السماء على

جناح الريح باحثين عن مغامرات.

فتحت العلبة برفق كي أشاركهم عالمهم، غير أن كلّ شيء توقَّف، لم أجد إلّا مسامير وأزراراً بلا روح ولا أسرار. آلمني ذلك فشرعت في البكاء. دخلت أمّي، تحدَّثت عن كوني متعباً وحملتني إلى فراش النوم.

الفصل الرابع

تلقينا، خلال الأيّام الأولى من الربيع، دعوة لزيارة لالة عائشة وقضاء يوم كامل في ضيافتها. أيّاماً قبل الزيارة، أعدَّت والدتي حلوى من السميدة الرطبة، وهلاليات بحبات الينسون، وبعضاً من حلوى سلّو المُكوَّنة من الدقيق المقلي ممزوجاً بالعسل وبتوابل عطرية أخرى.

غادرنا المنزل مبكراً مُحمَّلين بكلّ هذه الحلويات، ثمّ لحق بنا إدريس الأقرع إلى مقر سكنى صديقة والدتي، حيث حمل إلينا قفّة مشترياتنا المعتادة، إضافة إلى ديك حسن الهيئة وخبز محلّى وعلبة شاي وقبضة من أوراق النعناع.

احتجّت لالة عائشة على تبذيرنا المال بشكلٍ غير معقول لإحضار كلّ هاته الهدايا، لأنها كانت تنتظر زيارتنا وقد اقتنت كلّ ما يلزم من قبل .

سكنت لالة عائشة داراً واطئة الباب تقع في الزقاق المغلق لزنقة

الحجّامين. وهي دار تشبه حالتها، من بعض الجوانب، حالة لالة عائشة نفسها. فكل من الدار وصاحبتها عرفتا في الماضي أوقاتاً أفضل. وبعدما دار الزمن وتقلَّبت الأحوال، حافظتا على نوعٍ من الكرامة وعلو الهمَّة، رغم تدهور أوضاعهما.

سكنت لالة عائشة في غرفتين صغيرتين من الطابق الثاني. تقودنا البلكونة المطلة على الفناء، التي يزينها درابازين من الحديد المنقوش، إلى الغرفة الرئيسية. فيما كانت الغرفة الثانية تستعمل في تخزين مؤونة الشتاء. وكان لهذه الغرفة الرئيسية نافذتان تطل إحداهما على الفناء والثانية على سقف مسجد الحيّ الصغير. كان طول الغرفة يضاعف عرضها، كما كانت حسنة النظافة والترتيب، غُلفت مرتباتها بالقماش، كما تجمَّعت وسائد كبيرة مطرَّزة الأغلفة هنا وهناك. زُينت الجدران بخزانات على شكل كوّات مفتوحة ملوَّنة وضعت داخلها أوانٍ من الخزف الأوروبي: صحون مزخرفة بصور الورد وكؤوس مستديرة. وتوسطت الجدار ساعة حائطية من خشب غامق اللون غنية بالنقوش ومثقلة بديكورات مختلفة، فيما فرشت الأَرض بحصيرة اعتلاها بساط زاهي الألوان.

كان مجموع هذه المُكوِّنات يعطي إحساساً بالراحة والاستقرار للرائي. لا يتعلَّق الأمر طبعاً بعلامات الثراء، لكنه يذكّر بعشٍ جميلٍ أنيق مُحكَم البناء يحمي سكانه من عصف الرياح.

بمجرَّد دخولنا قدَّمت لنا لالة عائشة الشاي المنعنع والحلويات. ثمّ استرسلت في الشكوى من جديدٍ من آلام المفاصل التي تعاني منها، من الصداع وآلام الأسنان التي ألمَّت بها في الأسبوع الماضي، ومن نقص الشهية. طرحت ألف سؤال وسؤال على والدتي التي أجابتها بتفصيل لا يقل طولاً ووقفت عند نوادر وقصَّت مشاهد حضرتها وقلَّدت هذه المرأة أو تلك. كان موضوع النميمة طبعاً هو جيراننا. تحدَّثت عنهم والدتي بغير حقد، لكن مع قدرٍ كبير من السخرية. شبَّهت زوج رحمة بحمار أفرط في أكل الشعير، وزوج فاطمة بالفأر، ولم يسلم والدي، الذي

دأبت على الإشارة إليه بقولها «الرجل»، من سلاطة لسانها. فرسمت صوراً كاريكاتورية لارتفاع قامته وقوته الجسدية وصمته المستمر. كنت أُكنّ لأبي حباً ممزوجاً بالإعجاب بسبب وسامته الظاهرة ولون بشرته الأبيض المُذهّب، لحيته السوداء، شفتيه الحمراوين، وعينيه الساكنتين العميقتين. كان كلّ شيء فيه يعجبني. كان أبي على وجه العموم مُقلاً للكلام مُكثراً للصلاة، فيما كانت والدتي ثرثارة لا تصلّي إلّا نادراً. كانت في الحقيقة أكثر إثارةً للفرحة والحبور، تعكس عيونها المتوثبة روح طفلة حقيقية. رغم بياض بشرتها وجمال فمها وأنفها، لم تكنْ متكبِّرةً معجبة بنفسها وهي في عزّ شبابها. على العكس من ذلك، حاولت دوماً أن تبدو أكبر من سنّها. وبينما كانت في الثانية والعشرين من العمر، أرادت أن تبدو كامرأةٍ كبيرة مجربة.

حدَّثتنا لالة عائشة بدورها عن جاراتها فنوَّهت بخصالهن جميعاً. عبَّرت عن إعجابها بتواضع وجمال إحداهن، عن نظافة أخرى، وعن إتقان ثالثة لتدبير شؤون البيت وفنون الطبخ. وحسب قولها، كانت كلّ جاراتها تتنافسن في الطيبوبة مكارم الأخلاق: كأنهن من ملائكة السماء! قبل أن تنحني على أذن أمّي وتوشوش لها حقيقة رأيها في الجارات، ثمّ ترفع صوتها من جديد:

- الحقيقة أن الله قد أنعم علَّي بسكنى هذه الدار التي تعيش الجارات بها كأخوات حقيقيات!

صعدت من الطابق السفلي ومن جميع الغرف أصواتٌ تعبِّر عن شكرها للالة عائشة على ما قالته. فردَّت هذه الأخيرة هي ووالدتي بسيلٍ لا ينقضي من عبارات المجاملة.

دعاني أطفال الدار لمشاركتهم اللعب. كانوا خمسة صبيان وثلاث فتيات لم أعرف أسماءهم. تمتَّعت بحماية أكبرهم، وهي طفلة تبلغ التاسعة من العمر. صعدنا فوق السطوح ونظّمنا حفلة استقبال. فرشنا أبسطة متقادمة وجلود أكباش فوق الأرض باعتبارها أثاثاً، وضعنا علبة مصبّرات صدئة فوق ثلاثة أحجار باعتبارها إبريق ماء، بينما رتبنا

مجموعة أحجار أصغر فوق قطعة ورق مثل أكواب شاي. شربنا شاينا الخيالي، وأكلنا حلوياتنا الوهمية قبل أن نقدِّم الشكر لمضيفتنا أكبر الفتيات، ثمّ قرَّرنا أن نلعب لعبة العروسة. اخترنا إحدى الفتيات لتلعب دور العروس فيما مثلت الكبرى دور الماشطة ونزلت للبحث عن أحمر شفاه وبعض الكحل وقطعة قماش لاستعمالها كمنديل رأس للعروس. أجلست العروس على مخدة وأطلقت الزغاريد، ثمّ بدأت الماشطة مهمَّة تزيينها وإلباسها كما هي العادة. ألبستها قطعة من ملاءة بيضاء باعتبارها ثوب عرس ودسّت في شعرها قطعاً من الورق الملوَّن باعتبارها حليّاً، ثمّ شرعت في تأمُّل إنجازها. حركت الشقاوة الغريزية نفس أحد الصبية فأمسك حفنة من تراب وألقاها على رأس العروس. وما لبثت الحرب أن شبَّت فوق السطوح. بدأت العروس وضيفاتها في البكاء والصراخ والركض في كلّ الاتجاهات، بينما تلطَّخت الوجوه بالدموع والمخاط. شرعت بدوري في البكاء بصوتٍ عالٍ مثل الجميع دون أعرف لماذا، وحاولت التخلُّص من أيدي الفتاة الكبرى التي تمسَّكت بي محاولة تهدئتي.

صعدت إحدى نسوة الدار إلى السطوح. وزَّعت صفعات وشتائم على الأبرياء والمذنبين دون تمييز، وحملتني مثل علبة، نزلت الدرجات وسلمتني لوالدتي التي أسمعتني سيلاً إضافياً من عبارات التقريع قبل أن تهددني بعدم اصطحابي إلى أي مكان في المستقبل.

شرعت المرأتان في الحديث مرةً أخرى عن رحمة زوجة صانع المحاريث، عن فاطمة البزيوية، وعن الخالة كنزة الشوَّافة.

قصَّت والدتي حكاية صلحها مع جارة الطابق الأوَّل، حدث فقدان زينب والعشاء الخيري الذي أُقيم للمُتسوِّلين العميان. تحسَّرت على لحظة التسرُّع التي قادتها إلى المعركة مع رحمة التي أصبحت، بقدرة قادر، جارة لطيفة نزيهة طيبة المعشر!...

ثمّ أضافت والدتي:

- إضافة لكلّ هذا، فهي مبشورة الوجه، دائمة التبسُّم، موفورة النشاط. أظن أن على زوجها أن يشكر الله الذي منحه مثل هذه السمراء! ألا يعجبك لون بشرتها وعيونها الكبيرة المبهجة؟ وفمها الجميل المزمم الشفتين؟

كانت لالة عائشة مسرورة تحرِّك رأسها مبدية موافقتها على كلّ هذه الملاحظات.

- جارتي فاطمة في الغرفة المقابلة لم يحرمها الله من أفضاله. عينان جميلتان ناعمتان، حواجب متقنة الاستدارة! بشرة خمرية! لكنني لا أحب كثيراً الوشم الموجود على ذقنها.

أضافت لالة عائشة:

- إضافة إلى شبابها وغضاضة سنها.

كنت قابعاً في ركنٍ من أركان الغرفة أنصت لهذا الحوار واستغرب من اعتراف والدتي بجمال جاراتنا. فقد كنت، في تلك السنِّ المُبكِّرة، ألاحظ هذا الجمال دون أن أمتلك القدرة على التعبير عنه بالكلمات. لذا أحسست بالامتنان لوالدتي التي عبَّرت بوضوح عن انطباعات كانت تساورني بشكلٍ عائم غامض ومتقطع.

أمّا بالنسبة للخالة كنزة، فمجرَّد ذكر اسمها جعل المرأتين تتبادلان نظرات عميقة ذات مغزى. بالنسبة لي، كانت كنزة الشوَّافة من سلالة أخرى، من سلالة ملكية مختلفة. كانت جميع بنات آوى تحس بالنقص اتِّجاه هاته اللبؤة! إذ إن لها جمالاً ملكياً غامضاً لا ينتمي إلى العالم المحسوس، عالم الجوع والشهوة والطمع، بل إلى عالم الملكات اللواتي تحملن في أجسادهن شعار العدالة والمساواة!

كانت عيونها الكبيرة والحمرة الخمرية لجلد وجهها تبهر زبوناتها وتثير احترام مَنْ لا يحبها. في الحقيقة أنني كنت أشعر بخوفٍ عصّي على التفسير منها. كنت أربط في أحلامي بشكلٍ وطيد بينها وبين سادة العالم اللامرئي. اعتقدت جازماً أنها تملك قدرات سحرية لا محدودة

وارتحت لكوني أسكن تحت نفس السقف مع شخصية لها مثل هذا النفوذ وهذه السلطة الروحانية.

وصل مولاي العربي زوج لالة عائشة فجأة. سمعناه ينطق في باب الدار بالجملة المعتادة قبل أن يدخل:

- *ألا يوجد أحد؟ أيمكنني أن أمر؟*

أجابته أصوات ثلاث نساء:

- *ادخل، ادخل!*

سمعنا صوت خطواته على السلم ودخل مباشرة إلى الغرفة الصغيرة. كان على علم بزيارتنا، ولم يكنْ من اللائق أن يلتقي بوالدتي أو يراها. ذهبت لالة عائشة للقاء زوجها وشرعا في الكلام بأصواتٍ خافتة مكتومة. بقيت مع والدتي وحدنا ولم أجد ما يمكن أن أنشغل به فحكيت لها عن لعبة العروس فوق السطوح وعن أصل المشكلة التي حصلت. أجابتني بنصائح عامّة حول كيفية التصُّرف مع الآخرين.

نهضت وأطلَّت من النافذة. التقت عيناها بعيني جارة أخرى، تبادلتا التحية وتحدَّثتا عن بداية الربيع التي تكون دوماً صعبة. انتهزت الجارة الفرصة للحديث عن نزهة في البادية شاركت فيها قبل سنوات، حيث كان عطر الورود يجتاح الفضاء المفتوح، والطيور تتحاور بين الأشجار، والنساء يركضن بأقدامٍ حافية ويغنين ويلعبن في ماء عينٍ مجاورة. لكن عاصفة قوية ماطرةً ثارت بعد الزوال فجمع الكل الأبسطة والأواني التي اُستقدمت بالمناسبة وعادوا مسرعين. وانقسمت آراء الأسرة بين مستبشر بالمطر ولاعن للعاصفة التي أفسدت النزهة.

كنا في وضعية مزرية بعد عودتنا. التصق التراب والوحل بنا وبثيابنا. كنت ارتديت للمناسبة قفطاناً رائعاً بلون المشمش ما عاد يُخاط مثله اليوم، وقميصاً مزرَّراً بورود أرجوانية...

عادت لالة عائشة إلينا وقد بدا التأثُّر والحزن على ملامحها. جرّت

والـدتي إلى أقـصى ركـن في الغرفـة وأكـثره عتمة. بقيـت أتفـرَّج وحدي من البلكونـة، فانتظـرت المـرأة التـي تحـكي عـن ذكريـات طفولتهـا عـودة أمّـي لتكمـل القصّـة. وبمـا أن هـذه الأخـيرة تأخَّـرت، رفعـت الجـارة رأسـها إلى السـماء معـبرة عـن التـبرُّم مـن عـدم الإنصـات لهـا، وعـادت إلى عتمـة غرفتهـا بعدمـا اعتـبرت أن صغـر سـن طفـلٍ مثـلي لا يسـمح لهـا بـأن تكمل الحديـث معـه حـول أثوابهـا النفيسـة.

واصلـت والـدتي ولالـة عائشـة حوارهـما الخافت، وكنت أحاول استراق السـمع إلّا أننـي لم أفهـم الـشيء الكثـير. بيـد أننـي لاحظـت تـردُّد اسـم «الباشـا» مـرَّات متعـدِّدة في الحـوار. كانـت هـذه الكلمـة تثـير في نفـسي الفضـول والخـوف. مَـنْ هو الباشـا؟ تلك الشـخصية التي تأمـر بجلد الناس متـى مـا راق لهـا ذلـك؟ بسـجنهم في زنازيـن صغـيرة لا يذوقـون فيهـا إلّا المـاء وخبـز الشـعير. كان الباشـا شـخصاً رهيبـاً في عيـون عامّـة الشـعب، مرادفـاً للمشـاكل والآلام والصرخـات والبـكاء. كانـوا يسـتدينون ليدفعـوا رشـاوى لأذنـاب الباشـا ويتحملـون التقريـع والإهانـات في مجلـس الحكـم الـذي يعقـده، يـرون حقوقهم تُهضم وتتحوَّل، بسـحر سـاحر، إلى اتهامات ضدهـم. مـع ذلـك لم يتوقَّفوا عن الشـجار من أجل أتفه الأسـباب والإسراع لتقديم شـكاوى أمام نفس الباشـا. وغالباً ما خرجوا من مجلسـه مغضبين مهانين.

شرعـت لالـة عائشـة في بـكاءٍ صامـت ومسـحت دموعهـا بكـمّ ثوبهـا. واسـتها والـدتي بعدمـا احتضنتهـا بـين ذراعيهـا كـما لـو تعلَّق الأمـر بطفلة صغـيرة.

أثـار المنظـر اسـتغرابي. فهـا هـي لالـة عائشـة الأكـبر سـناً تحتـاج للمواسـاة مـن طـرف أمّـي التـي أصبحـت فجـأة تلعـب دور الأخـت الكـبرى. اجتاحتنـي رغبـة في الضحـك، لكننـي امتنعـت عـن ذلـك لخـوفي مـن إغضابهـما. دفعنـي المشـهد الغريـب للخـروج إلى السـلالم. وددت لـو التقيـت مجـدَّداً مـع الطفلـة التـي لعبـت دور الماشـطة لخـوض مغامـرات جديـدة وعجيبـة في بلـدانٍ سـحرية، لكـن العزلة كانت قدري، مع الأسـف!

جلست على إحدى درجات السلم وشرعت أغنّي كلماتٍ غير ذات معنى:

أكل الباشا!

لالة عائشا!

يا ليل! يا ليل!

يا عيني

ابكي وحدك!

خاطبتني والدتي من داخل الغرفة سائلةً إذا ما كنت أنوي الاستمرار في النهيق لفترة أطول. لذت بالصمت واتّكأت على الجدار، وسرعان ما سيطر عليَّ النوم.

سمعت شخصاً ما يوقظني ويمسكني من يدي، يسحبني إلى داخل غرفة لالة عائشة التي وضعت بها المائدة. كنت متعباً وبحاجة للنوم. رغم ذلك فرضت عليَّ والدتي تناول الطعام. لم أستطع ابتلاع أي شيء وبدا لي الدجاج المطبوخ بالجزر بطعم التبن. لطّخت جلبابي الجديد بقطرات من المرق فسمعت تقريعاً ولوماً حادّاً من والدتي. ثمّ تركتني أنام فتمدَّدت فوق أحد الأفرشة وبدأت في الشخير.

جاء والدي ليرافقنا في رحلة العودة إلى منزلنا. نزلت درجات السلم وقدماي تتعثران في كلّ خطوة. كانت الأزقة مضاءة، إضافة لذلك حمل والدي لمبة من قصدير مزخرفة بقطع زجاج ملوَّنة. طفقت قامات بشريّة تخرج من سواد الليل تمرّ بنا وتعبر لتختفي، يبتلعها الظلام دون أن أتعرَّف على أي منها، ولا على الأزقة التي نقطعها. أسمع خطى قادمة من بعيد تقترب ثمّ يذوب صداها. نبح كلب، وسمعت مشادة طاحنة بين مجموعة من القطط فوق أحد السطوح. تواجه الغرماء وصاح كلّ منهم اعتزازاً بقوته وشجاعته. خرجت موجات شرر وغضب من أفواه القطط، ثمّ تباعد صدى صرخاتها ومموائها. وحدها أصوات خطواتنا وأنفاسنا المتسارعة واحتكاك ثيابنا بأجسادنا كسرت هدوء الليل في هذه المدينة الميتة.

بمجرَّد وصولنا آويت إلى فراشي وغططت في النوم.

كان الغد يوم جمعة، فعاد والدي لتناول الغداء معنا، وارتدى بالمناسبة جلبابه الناصع البياض وعمامته الجديدة.

كانت الوجبة رائعة، أكلنا خلالها لحمة كبش بخرشوف وكسكساً بالسكر والقرفة، ثمّ سلطة لذيذة من البرتقال وزيت الزيتون.

شربنا مجموعة من كؤوس الشاي المنعنع بينما زينت صينية الشاي وردتان وضعتا في كوب من الخزف الصيني. تنهَّدت والدتي، ثمّ خاطبت زوجها:

- إن القدر لا يرحم أحداً، والمصائب تطال الجميع، فقراءً وأغنياءً، أخياراً وأشراراً. أنا منقبضة القلب من أجل ما حصل للالة عائشة، لم أرغب أن أزعجك أمس بما جرى لها.

نظر والدي إليها منتبهاً فواصلت:

- تشاجر زوج لالة عائشة مع شريكه المُسمَّى عبد القادر ابن فلان...

ترفع رأسها إلى سقف الغرفة لتدعو عليه:

- اللهم احفظنا واحفظ أولادنا وأولاد أولادنا من أولاد الحرام الذين يلاقونك بالابتسامة على الأسنان والضغينة في القلب: آمين! عبد القادر، هذا الوضيع الذي رضع من حليب الشياطين لم يكنْ يملك حتى قميصاً نظيفاً، يوم عطف عليه مولاي العربي ومنحه عملاً في مشغله بالمشّاطين. عطف عليه فشغَّله وأقرضه بعض المال، ودعاه مِراراً إلى الغداء والعشاء. وفي البداية كان يعبّر عن امتنانه لمولاي العربي. المُهّم اشتغلا معاً وكانت الأحذية والخفاف التي يصنعها مولاي العربي مثار إعجاب نساء فاس. صار للمحل سمعة طيبة في كلّ الأوساط. فكّر عبد القادر في الزواج فشجعه مولاي العربي على هذا الطريق، خطبت له لالة عائشة فتاة شابة في المستوى. تعلم أن حفلات الزواج مكلفة دائماً. ورغم أن عبد القادر سهر الليالي في العمل فإنه عجز عن توفير

مبلغ المهر لخطيبته فلجأ مرّة ثانية لمولاي العربي طالباً منه أن يقرضه المال اللازم. نجح مولاي العربي في جمع مبلغ أربعة وعشرين ريالاً كاملة وأقرضها لعبد القادر دون أي وثيقة تثبت القرض. وليساعده أكثر على تدبُّر مدخول إضافي، أدخله معه كشريك في المشغل.

- أتعرف كيف جازى عبدالقادر هذا مولاي العربي على أفضاله؟!

لم يكنْ والدي يعرف. ولم تترك له والدتي فرصة أن يخمِّن فواصلت:

- لن تستطيع التخمين! أولاد الحرام ووضيعو الأصول الذين لا يراعون حرمة الأخلاق سيحاسبون يوم لقاء الله! أتعرف ماذا فعل عبد القادر؟ أنكر هذا الدين جملةً وتفصيلاً، وزعم أنه شريك حقيقي في المشغل وأنه دفع أموالاً لمولاي العربي من أجل شراء معدات المشغل من جلدٍ وخيوطٍ مُذهَّبة! لم يقبل الباشا رواية أي من الطرفين المتنازعين! كلّف أحد مساعديه بالتحقيق في القضية. لم يفعل هذا الأخير أكثر من الدردشة مع الاثنين دون نتيجة تُذكر، ثمّ طلب منهما أن يدفعا له مبلغاً معتبراً كتعويض عن الوقت الذي أضاعه في محاولة إجراء الصلح بينهما! لم يجدا بداً من دفع المال المطلوب! ثمّ رفعا القضية إلى محتسب التجّار. كلّف أحد مساعديه بالتحقيق فرفضا التحدُّث إليه. طلبا أن لا يفصل بينهما إلّا لجنة من أهل الحرفة. اجتمعت اللجنة فحقَّقت وواصلت التشاور من الصباح للمساء. ثمّ قضت لصالح عبد القادر. أي زمان أصبحنا نعيش فيه؟ ما عاد هناك عدلٌ ولا عدالةٌ! أعرف ما ستقول لي! كيف للقضاة أن يطّلعوا على خبايا النفوس، وعلى تفاصيل لا يعرفونها في كلّ قضية! لكن هكذا هي الدنيا! لابد من وجود قضاة ونصَّابين لكي يجد كلّ من الطرفين عملاً. والناس المستقيمون أهل الأخلاق والنيَّات الحسنة هم دائماً الضحايا!

تدخل والدي:

- ليس دائماً، ولكن القضاة يخطئون أحياناً. القضاة بشر، والبشر خطاءون بطبعهم! سبحان من لا يُخطئ!

أضافت والدتي:

- سبحان مَنْ لا يخطئ، الواحد الأحد الذي لا شريك له! لكن كلّ هذا أثّر فينا كثيراً، وقد بكت لالة عائشة طيلة المساء وانتابتها أوجاع متعدِّدة وصداع حادّ.

أعقب الصمت هذا الحوار.

سمعت حبات السبحة تنساب بين أصابع والدي. في نفس الوقت كانت رحمة تتفقَّد عجين خبزها وتتأكَّد من أنه أصبح جاهزاً للطهي. كانت زينب تلعب مع قطها الأسود الهزيل الذي تبنَّته الأسرة إرضاءً لنزوة الطفلة التي أرادت أن تطعمه سمناً وعسلاً وحلويات محشية وأفخاذ دجاج! أن تلبسه بُرنساً من قماش وعمامة من حرير!

طفلة ساذجة! منذ متى أصبحت القطط تأكل العسل! والقط بالعمامة سيبدو مثل مهزلة متحرِّكة! إن فتاة غبية مثل زينب لا يمكن أن تجد في دماغها التافه إلّا مثل هذه الأفكار. كنت أعتقد جازماً أنها لا تجيد أي نوعٍ من أنواع اللعب، وأنها مدعاة للسخرية والاحتقار. أمّا أنا فكنت أملكُ صندوق العجائب الرائعة الخاصّة بي. أستطيع أن أهرب في أيّة لحظة من هذا العالم المزعج المليء بالباشاوات ومساعديهم والمحتسبين والتجَّار المتنازعين لأغرق في عالمي السحري العامر بالأحلام والأغاني. كان لي رفاق خياليون: فرسان وأمراء عادلون. قرَّرت أن أذهب عند عبد الله البقّال لسماع حكاية من فمه. لم أكنْ قد رأيت عبد الله هذا ولا تعرَّفت عليه بعد، لكنني نسبت له كلّ القصص العجيبة التي سمعتها. رغم ذلك كان لهذه الشخصية وجودٌ حقيقي في عالمنا. وقد خصَّص والدي أمسية كاملة للحديث مع والدتي حول عبد الله وقصصه العجيبة. علق حديث والدي حول القصص المذكورة في ذاكرتي وظل حاضراً بها خلال كلّ سنوات طفولتي.

كان فصل الخريف قد حلّ، والريح تزمجر في درجات السلم، وتصفق الأبواب. نمت ممدَّداً واضعاً رأسي فوق ركبة والدي الذي تحدَّث

بهدوء بصوته الأجش سارداً القصة التالية:

يحفظ عبد الله مجموعة من الحكايات التي تنتهي بطريقة غريبة ومفاجئة دون معنى ظاهر.

عبد الله رجل غريب الأطوار مثل حكاياته، وهو يملك متجراً في درب الحفّارين، في زقاقٍ بارد في الصيف لا يمر به الناس إلّا نادراً في جميع الفصول.

يخزن عبد الله في متجره مجموعة من الأشياء المتهالكة التي يعلوها الغبار، ويقضي النهار جالساً على جلد خروف أكلته العثة يهشّ على الذباب. زبائنه قليلون. فتح متجره قبل مدّة طويلة في الحارة. متجر غريب كلّ رأسماله لا يتجاوز مجموعة مكانس من الدّوم، قفّات من أحجام مختلفة، علبة خيوط ومجموعة علب معدنية أغلب الظن أنها تتضمَّن توابل.

مضى وقتٌ طويل على افتتاح متجره. ابيضّت لحيته ورغم ذلك لم ينقص عدد المكنسات كثيراً. باع أَقلّ من ثلث بضاعته الأولى من القفّات. ولم يجد يوماً الوقت الكافي لفتح علب الخيط والتوابل!

أمّا حكايات عبد الله فيبدو أن معينها لا ينضب. وهو لا يكرِّر أبداً الحكاية نفسها. يروي قصصاً عجيبة للصغار والكبار، لسكّان المدينة وللقرويين، لمعارفه وللعابرين.

يقصُّ عبد الله حكاياته، التي تدوم ربع الساعة أحياناً وصبيحة كاملة في أحيانٍ أخرى، بصوته الهادئ النبرات الذي لا يتغيَّر، وهو جالس لا يشربُ ماء، ولا يغيرِّ هيأة جلوسه، ولا يحرِّك يديه، يهش فقط أحياناً بمذبته على الحشرات.

لا يستعمل العبارات التي يبدأ بها الحكواتيون العرب عادةً قصصهم. إنه يحكي عن معارك خرافية وعلاقات عشق مؤثِّرة ورحلات إلى بلدان عجيبة أو مجرَّد نزاع بين صاحب متجر وجاره، مغامرات متشرِّد أو معاناة متسوِّل في تدبُّر عشاء يومه!

يحبّه البعض، ويكرهه آخرون دون أن يعبِّروا له عن حقيقة مشاعرهم، لكنهم ينصتون إليه جميعاً مسحورين.

يبدو عبد الله مترفِّعاً لا يأبه بمحبة ولا بعداوة الآخرين. يعتبره أصدقاؤه شاعراً وحكيمًا من حكماء الزمان، بل عرَّافاً. أمّا أعداؤه فيرون فيه كذاباً منافقاً ويتهمونه أحياناً بالسحر والشعوذة. لكن ما هي حقيقته؟

إنه مجرَّد بقّال يروي قصصاً.

طلب أحد الأعيان من مختار الحارة أن يصغي لحكايات عبد الله، لأنه لمس في ثناياها ما اعتبره تعريضاً بالسُّلطات.

زعم آخرون أن السُّلطات هي نفسها تدفع أجرة لهذا البقّال الذي لا يبيع أيّة بضاعة، ليتكفَّل بصرف اهتمام السكّان إلى عوالم الخيال بدلاً من الخوض في شؤون السياسة.

انبهر المختار نفسه بحكايات عبد الله، فأصبح يلازم مجلسه ويكيل له المدائح ويتحدَّث عنه باعتباره من العلماء. أجاب عبد الله بأن مجموع علمه لا يساوي شيئاً يستحقّ الذكر، وأن دور العلماء ليس رواية القصص، بل قول الحقيقة وتدوينها. قال عبد الله:

- كتب أحد العلماء الحقيقيين كتاباً ووضع صفحاته المخطوطة فوق سطح الكعبة المُشرِّفة لمدّة عام كامل، وعندما عاد إليها وجد الصفحات لامعة لم تتغيَّر ولم تتأثَّر بريحٍ ولا بشمس ولا بمطر! كما أن الحبر كان طريّاً على الورق. فقط بعد هذا الاختبار، قام بطبع الكتاب. إنه على صواب، فالحقيقة لا تتغيَّر، ولا تنمحي، ولا تتأثَّر بشيء!.

أضاف عبد الله:

- لست عالماً، تدخل الحكايات أذني من جهةٍ، وتخرج من الجهة الأخرى.

- هل ذلك صحيح؟ لا.

قدر حكايات عبد الله هو نفسه قدر حكايات البشريّة على الدوام.

ثمّة مَنْ يصدِّقها وثمّة مَنْ يكذِّبها. هناك مَنْ يضحك منها، وهناك مَنْ تبكيه. بعضهم يكتفي بظاهر القول، فيما يتمكّن آخرون من تفسير معانيها.

روى عبد الله حكاية لأحد الأطفال، فردَّ هذا الأخير:

- *قرأت قصة أجمل منها في كتابي المدرسي.*

قال عبد الله:

- *هذا ممكن، لكن قصتك موجودة في كتاب وكلّ زملائك في المدرسة يمكنهم قراءتها. أمّا القصّة التي أرويها فلا توجد إلّا في كتابٍ واحد فريد.*

وأشار بيده إلى قلبه.

يغلق عبد الله متجره كلّ مساء ويغادر الحارة بخطى وئيدة صغيرة. لا يعرف أحد مقر سكناه. وحده عبد النبي المعروف بنميمته قال إنه رأى الرجل يدخل إلى أحد الفنادق. أمّا حبيب الذي تبعه ذات يومٍ محاولاً اكتشاف مكان سكناه فقال:

- *عبد الله من أولياء الله. تبعته ذات يوم إلى أن وصل حارة الصفّاحين في الضفة الأخرى من وادي فاس، دخل في زقاقٍ مغلق ينتهي بزاوية ضريح مرصوصة الجدران بالزّليج الأخضر. دخل إليها، انتظرت دقيقة ثمّ تبعته، لكنني وجدت المكان فارغاً ليس به أحد. كبّرت وسقطت مغشياً عليَّ. منذ ذلك اليوم لم أعد أُلقي بالاً إلى ما يقوله الجهّال عنه، لأنني أعرف أن أولياء الله لهم منازل خفية لا يعلمها إلّا الله.*

قال بعضهم:

- *حبيب على حقّ!*

ردَّ عبد النبي:

- *يبدو أن حبيب قد سمع من حكايات عبد الله أكثر مما ينبغي،*

حتى خالط عقله الخبل. الله وحده عنده علم كلّ شيء، وتصرُّفات عبد الله ليست تصرُّفات المسلم التقيّ. هل رأيتموه يؤدي الصلاة يوماً؟ هل يغادر حانوته في ساعات تناول الطعام؟ هل يقول كلاماً يعبِّر عن التقوى والصلاح؟ إنه مفسد للأخلاق، شيطان بعمامة ولحية بيضاء يعيش في الأكاذيب مثل خنزير في الوحل!

غضب حبيب الهادئ عادة واحمرَّت وجنتاه فصرخ في عبد النبي:

- وهل تريد أن يشبهك حتى يكون مسلماً صالحاً؟ صحيح إنك تؤدي صلواتك في وقتها، تغادر دكانك في أوقات الوجبات، تداوم على صلاة الجمعة وعلى تكرار الآيات والأحاديث في كلامك، لكن حديثك يقطر بالنميمة والحقد على الناس الذين تغتابهم. حديثك تفوح منه رائحة الموت والعفن من كثرة النميمة. لن تبلغ حتى درجة الشيطان لأن كلّ أعمالك حقيرة الشأن. لست إلّا فأر مجاري قذرا يتمرَّغ في الدقيق الأبيض ليخدع الناس! يظن أن بياض الدقيق سيخفي حقيقته بينما هو قد لوَّث الدقيق الأبيض نفسه!

انقض عبد النبي على حبيب محاولاً توجيه ضربة له فأمسك به هذا الأخير بقوة من ساعديه، مهنته كحدّاد تجعل عضلاته أقوى بكثير. ثمّ خاطبه:

- تريد أن تضربني! ها أنتم ترون أن المنافقين وضعفاء القلوب يلجأون دوماً للعنف! عضلاتي تطوِّع الحديد وتواجه النار. لن أستعملها لسحق صرصور مثلك. لا أُدافع عن عبد الله البقّال، أحاول فقط نصحك يا جاهل! يا متعالم! لكن دماغك مثل الصخر وروحك بالية محنطة. أنت مجرَّد جثة، وأنا لا أحبّ لمس الجيف!

طوَّح حبيب بجسد عبد النبي في اتِّجاه الجدار المقابل، ثمّ غادر. صام لمدّة أسبوع كامل ليكفّر عن غضبته هذه.

روى بعضهم ما حدث لعبد الله فظلّ ساكناً في البداية، ثمّ حرَّك مذبته، وروى حكاية جديدة.

الفصل الخامس

لم يسبق لي أن شاهدت فقيه الكُتَّاب مبتسمًا قبيل تلك الصبيحة من يوم الأربعاء، حيث أصبحت العصا المقطوعة من شجر السفرجل مجرَّد أداة زينة زائدة على الحاجة لا تستعمل لضرب التلاميذ، بل فقط لتنشغل بها الأصابع في وقت الفراغ.

استظهرت درس اليوم كما العادة فهنأني الفقيه:

- هذا جيّد يا ولدي، ستصبح إن شاء الله طالباً مُجدًّا يغرف من بحار العلم.. انهض فتح اللهُ عليك!

قبل أن ننهي حصة الصباح ونذهب لتناول الغداء، طلب منا الفقيه لزوم الصمت. ثمّ حدَّثنا عن يوم عاشوراء الذي يصادف حفل بداية السنة. أعلمنا أن أمامنا خمسة عشر يوماً من الاستعدادات للاحتفال بالمناسبة، أنّ الكُتَّاب سيضاء بالشموع ابتداءً من منتصف الليل حين تحلّ المناسبة المذكورة، وسيشارك جميع التلاميذ في الحفل في جوٍ

مـن البهجـة والجديّـة. لـذا فعـلى كلّ منّـا أن يحـضر مـن منزلـه مقـدار سـلطانية مـن زيـت الزيتـون لاسـتعمالها في لمبـات الإنـارة، كـما يتوجَّـب صباغـة جـدران الكُتَّـاب بالجـير الأبيـض، اسـتبدال حصائـر الكُتَّـاب الباليـة بأخـرى جديـدة، وإخبـار آبائنـا بالإجـراءات الجديـدة التـي تعتمـد جميعهـا عـلى مسـاهماتهم الماديـة.

وفي النهايـة أعلـن أنـه يمنحنـا عطلـةً في فترة ما بعـد الزوال. يـا لـه من خـبرٍ مفـرح! ركضـت لأخـبر والـدتي بالموضـوع فوجدتهـا غـادرت المنـزل. أخبرتنـي فاطمـة البزيويـة إنهـا خرجـت قبيل سـاعة بعدمـا قدمـت لزيارتهـا لالـة عائشـة. تحوَّلـت فرحتـي إلى حـزن، ثـمّ إلى قلـق. لاشـكّ أن زيـارة لالـة عائشـة لهـا علاقـة بمـا حـدث لزوجهـا مـع هـذا المدعـو عبـد القـادر. هـل حدثـت مشـكلة أخـرى بـين مولاي العـربي وهذا الشـيطان؟ ألم يتـم إيداعـه في سـجنٍ مظلـم؟ إن الموضـوع يوحـي بيـدٍ خفيـة يحركهـا الباشـا والقاضي وأعوانهمـا.

كانـت والـدتي قـد تركـت مفتـاح الغرفـة في بابهـا. دخلـت لتفاجئنـي الأشـياء المعتـادة وقـد تغـيَّر مظهرهـا المعتـاد، اكتسـت طابـع مخلوقـات خرافيـة شريـرة تحـدّق فيّ، تثـير في قلبـي الرعـب قبـل أن تعـود لطبيعتهـا الأولى. جلسـت أنتظـر عـودة والـدتي التـي سـتخلّصني مـن عـداوة الأشـياء ومقالـب العفاريـت التـي انفـردت بي. جفَّـت حنجـرتي مـن الريـق ومـرّ الوقـت بتثاقـلٍ كبـير إلى أن سـمعت صـوت حركـة والـدتي وهـي تجـرّ خطاهـا في الطابـقِ السـفلي صاعـدةً. عندهـا فقـط عاد للأمـور طابعهـا الاعتيـادي وأنار الغرفـة شـعاع من ضـوء الشـمس فبعـث الحيـاة في زلّيجهـا الباهـت الألـوان.

توقَّفـت والـدتي لاهثـة بمجـرَّد وصولهـا لطابقنـا. كانـت فاطمـة البزيويـة تُعِـدُّ سـمكاً ببـاب غرفتهـا فتوقَّفـت عـن ذلـك، غسـلت يديهـا ومسـحتهما في مريلتهـا منتظـرةً مـن والـدتي أن تفسِّر لهـا سـبب خروجهـا.

طلبـت منهـا والدتي أن لا تفضي بالسرِّ الذي سـتسـمعه إلى أي مخلوق، قبـل أن تقـترب منهـا وتبـدأ الوشوشـة في أذنهـا، مرفقـة حديثهـا بتنهُّـدات عميقـة وحـركات يـد وتغيـيرات في تعابـير الوجـه وحـركات الرأس.

تتبعت فاطمة كلام أمّي مجيبة عن التنهُّدات بمثلها، وعلى حركات اليد بأكبر منها، وعلى تعابير الوجه بأخرى أكثر حِدّة، قبل أن تضرب بيديها على فخذيها مُتحسِّرة:

ـ الله! الله! الله!

ـ نعم، كلّ هذا يُدمي القلب! ولا يمكن أن يتمنّى الإنسان هذه المصيبة التي حلّت بلالة عائشة حتى لأعدى أعدائه. هذا ما حصل، ولكن على المؤمن أن يحمد الله في السّراء والضّراء!

بعد ذلك فقط انتبهت والدتي إلى وجودي فأدخلتني إلى الغرفة. نزعت عنها ثوب حايكها وخفيها الأسودين ثمّ خاطبتني:

- لاشكّ أنك ميت من الجوع! تعال لتأكل!

فتحت والدتي قِدراً من الفخار وأخرجت منها لحماً مصبّراً لذيذاً سخّنته حتى أصبح يسبح في سائل من الشحم المُملّح المُقدَّد الذي كنت أعشق مذاقه. أعطتني قطعاً وافية منه وخبزاً. ثمّ نزلت لتفضي بالخبر الجديد إلى الجارة رحمة طالبة منها كتمان السر. كنت متشوِّقاً لمعرفة ماذا جرى. وكنت أعرف أنه ما عليَّ إلّا التحلّي بالصبر لألتقط كلمة من هنا وأخرى من هناك، لأركّب النتف المتفرِّقة معاً وأصل إلى الحقيقة في النهاية. أنهيت الأكل بسرعة وتبعت والدتي إلى غرفة رحمة. كانت هذه الأخيرة جالسة فوق جلد خروف تمشط شعرها الأسود المسدل على كتفيها وترطبه بزيت الزيتون. توقّفت عن التمشيط لتنصت إلى والدتي:

- باعت المرأة المسكينة كلّ ما تملك من أجله، لم يعد في بيتها ما يمكن أن تقتات منه الفئران!

- وفيم سيصرف المال؟

- المال سيصرف لشراء معدات عمل لمولاي العربي لفتح مشغله الجديد.

حرَّكت رحمة رأسها دلالةً على الموافقة قائلةً:

- *هذا جيّد!*

- *لالة عائشة امرأة شريفة النسب تتحدّر من أسرة عريقة، ولا يمكنها أن تتخلّى عن زوجها لتنقص مكانته بين نظرائه من صُنّاع الأحذية، أن يعمل لدى الأغيار بعدما كان يملك مشغلاً خاصاً به! العديد من الصعاب تواجه المؤمن في الحياة، ولكنها مجرَّد اختبار عليه اجتيازه. ومولاي العربي رجل صالح يستحق أن تضحي من أجله لالة عائشة ببيع كلّ حليّها وجميع أثاث بيتها حتى ينقذ ماء الوجه أمام زملائه. سيجازيها الله على كرمها يوم يفرّ المرء من أخيه، ومن صاحبته وبنيه! يوم لا حكم إلّا حكمه! يوم لا ينفع إلّا العمل الصالح في ميزان الحسنات!*

ردَّدت رحمة موافقة:

- *لا حول ولا قوة إلّا بالله! ولا إله إلّا هو!*

ساد الصمت من جديد، وعادت رحمة لتمشيط شعرها بمشطٍ تقليدي مصنوع من قرون الماعز. نهضت والدتي وأطلقت تنهيدة عميقة:

- *رافقت لالة عائشة في كلّ ما قامت به، وأشعر الآن بالتعب والحزن.*

صعدنا درجات السُلَّم أنا ووالدتي.

تعالى الصياح والبكاء من المنزل الملاصق لمنزلنا، صعدنا بسرعة. بعد مرور اللحظات الأولى للمفاجأة انطلقت الأسئلة في كلّ اتِّجاه:

- *مَنْ تُوفي؟مَنْ تُوفي؟!*

تكوَّنت مجموعات من النساء فوق سطح منزلنا والأسطح المجاورة للدار الملاصقة لنا. قدمت نسوة أخريات من المنازل المجاورة. تدلّين فوق الجدران الفاصلة واستعملت بعض منهن سلماً قصيراً للانتقال من سطح إلى سطح. سُمع بكاء وعويل، وبرز من بين الأصوات الباكية صوت كان أكثرها حِدّةً وحزناً. ظهرت وسط النساء خادمة سوداء

مُسنَّة، حرَّكت وجهها ويديها اللتين كان باطنهما الوردي يفتن مخيلتي ويثير استغرابي، قبل أن تفرض على الجميع الصمت، ثمّ أعلنت الجارية السابقة العجوز:

- أعرف من تُوفي، أنه سيدي محمد بن الطاهر الحلّاق، كان يرقد على فراش المرض منذ شهرين.

سألت امرأة ترتدي منديل رأس أصفر:

- كان مريضاً بماذا؟

- الله وحده يعلم! لكن الشيء الأكيد هو أن سيدي محمد بن الطاهر قد تُوفي.

ظلّت النساء صامتات لبرهة، اختفى رأس الخادمة العجوز. توقَّفت حركات الأيدي، ثمّ عادت النسوة إلى منازلهن.

كان سيدي محمد بن الطاهر الحلّاق شخصاً معروفاً في الحارة بلباسه الأبيض ولحيته الخفيفة. يداوم على التسوُّق حاملاً قفّة من الحلفاء. نشاهده عابراً الأزقة وقد ملأها بخضار الموسم وأحياناً بلحمة وبصل وثوم.

ساد المكان صوت بكاء ونحيب منتظم مستسلم، مستمر وساذج بدا وكأنه يخضع لإيقاع موسيقي معروف خاص بالمناسبة.

نزلت والدتي إلى غرفتها، التحفت ثوباً وصعدت إلى السطوح مرّة أخرى. قالت لرحمة:

- سأعبر السطح عبر الجدار، سأذهب لدار الميت، فأنا بحاجة للبكاء!

- أمّي، دعيني أرافقك! أريد أن أبكي معك قليلاً!

- لا، ما زلت صغيراً على ذلك، كما أنك ولد ولست بنتاً! بعد قليل سيأتي حفظة القرآن للقراءة على روح الميت. آنذاك يمكنك أن تنضم إليهم!

- *أرغب في البكاء! أرغب في البكاء!*

عاجلتني والدتي بصفعة قائلةً:

- خذ هذه، *وابكِ بكاءً حقيقياً!*

تدخَّلت رحمة وأقنعتها باصطحابي إلى المأتم. وافقت والدتي بعد تردُّد. أعانتني المرأتان على عبور الجدار الفاصل بيننا وبين الجيران. توقفت لحظتها عن البكاء، وعندما وصلنا إلى السُلَّم في طريق هبوطنا إلى دار المأتم الواقعة في الطابق السفلي، شرعت أقفز الدرجات بحماسٍ مستعجلاً الوصول إلى مجلس الباكيات!

جلس بالمكان ما يزيد على عشرين من النساء ينشجن وينتحبن بأصواتٍ مرتفعة. وكلّما انضمت إليهن أخريات ارتفعت الأصوات وتصاعدت الزفرات، وتزايد منسوب الندب وضرب الصدور! جلس الجميع على أبسطة ومرتبات، وجلست بينهن أرملة الحلّاق تضرب بباطن يدها وجهها وفخذيها وتتأوَّه بمرارة. شاهدت المنظر المثير بفضول واستغراب إلى درجة نسيت معها الهدف من زيارة المكان. جئت بقصد البكاء لكنني لا أبكي. رأيت امرأة عجوزاً منفوشة الشعر تعول وتنوح مردِّدة:

- *كنت عماد بيتي!*

كنت مظلتي ودرعي

وفارسي الشجاع!

دونك سيصبح منزلي مظلماً

دونك ستصبح أشعة الشمس باردة

دونك لا أملك عيوناً أرى بها

لن تتوقف عيوني عن ذرف الدموع

سأذرف دموعاً من دم

ستجف عيوني وأتيه في الظلمات!

ردَّدت امرأة شابة غريبة عن أهل المنزل ملتحفة بحايكها، في كلّ مرّة توقَّفت العجوز عن الإنشاد:

- آهٍ يا أمّي! آهٍ يا أمّي المسكينة!

آهٍ يا أمّي! أحببتك أكثر من أي مخلوق فوق الأرض!

كانت ثمَّة نساء يبكين، وأخريات يرفعن دعوات لله، ويتشفعن بنبيه، يستحضرن بركة الأولياء والصلحاء. فيما تجمَّع أطفال في ركن من الغرفة وشرعوا بدورهم في البكاء، فاقتربت منهم.

وجدت زينب بينهم. كانت تحاول أن تقلِّدهم في بكائهم، تفرك عيونها وتحاول دون جدوى. لم تتمكَّن من ذرف دمعةٍ واحدة! كانت عيونها جافة متيقظة لامعة مثلما تكونان حين تحدث فوضى ما. نظرت إليها قليلاً، ثمّ سدَّدت لها لكمة وسط الأنف مباشرة! شرعت الطفلة المسكينة في الصراخ وعمَّت فوضى عارمة في المكان فانتهزت الفرصة للفِرار إلى السطوح.

رغم إنني ابتعدت عن والدتي، كنت أعلم أنها ستواصل التنفيس عن حزنها بالبكاء دون أن تحفل بما يدور حولها.

سمعت صوت قدومٍ حفظة القرآن، المُكلَّفين بالقراءة على الميت، فصعدت النساء جميعاً إلى الدور الأوَّل واستمرّ نشيجهن المكتوم. بدأ المنشدون تلاوة سور طويلة من القرآن الكريم.

في النهاية صعدت والدتي إلى السطوح، ساعدتني على القفز عبر الجدار الفاصل بين المنزلين، ثمّ هبطنا إلى غرفتنا. جاءت فاطمة البزيوية، سألت عن الأحوالِ في دار الجنازة، عن النساء الحاضرات، عن أحوال زوجة الميت وعمَّا إذا كانت أمه لا تزال على قيد الحياة.

أخبرتها أمّي عن ألم زوجة الحلّاق، عن أسماء عدد من الحاضرات واعترفت أنها تجهل وجود أمّ الحلّاق من عدمه.

شاركت كنزة (الشوَّافة)[1] في الحوار حول الموضوع من الطابق الأرضي. وبعد حديث طويل، خلصت النسوة إلى النتيجة الفلسفية المعروفة: كلّ مَنْ على الأرض سيفنى، وعاجلاً أم آجلاً يأتي الدور على الإنسان ليغادر إلى دار البقاء.

سمعنا صدى القراءة والأذكار عبر الجدران لفترةٍ طويلة. كان يقطعه بين الفينة والأخرى صراخ وعويل حاد طويل متألم تطلقه زوجة الحلّاق. لم أجرؤ على اللعب، لذا لم أخرج مقتنياتي من علبتها. وكيف يمكنني اللهو في يومٍ كهذا غادر فيه سيدي محمد بن الطاهر، الشخصية المعروفة في زقاقنا، العالَم إلى غير رجعة؟ غادر أسرته وأصدقاءه وزبائنه ومعارفه إلى الأبد!

عمَّا قليل سيتم تغسيله ويدرج في كفنه قبل أن يحمله الرجال على عواتقهم فوق نعش مريح من خشب الأرز، ثمّ يرافقونه إلى حيث يدفن في الأرض الرطبة. ستنشق الأرض ثمّ تنغلق، إلى الأبد، على سيدي محمد بن الطاهر. كنت أحلم بكلّ هذا متكئاً على شباك نافذتنا فاجتاحني إحساس بالحزن العميق. استأذنت والدتي في التمدُّد على فراشها الكبير فوافقت. تمدَّدت وطفقت أتخيَّل عملية دفن الحلّاق. رأيته لابساً كفنه الضيِّق مسافراً داخل تابوته المُغطى فوق بحرٍ من الرؤوس المُعمَّمة التي تنشد أذكاراً وأدعية. سبق لي من قبل أن شاهدت مرور عدد من مواكب الجنائز قبالة زقاقنا. كان بعضها حاشداً يردِّد أذكاراً مُعقَّدة ويسير ببطء. كانت ثمَّة جنائز مسرعة يحضرها عدد قليل من المشيعين يكتفون بترديد الشهادتين جماعة: لا إله إلّا الله، محمد رسول الله. كان ثمَّة أموات يمضون إلى المقابر رفقة بضعة أشخاص فقط! لا يصاحبهم أحد ولا يلزم أحد نفسه بمشقة تغطية جثامينهم جيّداً وهي محمولة فوق الأكتاف! وجدت الأمر محزناً.

---

(1) العرَّافة.

أفضيت لوالدي بأفكاري فقصَّ عليَّ الحكاية التالية لمواساتي:

في أحد الأسواق العامرة التي تقع وسط المدينة كان يوجد دكان سيدي... (نسيت الاسم). كان رجلًا طيباً محبوباً من الجميع، وكان تقيّاً ورعاً لا يمرّ بالسوق موكب جنازة إلّا أغلق المتجر وتبعه للمشاركة في تشييعه. في أحد الأيّام مرّت به جنازة متسوِّل فقير. حمل التابوت شخصان فقط من حفَّاري القبور. وقف سيدي... وتناول خفّيه لمرافقة الجنازة، ولكنه ما لبث أن خلعهما ثمّ عاد لمجلسه المعتاد داخل دكانه. لامه بعض التُجَّار المجاورين الذين وجدوا تصرُّفه مفتقداً للياقة.

سمع سيدي... كلام زملائه من التُجَّار فأجابهم بما يلي:

- أيها الناس هل أنتم مؤمنون؟ دعوني أُفَسِّر لكم ما حقيقة ما شاهدتم وما صدر مني: عندما رأيت الجنازة لبست خفيَّ لأشارك في تشييعها، لكن عندما اقتربت منها شاهدت حولها طائفة من رجال يخرج من وجوههم النور، طائفة من ملائكة الجنة يحيطون بالجنازة! كان الراحل أحد أولياء الله الفرحين بلقاء ربهم! وخجلت، أنا العبد المذنب الضعيف، إن اختلط بالموكب النوراني! سعدت لأنني رأيت أخاً لنا في الله يلقى نهاية سعيدة، وقرَّرت مواصلة الجلوس بين توابلي!

في كلّ مرّة لقيت فيها جنازة لا يتبعها أحد صرت أدعو: لك الله أيها الغريب!

وأضيف في نفسي، وأنا أشعر بسعادةٍ غامرة: هو أيضاً ربَّما يكون محاطاً بموكب من ملائكة السماء!

تواصل النحيب والنواح في المنزل المجاور، تصاعد لدرجة بلغ أسماع كلّ سكان منزلنا. ألقت النسوة ما بأيديهن من أشغال البيوت وبكين جميعاً بين القدور والطناجر والكؤوس.

ربَّما أزفت لحظة خروج الجنازة من المنزل. تصاعد البكاء وأصوات القراءة. غطت غيمة الشمس، حلَّت بالأرض غمامة من الحزن. شرعت بالبكاء فنسيت والدتي كلّ شيء وجاءت للاطمئنان على حالتي:

- مم تشكو؟ هل لسعتك حشرة؟ هل تشكو من مغص؟

واصلت البكاء لفترة طويلة. امتنعت عن الأكل. كانت والدتي قد طبخت عدساً بالطماطم والبصل، وهي وجبة أحبها عادةً، ورغم ذلك رفضت تناول الطعام. واصلت التمدُّد فوق الفراش الكبير، نشرت عليَّ والدتي غطاءً من صوفٍ حريري مقلَّم الجوانب بالأحمر فاستغرقت في النوم إلى لحظة قدوم والدي. قبلت أن أشرب كوب حليب، ثمّ عدت إلى تحت الغطاء.

شعر والدي بالقلق من تطوُّر حالتي. لامس جبهتي ووجنتي عِدّة مرّات. رأيت شفتيه تتحرَّكان فعرفت أنه بصدد قراءة تعويذة أو آية تساعد على الشفاء.

فكرَّت: ربَّما أموت اليوم وترافق نعشي طائفة من الملائكة المشرقي الوجوه بالنور!

تخيَّلت موكب جنازتي. بعض من سكان الحارة، زملائي في الكُتَّاب والفقيه الذي سيبدو في هذه المناسبة وقوراً أكثر من العادة، وآلاف من ملائكة يرتدون ثياباً من حريرٍ أبيض. في منزلنا ستطلق والدتي صرخات نواحٍ طويلة أيّاماً وليالي، وتضطر لانتظار عودة والدي وحدها كلّ مساء. أرفض أن أموت!

اعتدلت فوق فراشي وصرخت:

- أرفض أن أموت! أرفض أن أموت!

صرخت بأقصى طاقة حبالي الصوتية، وقفت فوق الفراش: «أرفض أن أموت!!».. أمسك بي والدي ودعاني للتمدُّد من جديد. قال لي كلمات مهدِّئة فيما ظلّت والدتي تردِّد وعيناها محمَّرتان:

- يا ولدي الصغير! يا ولدي الصغير!

استعدت هدوئي. كانت أذناي تصفران، لكن أمكنني رغم ذلك أن أسمع والدتي تحكي أحداث اليوم، وفاة وجنازة محمد بن الطاهر،

مشاكل لالة عائشة التي باعت حليّها وأثاث بيتها، زوجها مولاي العربي العلوي يفتح مشغلاً جديداً، والدتي تدعو على النصابين والمخادعين عديمي الأخلاق من أمثال عبد القادر المجهول النسب...

في غضون كلّ هذا، تخيَّلت مجموعة من الملائكة ينزلون من سقف الغرفة بأجنحتهم الفضية، رأيت أحدهم يأتيني بصندوق عجائبي ويضعه فوق سريري. فجأة كبر حجم العلبة واكتست شكل تابوت. دخلته فأغلق عليَّ بابه. كان الجو داخله منعشاً معطَّراً بماء الورد ورائحة البرتقال. طار التابوت بين الغيوم، وصل إلى قصرٍ رائع من زمرد منحوت. سمعت جميع العصافير تغنِّي. ومنها الدوريان اللذان يوقظاني كلّ صباح. دار بينهما الحوار التالي:

- أحب التين المُجفَّف.

- لماذا تحب التين المُجفَّف؟

- لأن الجميع يحب التين المُجفَّف!

- نعم! نعم! نعم!

- الجميع يحب التين المُجفَّف!

التين المُجفَّف!

التين المُجفَّف!

التين المُجفَّف!

ضايق شيء ما جفنيّ المغمضين. كان شعاعاً من ضوء الشمس، سمعت عصافير الدوري فوق النافذة تغنِّي حول منافع التين المُجفَّف.

قالت والدتي:

- صباح الخير يا ولدي، تبدو اليوم أفضل حالاً! عانيت من الحمَّى ليلة أمس. عدني أن تتوقَّف عن شقاواتك، لن تذهب إلى الكُتَّاب اليوم!

أجبتها:

- *لكنني لست مريضاً!*

- *أعلم! أعلم! العب هنا اليوم وخذ هذه السفنجة المقلية!*

أمسكت السفنجة.

نادى إدريس الأقرع من باب الدار، ثمّ أوصل المشتريات اليومية. نزلت والدتي لتسلّمها. وسمعت فاطمة البزيوية تقول لها:

- *وصل وقت بقل الخبيزة، لونها أخضر رائع!*

أجابتها والدتي بجملة لم أسمعها. عادت سريعاً إلى الغرفة. بدأت تحرِّك الأواني والقدور والمنفاخ وتطحن التوابل في هاون من نحاس. كانت رحمة على عتبة غرفتها تُعِدُّ طعامها وتحرِّك منفاخها بدورها. كان منفاخنا متهالكاً من القدم. وعند الضغط عليه يبدو كأنه يخرج من فوهته كلمة:

ذباب!

ذباب!

ذباب!

أمّا منفاخ الجارة رحمة فكان ينوِّع أغانيه. يردِّد تارةً:

- *الجو حار!*

الجو حار!

الجو حار!

ثم يغنِّي بعدها:

- *أعاني!*

أعاني!

أعاني!

توقّفت عن الإنصات لصوت المنافخ وأصخت السمع إلى الطابق السفلي، حيث كان يتردّد صوت يشبه شرر الفحم أو ارتطام حبيبات بسطح الزلّيج القديم الباهت. كانت فاطمة البزيوية تنقّي صوفها من الشوائب وكنزة الشوّافة[1] تخاطب إحدى زبوناتها. سمعت صوت ضحكة، هديل حمامتين فوق السطوح تتبادلان حديثاً جميلاً يفرح القلب. كان ثمّة ذبابتان تتصارعان في الهواء، تلتقيان وتفترقان قبل أن تغادرا نحو مغامرة جديدة. قرع أحدهم الباب بعنف.

أجابته أصوات عِدّة من أهل الدار:

- *مَنْ الطارق؟*

ما كان يهمني أن أعرف مَنْ الطارق في تلك اللحظة. كان دفقٌ من النور يصلني عبر أشعة الشمس اللطيفة. وكان صوت الآذان يرتفع في السماء قادماً من مئذنة بعيدة:

- *لا إله إلّا الله!*

كان صوت المُؤذّن يعبر الفضاء ويغرّد فيه قبل أن يختفي في أرجائه الواسعة، ثمّ يعود من جديد.

دخلت نحلة طنّانة الفناء، ثمّ طارت نحو نافذة غرفتنا. اقتحمتها واتجهت صوب مرآة اللمبة مسرعة. صدمتها فعادت إلى الخلف من أثر المفاجأة، قبل أن تفرّ بأقصى سرعة من الغرفة. أضحكني المشهد كثيراً فصرت أصفق وأحرّك يدي.

سرعان ما سئمت لعبة التلصص على أصوات أهل الدار. جاءت والدتي لتطّلع على أحوالي فارتاحت لعلامات النشاط البادية عليَّ وعادت إلى أوانيها وتوابلها.

لأشغل نفسي بدأت استظهار الآيات القرآنية القليلة التي أحفظها

(1) العرّافة.

عن ظهر قلب. سرعان ما انتهيت منها فكرَّرتها، ثمّ بدأت أقرأ كلمات غير متناسقة ولا منسجمة ابتكرتها، اخترعت قراءة خاصّة بي تصعد من جو الغرفة عبر أشعة الشمس اللطيفة إلى عنان السماء مثل قافلة من فراشات ضوئية ملوَّنة.

جاءت والدتي للاطمئنان عليَّ مجدَّداً. نصحتني أن لا أُفرط في الصياح حفاظاً على حنجرتي كي لا تعاودني الحمَّى. ناولتني سلسلة صغيرة من نحاس منقوش يقترب لونها من الأخضر الرمادي، قائلةً:

- *أضف هذه إلى صندوق عجائبك!*

قرّرت تنظيف السلسلة قبل إضافتها للمقتنيات، تحويل نحاسها إلى ذهب برَّاق، وهو شيء كنت أستطيعه بسهولة في تلك السنِّ المُبكِّرة. تناولت حفنة من ترابٍ كنا نخصِّصه عادةً لتنظيف الطناجر والموائد وفركت السلسلة طويلاً إلى أن آلمتني أصابعي. غسلتها عِدّة مرَّات في سطل ماء تعوم فيه مكنسة من دوم قبل الوصول إلى النتيجة المبهرة.

تحوَّلت سلسلة النحاس إلى حليةٍ ذهبيةٍ لمّاعة. جربتها كدملج للتأكد من لمعانها، وضعتها على رأسي، ثمّ على صدري، فتحت صندوق العجائب، ونشرت كلّ محتوياته قبالتي على غطاء. تحوَّلت كلّ المسامير والأزرار التي أملكها، بعملية سحرية كنت أتقنها، لحليّ وجواهر متوهِّجة.

كنت منشغلاً بتأمُّل ممتلكاتي، فلم أنتبه لدخول قط زينب إلى غرفتنا. لم أكن أخاف منه. ماء وطاف بي، أردت أن أحتفي به، أن أفتح له أبواب عالمي السحري، أن أشركه في اللعب بممتلكاتي. راقه كلامي ومدَّ يده لملامسة أزراري وجواهري. وضعت السلسلة الذهبية حول عنقه. راقه الأمر في البداية، مشى متفاخراً بها، أراد نزعها فلم يتمكنْ من ذلك بمخالبه. انتابه الغضب، انتفخ وبره، واستطال ذيله، ولمع الشرر من عينيه. رغبت في استرجاع سلسلتي ففرَّ مني غاضباً. صعد الأدراج نحو السطوح فاستغثت بوالدتي، برحمة وفاطمة البزيوية، وحتى بزينب،

رغم خصومتي معها. حاصر الجميع القط الخائف وحاولوا القبض عليه. لم يفهم سبب الهجوم عليه فقفز إلى جدارٍ عالٍ جدّاً لا يمكن لأحد الوصول إليه. واستني والدتي والجارات. قلنَ إن القط سيعود لا محالة في المساء للدار وإن زينب ستعيد لي سلسلتي متى عاد.

زينب، هذه الماكرة هي التي كلَّفت قطها أن يخدعني ويسرق سلسلتي الغالية! استشطت غضباً منها وهجمت عليها. في أقلّ من رمشة عين غرست أظافري في وجهها ونتفت شعرها. دافعت الطفلة العنيفة عن نفسها بقوة. شدَّتني من أذني ووجهت لي ركلات متتالية. فاجأتني ضرباتها فسقطت أرضاً وتمكَّنت هي من وضع قدمها على صدري. حاولت النسوة الفصل بين الغريمين المُتعاركين، لكن دون جدوى! تلقين ضربات بالرؤوس والأيادي من كلينا!

تمكَّنت والدتي في النهاية من السيطرة عليَّ فحملتني إلى غرفتنا وغطَّست رأسي في سطل ماء. طلبت مني أن أمسح وجهي وأصمت. لم أتوقَّف عن البكاء الغاضب الذي يحرِّك صدري ويزرع فيه خلجات عنيفة إلى أن أدركني النوم.

الفصل السادس

تعين نزول أربع درجات للدخول إلى الكُتَّاب. وكانت بنايته عبارة عن غرفة مستطيلة فقيرة الزينة، تتضمَّن دوراً علوياً وضع فيه الفقيه جرَّتين من الفخار خصَّصهما لتخزين زيت الزيتون الذي يجلبه التلاميذ في مناسبات مقرَّرة، وكلَّف أكبر التلاميذ بجمع الزيت من صغارهم وصبّه في الجرَّتين.

بالنسبة لشراء الحصائر الجديدة، ساهم كلّ آباء التلاميذ بما تيسَّر لهم. كان أحدهم يعمل في فرن لصناعة الجير فتبرَّع للكُتَّاب بحِمل حمار كامل من الجير. صبيحة الاثنين الذي سبق يوم عاشوراء بسبع ليالٍ، جُمعت الحصائر القديمة وخُزنت في الدور العلوي، وشكَّل الفقيه مجموعة من فرق العمل جعل على رأس كلٍّ منها مسؤولاً. استلفنا سطولاً ومكانس صغيرة من الدوم.

بدأ العمل في جوٍ من المزاح والصياح والبكاء وتبادل الشتائم والنط

والقفز في أرجاء المكان. أمسك البعض بمكنسات طويلة وتعاركوا بها طويلاً قبل أن ينظِّفوا السقف من بيوت العنكبوت والحشرات القاطنة به.

خلط الجير بالماء في سطلين كبيرين وشرع التلاميذ في صباغة جدران الكُتَّاب.

كانوا يمارسون العمل بحماسٍ واستخفاف فيرشون غيرهم بنقط الجير ويبدأ سيل الشتائم والقفزٍ والنط. يُصاب بعض من الصبَّاغين بقطرات الجير في أعينهم فيتركون أماكنهم، وهم يفركون عيونهم، لآخرين يواصلون المُهمَّة. تنشب صراعات وشجارات لا تنتهي ويصرخ الجميع في وجه الجميع. أحياناً يتدخل الصوت القوي للفقيه ليضع حدّاً للجلبة التي تتوقَّف للحظات، قبل أن تعود أقوى من ذي قبل.

نجحت في التحصل على مكنسة صغيرة وشرعت في الصباغة بنيّة أن أعلِّم هؤلاء الصغار كيف يكون العمل. اصطدمت سريعاً بحاجز من الأيادي الفوضوية والأفواه المفتوحة والعيون التي يقدح منها الغضب.

أحاطوا بي من كلّ جانب لانتزاع مكنستي الصغيرة فبدأت العِراك معهم، لكن الصِّراع لم يكنْ متكافئاً فانتزعوها مني ورموني أرضاً. سقطت على بركة من ماء، أصيب سروالي بالبلل فنهضت وارتميت على المجموعة محاولاً استرجاع المكنسة. غير أن صوت الفقيه دوَّى في المكان فعمَّ الصَّمت.

توقفنا جميعاً عن الحركة، ثمّ بدأ كلّ منّا يشرح للفقيه أحقيته بالمشاركة في الصباغة وشكواه من حرمانه من المساهمة في العمل. تداخلت الأصوات واختلطت الحُجج والشكاوى.

طلب منّا الفقيه أن التوقُّف عن الكلام والصباغة كليهما إلى حين تكليفنا بعمل من نوعٍ آخر. قرَّر أن كبار التلاميذ سيتكفلون وحدهم بالصباغة، وأمرنا أن نجلِس في ركنٍ من أركان الكُتَّاب بانتظار أن يسند لنا المُهمَّة البديلة. جلسنا وواصلنا الانتظار إلى نهاية اليوم دون جديد.

وفي اليوم الموالي وجدنا الجدران مصبوغة فتوجب المرور إلى

أشغالٍ أخرى. تم تشكيل فرق جديدة للعمل. صرت شخصية مهمَّة، إذ جُعلت على رأس فريق غسل أرضية الكُتَّاب. كُلِّفَ عشرون من التلاميذ بجلب سطول الماء من الزاوية التي تبعد خمسين خطوة عن المكان، والباقون بفرك وتنظيف الأرضية.

شرعت في العمل بجدٍ ونشاط. كانت قدماي غارقتين في الماء إلى الكعبين وأنا أفرك الأرضية بمكنستي، إلى أن آلمني ظهري. شعرت بعضلات ذراعي تؤلمني بدورها. رغم ذلك كنت سعيداً بالعمل الجديد. وداعاً أيتها الدروس المملة! وداعاً لساعات الحفظ والاستظهار الجماعي الطويلة، للألواح الخشبية القاسية! ولنفرك الأرضية المتسخة المتعرجة من أوساخها بكلّ فرحة ونشاط:

- *آي! لقد ضربتني بكوعك على عيني!*

- *انتبه! لقد بللتني إلى منتصف قامتي!*

- *انظر إلى إدريس، سقط في السطل!*

- *سيغرق، سيغرق!*

- *افرك جيّداً أيها الكسول!*

- *أنت هو الكسول! انظر إلى الركن الذي فركناه، إنه أنظف من ركنكم!*

جففنا ومسحنا الأرضية كلّها بخرق من خيش.

عُدت إلى البيت وقد خارت قواي. حكيت لوالديّ عن عملنا خلال اليوم وأقنعتهما بأن الأشغال ما كان لها أن تتقدَّم لولا دوري الحاسم فيها. سمعت والدي يقول لأمّي: ها قد أصبح رجلاً بحق وحقيق، ثمّ خلدت إلى النوم.

انتبهت من نومي، جلست وصرخت دون وعي بمجموعة من الأوامر لرفاقي من التلاميذ، وزعت عليهم شتائم أيضاً. فهمت والدتي أنني أعاني من كوابيس فساعدتني على استعادة الهدوء بكلماتها الرقيقة وجملها الحانية.

صباح الغد بدأت في الاستعداد للتوجُّه إلى الكُتَّاب فمنعتني والدتي من ذلك. شرحت لي أنها تحتاجني لمرافقتها لسوق «القيسارية» قصد شراء ملابس العيد. صفَّقت من الفرح والحماس:

- هل سأحصل على قميصٍ جديد؟

- نعم ستحصل على قميصٍ جديد

- وهل سأحصل على صدارٍ جديد بجدائل؟

- نعم، صدارٍ جديد بجدائل.

- هل سأرتدي جلبابي الأبيض الجديد الذي وضعته في الخزانة؟

- نعم، ستلبس جلبابك الجديد وخفّين جديدين بدأ مولاي العربي زوج لالة عائشة في صناعتهما، إضافة إلى حقيبة جلدية مطرَّزة جميلة.

أبرزت صدري وبدأت في رقصات حماسية، في إطلاق صرخات لا أطلقها عادةً إلّا في مناسبات الفرح الشديد. فطلبت مني والدتي التحلّي بقدرٍ أكبر من الرزانة.

ضحكت فاطمة البزيوية من حركاتي فلم أحفل بها. كنت سعيداً ذلك الصباح، فأحسست بشحنةٍ من التسامح والكرم مع الآخرين، حتى مع زينب التي تسبَّبت لي في مشاكل متعدِّدة. شعرت بالتسامح إزاء قطها الذي عاد بعدما ضيَّع سلسلتي الذهبية البرَّاقة الرائعة، إزاء أيام الثلاثاء الطويلة التي لا تنتهي في الكُتَّاب وعصا السفرجل التي تلسع أذني، وأيام الغسيل الباردة الحزينة، إزاء العالم أجمع، أو الجزء الذي كنت أعرفه من العالم!

تركت أمّي تواصل الاستعداد للخروج، وصعدت إلى سطح الدار مسرعاً لأفرغ الشحنة الزائدة من السعادة في فضاءٍ لا يراني فيه أحد. ركضت وضربت الجدران المحيطة بعصا صغيرة وجدتها بالمكان. تخيَّلتها سيفاً أقطع به رؤوس أعداء وهميين، أضرب أعناق الباشا والمحتسب والحاكم وأعوانهم. تحوَّلت العصا إلى جواد جامح اعتليه

فيركض في كلّ اتِّجاه. أصبحت الفارس المُحارب المرتدي جلباباً ناصعاً وصداراً بجدائل، فيما تثقل كتفي حقيبتي الجلدية المطرَّزة المليئة بالذخيرة. وسرعان ما ألقيت العصا ونزلت درجات السلم مسرعاً بعدما نادتني والدتي.

بعدما نزلت بدأت أمّي تقرعني وتلومني على التأخير... خمَّنت أنها نادتني طويلاً دون أن انتبه لها فثارت ثائرتها كما يحدث دائماً. فهي تبدأ بنداءات جميلة قبل أن تغضب وتسلِّط عليَّ شتائمها:

- *هل شبع الشريف الصغير من اللعب؟*

- *هل لا يرغب شريفي في الردِّ على نداء والدته؟*

- *انزل بسرعة يا شريفي!*

- *ماذا تنتظر لتنزل يا رأس البغل؟*

- *ألا تسمعني يا وجه الحمار الأسود؟*

- *ماذا حدث لك أيها الكلب الأجرب؟*

- *سأصعد لتأديبك أيها الحقير!*

منغمساً في حماسة اللعب، لم أسمع كلّ العبارات منذ البداية. لم يصل سمعي إلّا وصفُ الكلب الأجرب... الشيء الذي أعادني بسرعة إلى أرض الواقع.

نزلت نحو أمّي محتاطاً بساعدي من احتمال تلقِّي صفعة.

اكتفت والدتي بتأنيبي. كانت قد تجهَّزت للخروج والتحفت حايكها الناصع البياض، انتعلت حذاءها الأسود، ووضعت لثامها على وجهها فخرجنا.

طلبت منها الجارة رحمة أن تستعلم لها عن أثمان الأقمشة في السوق، خاصّة عن ثوب الشاش المُسمَّى «بقدونس»، وعن الثوب الحريري المُسمَّى «باقة السلطان»، الذي كان على رأس قائمة الموضة آنذاك.

كنّا قد قاربنا مغادرة الزقاق حين نادتنا كنزة الشوَّافة. كانت والدتي لا تريد أن تقطع نفس المسافة مرة أخرى فسألت كنزة بصوتٍ مرتفع عن مرادها. أجابت العرَّافة أنها ترغب في شراء أقمشة لتجدِّد الرايات الملوَّنة التي تستعملها في إحياء ليالي الرقص الغناوي. كانت محتاجة لبضعة أمتار من قماش الساتان الأسود لإرضاء المزاج المُتقلِّب للجني المؤمن الملك «ابن الأحمر»، كما أنها تحسّ بآلام خفية في جسدها مصدرها غضب «لالة ميرة» تتطلَّب تهدئتها شراء ثوب أصفر فاقع. كان هناك أيضاً الجني سيدي موسى الذي يحتاج راية زرقاء اللون، إلّا أن ثوباً من السنة الماضية يمكن أن يكفي معه. ردّت والدتي:

- ادفعي النقود اللازمة لشراء مقتنياتك لولدي!

أمرتني والدتي بالعودة إلى الدار عند كنزة الشوَّافة كي أستلم منها النقود.

منحتني العرَّافة المال، ولما تطلَّب الأمر الدفع مسبقاً تقلَّصت طلبياتها ولم تعد ترغب إلّا في القماش الأسود! واصلنا مسيرنا.

قرب باب ضريح سيدي أحمد التيجاني استوقفت والدتي سيدة أخرى. بدت عليها علامات الفرحة بمجرَّد أن رأتنا فقبَّلتني عبر لثامها وشكرت الله على الصدفة التي لاقتها بنا. كانت إحدى جارات لالة عائشة. استندت المرأتان على جدار الضريح وبدأتا حديثاً طويلاً مفصَّلاً حول مشكلة مولاي العربي التي عرفت أخيراً طريقها للحلّ بفضل تضحية لالة عائشة وتفانيها. خلصتا إلى أن مولاي العربي جدير بهذه التضحية، فبمجرَّد شروع مشغله في العمل وتحقيق مكسب كافٍ سيشتري للالة عائشة حليّاً أخرى، وأثاثاً، وأغطية أفضل.

غير أن الجارة أضافت جملةً غامضة قبل توديعنا:

- ولكن مَنْ يستطيع أن يأمن مكر الرجال! سبق لي أن تزوجت ثلاث مرّات، وفي كلّ مرّة كان الهمّ الوحيد لأزواجي الاستيلاء على المال

القليل الذي كنت أملكه. نسأل الله أن لا يكون زوج لالة عائشة من هذه الفصيلة من الأزواج!

ردَّت والدتي:

- *الله وحده يعلم بواطن الأمور.*

تركنا الجارة الثرثارة لحالها. كانت المدينة تحمل كلّ علامات العيد، فالشوارع غاصّة بالمارة من سكانها ومن زوارها الريفيين الذين يتزاحمون في أزقة باعة التوابل وساحة كتَّاب العدل وسوق الفواكه الجافة. كان الحمَّالون يسوقون حميرهم الهزيلة المُحمَّلة بأكياس السكر والشمع والأقمشة وأواني الخزف وبضائع مختلفة.

كانت ممرات المدينة العتيقة تشهد زحاماً واختناقات مرورية عِدّة. نجحنا في كلّ مرّة في عبور التجمُّعات الكثيفة. لكي لا أفقد خفيّ خلعتهما ووضعتهما في قَب جلبابي. كانت والدتي توجّهني للانتباه كي لا تمتدّ إليهما يد لصٍ ما. لذا كنت منتبهاً غاية الانتباه خلال كلّ خطوة أخطوها.

بدت لنا متاجر القماش من بعيد. تعرّفت عليها بسهولة، لأن التجَّار درجوا على عرض الأثواب والأنسجة بشكلٍ بارز، مما يجعلها تتدلّى من واجهات الدكاكين: أقمشة من شاش ومناديل مطرَّزة وملابس بهية جميلة وأخرى باهتة الألوان.

بدا لي سوق القيسارية، الذي كان ملتقى النساء الأنيقات بالمدينة، شبيهاً بخزائن سليمان ابن داود: قفاطين ملوَّنة غالية وصدرات مزيَّنة بجدائل وجلابيب من قماشٍ صوفي وبرانيس فخمة تجاور أثواباً ذات تطريز دقيق وقطع مناديل من حرير بألوان متنوِّعة برَّاقة.

كانت أصوات النسوة تعطي للمكان نوعاً من الحميمية، ولم يكنْ الباعة هنا يشبهون غيرهم من تجَّار المواد الأخرى. كان أغلبهم شباباً وسيمي الوجوه حسني المظهر لبقي العبارة. لا يغضبون أبداً من طلبات الزبونات ولا يجدون غضاضة في تلبيتها. يقلِّبون أكواماً من الأقمشة ليعرضوا أحدها على المشترية فتتفحَّصه ولا يعجبها فيتم طيّه وإرجاعه

وفتح آخر مرَّات متعدِّدة، دون أدنى تعبير عن تبرُّم ولا ضيق، إلى أن تجد المرأة ما يناسبها.

تنقلنا عبر خمسة أو ستة دكاكين مختلفة قبل أن نشتري ثلاثة أذرع من قماشٍ صوفي أبيض لخياطة قميص لي من نوع «ثوب الحوت». أرانا البائع فعلًا صورة حوت أزرق بكلّ حراشفه مطبوعة على امتداد الثوب. لم تتطلب المساومة والاتفاق على الثمن الكثير من الوقت، على عكس ما حدث عندما اشترينا الصدار الأحمر ذا الجدائل.

توقفنا عند أكثر من عشر دكاكين. عرض علينا الباعة مجموعات كبيرة من الصدارات التي تناسب حجمي. عرضوا كلّ درجات اللون الأحمر الممكنة، لكن لم يرق أي منها لوالدتي. قبل أن تختار صداراً كرزي اللون يتضمَّن جدائل غامقة على شكل ورود وخيوط متعرِّجة.

طلبت مني خلع جلبابي لتجريب الصدار، امتثلت لذلك، قمت بارتدائه، طلبت مني أن أستدير يميناً ويساراً. فعلت، خلعت الصدار وأعدته لوالدتي التي أرجعته بدورها للتاجر الذي سألها:

- هل أعجبكم؟

- الثمن هو الذي سيحدِّد الموضوع!

- إذن سأعد لكم الصدار، أمنح دائماً تخفيضات للزبائن الجادين. أبيعه بخمسة ريالات، لكنني أوافق على خصم ريال واحد من أجلكم.

- لننتهي من الحديث في هذه النقطة سأدفع من أجله ريالين اثنين فقط!

- لكن هذا الثمن لا يغطي حتى قيمة رأس المال، لن أبيعه بهذا الثمن ولو اضطررت للتسوُّل من أجل إطعام أطفالي في هذه الليلة!

- اسمع يا سيدي، أنا ربة بيت لا أملك وقتاً لأضيعه في المساومة، سأمنحك ريالين وربع. سأتحمَّل هذه التضحية فقط من أجل طفلي الذي يرغب في لبس صدار جديد بمناسبة عاشوراء.

- من أجل عيون هذا الطفل سأبذل مجهوداً إضافياً، امنحيني فقط ثلاث ريالات ونصف ريال!

امسكت والدتي بيدي واتجهنا للخروج من الدكان. خاطبتني:

- لنذهب إلى دكان آخر توجد به أثمانٌ معقولة! فليست الصدارات هي ما ينقص في القيسارية!

شرع التاجر في مناداتنا بصوتٍ يحمل نبرة الترجِّي:

- ارجعي يا لالة! ارجعي! لا أريد أن أحرم هذا الطفل من متعة ارتداء الصدار الذي ناسبه تماماً! لن تجدي مثله أبداً! توجد بضاعة متنوِّعة في القيسارية، لكنها لا ترقى إلى جودة بضاعتي. انظري إلى تصميمه وتطريزه وجودة خياطته! طيب! خذي الصدار وادفعي الثمن الذي يرضيك! تبدين لي من نسبٍ شريف! ادفعي ما تريدين ولا تنسيني من دعواتك!

كانت والدتي عادةً ما تفقد صوابها من شدّة الفرح عندما يناديها أحدهم بالشريفة أو يشيد بنسبها. لذا استدارت وأخرجت من تلابيبها منديلاً معقوداً فسختته ثمّ أخرجت منه ريالين ونصف. مدّتهما للبائع دون أن تنظر إليه. لم تمنح التاجر فرصة المطالبة بالمزيد. حملت الصدار المطوي وخرجنا من الدكان.

واصلنا التجوال في السوق واستعلمت والدتي عن أثمان مجموعة من الأقمشة، عن تيارات الموضة السائدة لحظتها، وعن دلالة هذا الرسم أو ذاك على ثوبٍ أو لباس.

ثمّ غادرنا عالم الفخامة بسرعة لنجد أنفسنا في سوق التوابل، قرب مدرسة العطّارين. ذكّرت والدتي بقطعة ثوب الشاش التي كلفتها لالة كنزة الشوَّافة شراءها، فهنأتني على ذاكرتي القوية، وقفلت راجعة إلى محلات القماش وهي تلعن كلّ عرَّافات الأرض اللواتي لا شغل لهن إلّا تسميم حياة الآخرين بطلباتهن، وتتساءل لماذا لا تقوم كنزة بالذهاب للسوق لشراء ما يخصّها؟ وزاد الطين بلة أنها نسيت أين وضعت نقود

العرَّافة، فبدأت تقلِّب جيوبها وثنايا ثيابها تحت الحايك في حالة من الغضب والضيق لاعنة العرَّافات وأتباعهن ومَنْ جرى مجراهن إلى يوم الدين! وبعد طول تفتيش عثرت على نقود كنزة أخيراً معقودة بإحكام في إحدى ثنايا قفطانها.

دخلت أوَّل دكان يبيع قماش الشاش فطلبت المقدار المطلوب منه، وأدَّت له الثمن دون مساومة قبل أن تخرج.

بعدما فقدت والدتي مزاجها الرائق دون مقدمات، صارت تقرّعني بسبب وبدونه إلى حين وصولنا الدار. هناك سلَّمت كنزة قطعة قماشها وما تبقَّى لها من فكّة، وصعدت للغرفة وهي تتنهَّد وتتأوَّه في كلّ واحدة من درجات السلم.

خرجت رحمة من غرفتها ودعت أمّي لزيارتها لتطلعها على المقتنيات.

امتدحت رحمة مشتريات والدتي وذوقها. وأعجبت بصداري الذي بدا لونه غامقاً ملكياً يقترب من لون الحرير، خاصّة مع حلول المساء وإسداله ستاراً من العتمة على جو الغرفة.

كانت غرفة رحمة بنفس حجم غرفتنا، إلّا أنها قُسِّمت بحاجز من خشب متهالك قديم فصل حوالي الربع منها فخصِّص لتخزين المواد الغذائية التي تحتاجها الأسرة في فصل الشتاء: أرغفة مالحة وعناقيد بصل. كان أثاث الغرفة متواضعاً تلخَّص في مرتبات وحشيات متقادمة وحصير من نبات الأسل. كانت القطعة الوحيدة المُخصَّصة للزينة عبارة عن خزانة خشبية انمحت آثار الطلاء عليها ورتبت فوقها كؤوس من الخزف وصحنان تزيِّن وسطهما صور ديوك مبهرجة.

اقتعدت زينب ركناً من أركان الغرفة تلاعب قطها. وضعت قبالة عينيه مرآة صغيرة تعكس صورته. كان الحيوان المسكين ينظر فيها إلى عين ضخمة تحدِّق فيه فيقلق ويمدّ رجله محاولاً لمسها غير أن مخالبه تصطدم بالمرآة وسطحها الزجاجي. حاول عِدّة مرَّات الإمساك بشيء

ما فلم يفلح واستدار باحثاً وراء المرآة، من غير أن يجد تفسيراً للغز. أحسَّ أن في الأمر خدعة ما فعبَّر عن الغضب بعبارات تفوَّه بها بلغة القطط، رفع ذيله وشوَّك وبره قبل أن يغادر مسرعاً كسهمٍ أُطلق من قوس، بينما كانت زينب تضحك ملء شدقيها.

منذ مدّة طويلة وأنا أرغب في شراء مرآة صغيرة أضمّها لكنوزي، لكنني لم أجرؤ أن أطلب ذلك من والدتي خوف أن تتهمني بالتشبُّه بالإناث..

كانت رحمة بصدد الاطّلاع على مشتريات والدتي. هنأتها مجدداً على ذوقها واختياراتها إلى أن وصلت للصدار فأعجبها. تحوَّل لونه القاني بنظري إلى لونٍ رائع ملأني تيهاً وفخاراً، لون سحري عميق ملكي سألبسه يوم عاشوراءٍ. سيعجب به أصدقائي ومعارف أسرتنا. ومنذ لحظتها سيتعيَّن على زملاء الكُتّاب أن يحدِّثوني باحترام كبير. إذ يتوجَّب على الجميع، صغاراً وكباراً، أن يعبِّروا عن تبجيلهم لأمراء الأساطير.

ألن أصبح أميراً أسطورياً بفضل الصدار الفخم، والقميص الذي سأخيطه من قماش «الحوت الأزرق»، والخفّين اللذين سيصنعهما من أجلي مولاي العربي، أفضل صانع أحذية جلدية في المدينة بأسرها!

كانت والدتي تهمس في إذن رحمة مقتربة منها إلى درجة أنها قاربت أن تلصق شفتيها بوجنة الجارة. لم يثر الأمر عندي أي حب استطلاع. ولم يهمني شيء في حديث المرأتين داخل الغرفة المعتمة. فمثل هذا الحديث لا يثير فضول الأطفال الصغار الحالمين بأن يصبحوا أمراء أسطوريين يلبسون أقمشة قرمزية فاخرة.

كشّرت زينب في وجهي فكشّرت في وجهها. بدأت في الصراخ:

- *أمّي! أمّي! سيدي محمد يكشر في وجهي.*

حاولت ردّ تهمتها والدفاع عن نفسي.

- *هي البادئة! البادئة هي!*

لم يصدقني أحد، فبدأت البكاء. جذبتني والدتي من ذراعي بعنف وأعادتني إلى غرفتنا وهي تلومني بجِدّة وتندب حظها العاثر وقدرها الذي منحها ابناً يذيقها العذاب ولا يمنحها فرصة التقاط الأنفاس أبداً.

لم أفهم قط ما الذي فعلته لأُثير كلّ هذا الغضب لدى والدتي فواصلت الانتحاب. تركتني والدتي في ركنٍ من أركان الغرفة وغادرت إلى المطبخ.

أصابني الجوع من كثرة البكاء الصامت، كما أن وقت الغداء قد فاتنا. استلقيت على ظهري وشرعت في تخيُّل الوجبة الباذخة التي سأهديها لنظرائي يوم أصير أميراً معروفاً ومحترماً. فكرت للحظة وقلت لنفسي إنّ الأمراء يأكلون جيّداً في قصورهم. لن أدعوهم إذن لتناول وجبة، بل سأدعو الجوعى والمُتسوِّلين والفقراء. سأوزِّع عليهم ملابس جميلة: صدارات حمراء أنيقة، جلابيب ناصعة البياض وخفافاً من جلد أصفر ناعم. سأضيف كذلك عمائم من قماش. وأقعد بينهم مرتدياً ثياباً بيضاء معتمراً الطربوش الأحمر المخروطي الشكل الخاص بسكان البلاط والدراويش. سيسهر على تقديم الغداء عبيد سود يحملون إلينا الطعام في أطباق من البورسلين...

- *هل تريد أن تفيق من أجل تناول الغداء؟*

جلست إلى المائدة المستديرة التي وضع عليها الغداء. كان طبق اليوم لحماً باللفت. لم أكنْ أحب اللفت. فكرت في رفض الوجبة، غير أنني كنت أعلم بأن مزاج والدتي ليس على ما يُرام ولا أستطيع إثارة غضبها وتحمُّل عواقبه. شرعت في الأكل فحوَّل الجوع الشديد اللفت إلى طعامٍ سائغ شهي المذاق.

شرع أحدهم في الغناء فوق سطح الدار. أدى أنشودة وصلت أصداؤها، بفعل ريح الربيع الناشئ المُتموِّج، إلى أسماعنا. توقَّفت والدتي عن المضغ. أصغت لصوت الغناء الذي توقَّف للحظة قبل أن يرتفع من جديد صادحاً كعطر صاعد من مبخرة يعبّر عن الحنين الدافق.

ذهبت والدتي للنافذة وأطلّت منها.

- *فاطمة البزيوية، هل تعلمين مَنْ يغنّي هنا؟*

- *إنها لالة خديجة، زوجة العمّ عثمان.*

- *لا أفهم كيف تغنّي تعبيراً عن الفرح بعدما تزوَّجت رجلاً طاعناً في السنّ بعمر والدها!*

- *ليست تعيسة معه! العمّ عثمان يلبي جميع طلباتها، ويعاملها تماماً كابنته!*

- *وهي، كيف تعامله هي؟*

انفجرت ضحكات الجارات في كلّ غرف الدار.

قالت رحمة:

- *أعرف كيف تعامله! حكت لي خادمتهما السوداء، الأمة السابقة لعثمان، قصة طريفة حدثت بينهما، قصة طويلة لا أجد الآن وقتاً لأحكيها لكُنَّ.*

ضجَّت الجارات:

- *احكيها! احكيها لنا!*

- *أنتن تعرفن العمّ عثمان فهو من أسرة غنيّة. عندما تُوفي والداه تركا له ثروة معتبرة بدّرها سريعاً فأكل الربح ورأس المال. لم يعد يملك إلّا المنزل الصغير المجاور لدارنا. وبقيت معه الأمة السابقة «مباركة» في أيام العسر، كما عاشت في داره أيام الرخاء. وقد تزوَّج في السابق عِدّة مرَّات، لكن لم تنجح أيٌّ من زوجاته في السيطرة عليه حتى جاءت لالة خديجة التي لا يستطيع أن يرفض لها طلباً ولا أمراً. صحيح أن خديجة من أسرة فقيرة، لكنها تملك الصبا والجمال! انتظرن! ها قد وصلت إلى عقدة قصتي!*

ألقيت نظرة من نافذتنا. كانت كلّ نسوة الدار متعلّقات بالنوافذ للإصغاء. في حين فرشت لالة كنزة بساطاً صغيراً على أرض الفناء

وجلست تصغي للحكاية على راحتها.

واصلت رحمة:

- يوم الجمعة الماضي، خرج العمّ عثمان باكراً لاقتناء مشتريات. ذهب إلى السوق وحيّا جميع من لقيهم في طريقه بلباقته المعهودة، فهو معروف في الحارة من طرف الصغير والكبير. وصل إلى سوق الجوطية ولم يكنْ هناك إلّا قصَّاب واحد: سالم الزنجي يحرِّك سكاكينه الكبيرة ويقطع اللحمة التي يبيعها للناس المزدحمين حوله. وقف العمّ عثمان خلف الزحام يحرِّك يديه ورجليه ممازحاً القصاب. قال له عبارات من نوع: «ابتلع سكينك» أو: «تستحق علقة ساخنة» أو فقط: «أعطني رجل خروف». هدَّده سالم الزنجي من بعيد بسكينه.

كانت كلّ النسوة يضحكن. سرّت رحمة بتقبلهن حكايتها قبل أن تواصل:

- واصل العمّ عثمان المزاح ومضايقة القصَّاب الذي استأنف عمله. مرّ كلب من المكان. رأى حركات عثمان الصبيانية فاقترب منه. ضربه عثمان برجله لكن خفّه أفلت من قدمه. اختطف الكلب الخفّ وشرع في الركض وعثمان يعدو خلفه لاستعادة الخفّ!

كان الجميع يضحكون، فواصلت رحمة:

- لم يدركه إلّا فوق جسر «بين المدن» البعيد. عندما قفل إلى السوق لم يبلغه إلّا بعد جهدٍ جهيد ووقتٍ طويل. وجد القصَّاب نائماً في دكانه، لم يتبَق له لحم، فقط بعض بقايا تعوَّد أن يجود بها على القطط! وجد الخضَّارين باعوا كلّ ما عرضوا من خضار طرية ولم تتبقَ إلّا الضامرة الذابلة منها، مع ثلاث ربطات من الفجل لدى أحدهم. خاف من العودة دون مشتريات إلى المنزل. كان يعلم نوع الاستقبال العاصف الذي ستخصّصه له لالة خديجة. طفق يجول منتظراً حدوث معجزة تنقذ الموقف. دخل أحد فنادق المدينة، حيث كان بعضهم يبيع سمك الشابل. كان الزحام حوله شديداً. قنط عثمان من الانتظار، وأحس

بحكة في أنفه الذي اشتاق للنشوق. ذهب لشراء التبغ المطحون من أحد التُجَّار، تأخَّر أيضاً عند التاجر المذكور، وعند عودته وجد السمك قد بِيع عن آخره، لم يجد ما يشتري!

كان الجميع يضحكون بحماسٍ ويطلبون من رحمة أن تواصل الحكاية.

- تمكَّن الغضب من العمِّ عثمان، وبدأ يلعن تاجر التبغ الذي أخّره: «العجوز الملعون، ما دخلي أنا بحكاية زواج هذا المغفل، بموت أخته وبخطبة ابنته؟». في طريق العودة وجد عند بائع النعناع في مفترق الطرق وردة كبيرة رائعة. فكّر في إهداء الوردة لزوجته ليعتذر لها عن عودته للمنزل دون مشتريات. عاد بالوردة، دخل الباب وما لبث الجيران أن رأوا الوردة تُلقى خارجاً، تبعتها عمامة العمِّ عثمان التي طارت من رأسه. ثمّ خرج هو حاسر الرأس، التقط عمامته واعتمرها من جديد، حمل الوردة. كنت واقفة بالقرب من بابنا، حضرت المشهد بأم عيني، وعندما شعر العمُّ عثمان بحضوري ابتسم في وجهي وقرَّب وردته من أنفه كأنه يشم عطرها!

كان جميع الحاضرين يتلوُّون من الضحك.

واصلت رحمة:

- أثار انتباهي مشهد العمامة المُلقاة والوردة، وفي نفس اللحظة التقيت بمباركة التي كانت قادمة فأخبرتني كيف تعامل لالة خديجة العمّ عثمان!

امتدح السامعون جميعاً الحكاية التي روتها رحمة وقدرتها على وضع «الملح» في قصتها.

سيطرت على مُخيِّلتي قصة العمِّ عثمان طيلة المساء، إلى درجة أنني رأيت بعضاً من مقاطعها في المنام.

الفصل السابع

اشترت كلّ نساء الدار دفوفاً وبنادير وطبولاً صغيرة. كان لكل منها شكل خاص وزخرف متميِّز وصوت مختلف. كانت بعض الدرابيك[1] طويلة من خزف منمَّق غُلفت قاعدتها بقطعة من جلد خروفٍ مدبوغ، فيما كانت أخرى بارزة البطن مصنوعة من فخارٍ بسيط، في حين صُنعت البنادير من حلقة خشبية توسطتها قطعة جلد حيواني.

اشترت والدتي دفاً من هذه الدفوف يُسمَّى البندير. جرّبته مطولاً قبل شرائه، مزجت نقرات حادة قوية بأخرى خفيفة رقيقة فنطق الدف بلغة قاسية: لغة امتزاج حر الشمس بريح الجبال العالية.

بقي يومان على إحياء ذكرى عاشوراء، الليلة الكبرى التي ترتفع خلالها الأغاني والأذكار من سطوح المنازل ابتداء من بعد صلاة العصر.

(1) آلة موسيقية شعبية مكوَّنة من قمع فخاري مغطى بجلد مشدود. [المترجم]

في انتظار اليوم المعلوم كانت كلّ واحدة من جاراتنا تتمرن على العزف والغناء، وتدندن بكلماتٍ مختلفة في غرفتها. فيما شرعت زينب في الضرب بقوة وصخب على طبلة صغيرة من النوع الرخيص. يوم أمس أهداني والدي مزماراً بسيط الشكل من المعدن الأبيض. كنت أنفخ فيه بين الفينة والأخرى نفخة قوية تذكِّر بصرخة حيوان من الحيوانات الضارية. أمّا بالنسبة ليوم عاشوراء نفسه، فكنت أنتظر لعباً أخرى.

رغبت في الحصول على طبل من فخار وساعة رملية وشخشيخة تحمل صور زهور ملوَّنة. إلّا أنني اكتفيت، لحَدِّ اللحظة، بمزماري الذي أطلقت منه أصواتاً منكرة تعمر الدار وتذكِّر بصفارة إنذار أو بحشرجة ميت !

طلبت مني والدتي أن أصعد لسطح الدار وأنهق كما يحلو لي بدلاً من إزعاجها!

كانت النسوة يجرّبن دفوفهن في كلّ أرجاء المدينة فيعمر الفضاء هدير أصواتها.

جمعت الهواء في شدقيّ قبل أن أطلقه داخل مزماري بكلّ قوة. خرج منه صوت صارخ ظننته صوت بكاء رضيع بدأت أسنانه للتو في النمو! كان قط زينب يتشمس فوق السطوح ففاجأه الصوت وقفز من الهلع إلى درجة أنه سقط من أعلى السور الذي تعوَّد أن يقضي فيه فترة قيلولته. تركني وحدي فوق السطح واختفى داخل مزراب.

برز فجأة رأس من الحائط المجاور، ثمّ اختفى بسرعة. سمعت نداء والدتي فنزلت عندها، خاطبتني:

- أحد زملائك في الكُتّاب ينتظرك في فناء الدار، أرسله الفقيه في طلبك، لأنه يحتاجك في أمرٍ ما. البس خفّيك وانزل إليه!

تركت مزماري بحسرة ونزلت للقاء رفيقي في الكُتّاب الذي أطلقنا عليه كنية «حمّصة»، بسبب كونه التلميذ الأضعف بنية في قسمنا. كان اسمه الحقيقي عزوز برّادة. طلب مني الإسراع لتلبية أمر الفقيه.

كانت إنارة الكُتّاب ليلة عاشوراء تتطلّب تعاون الجميع. لذا نودي عليّ بدلاً من تركي أنفخ في مزماري على هواي. جلست مع مجموعة كُلِّفت بتقطيع وإعداد فتائل من بقايا ثوب ملاءة قطنية متهالكة الأنسجة. كان علينا أن نقطعها، فيما تكلّفت مجموعة أخرى بغرسها في صفيحة صغيرة مقوّسة من التنك قبل أن تُوضع في إناءٍ به مزيج من الماء وزيت الزيتون.

تكفّل الأكبر سناً منّا بتعليق ثريات من حديد فوق نوافذ الكُتّاب وعلى سقفه بواسطة سلّم طويل. كانت الثريّات الحديدية بسيطة التصميم مكوّنة من عدد من الإطارات تلتصق بها دوائر توضع فيها المصابيح المُشكّلة من أكوابٍ عادية مُلئت بالماء تتوسّطها فتيلة تسبح في الزيت. للحصول على منظرٍ جميل مزج تلاميذ الكُتّاب الماء بصباغات مختلفة الألوان.

عندما وصلت الكُتّاب كانت الثريات ملقاة على الأرض، والأكواب مرمية في سطل بأحد أركان قاعة الدرس، فيما وضعت المواد الملوّنة في علب صغيرة جمعت بدورها قرب خفّي الفقيه، وتوزعت قطع التنك الأبيض في أنحاء المكان. بدأنا العمل بهمّة ونشاط.

جرح حمّودة يده بقطعة تنك فذهب ليعالجها بمنزله وهو ينتحب.

عمل معظم التلاميذ بنشاط وانضباط، باستثناء مجموعة مكوّنة من خمسة أو ستة أطفال ظلّت تنتقل بين الحلقات المختلفة وتثير الشغب والضوضاء.

انتهينا من عملنا قبل مغيب الشمس. وقبل مغادرة الكُتّاب أنشدنا مجموعة من الأذكار الجماعية في مدح النبي الأكرم، قرأنا مجموعة من الآيات القرآنية المُبارَكة. دعا الفقيه الله أن يفتح علينا، وأن ينزل البركات على الدنيا، وعلى الأمّة الإسلامية قاطبةً، ولم ينسَ الدعاء للسلطان، أمير المؤمنين، بطول العمر والصبر على تحمُّل شدائد السلطنة، ومشاكل المملكة، ومسؤولياتها الثقيلة.

ثـمّ صمتنـا جميعـاً بانتظـار أن يصـدر الفقيـه الأمـر بالمغـادرة. بـدأ التلاميـذ الخـروج مـن الكُتَّـاب واحـداً تلـو الآخـر، وسرعـان مـا جـاء دوري فقبّلـت يـد سـيدنا وانتعلـت خفّـي ثـمّ غـادرت.

لـدى وصـولي الـدار وجـدت والـدتي في مـأزقٍ كبـير. فقـد نسـيت شراء بـترول الإنـارة الـذي يُسـتخدَم في اللمبـة. اقترحـت عليهـا الذهـاب لاقتنائه غـير أنهـا رفضـت. سرعـان مـا سـمعنا صـوت خطـى إدريـس العـوَّاد راجعـاً مـن عملـه. نزلـت والـدتي عنـد زوجتـه رحمـة وهمسـت في أذنهـا بكلـمات. وسرعـان مـا خـرج إدريـس من الـدار مجـدَّداً لاقتناء البـترول الـذي يلزمنا، مسـارعاً لإسـداء هـذه الخدمـة لجيرانه.

سـمعت مـن الشـارع صراخ بائـع الشـمع وأعـواد الثقـاب يدعـو النـاس إلى بضاعته. لم نعد نسـتعمل الشـمع، فقد أصبح بضاعة خاصّة بالفقراء الذيـن لا يسـتطيعون اقتنـاء لمبة بـترول جميلة مزوَّدة، مـن وراءها، بمرآة تعكـس الضـوء. صار الشـمع بضاعـة خاصّة بالذيـن يخافون لمبـة البترول ويظنـون أنهـا سـتكون مصدر انفجـارات خطـيرة ودخـان ورائحـة كريهـة لا تُوجـد إلّا في مخيِّلتهم.

نـزل الظـلام بسرعـة وانتظرنـا بفائـق الصبر عـودة إدريـس العـوَّاد. سـمعنا صـوت خطواتـه وهـو يطلـب، كالعادة، إخـلاء الممر لحظـة دخوله الـدار. نزلـت والـدتي عنـد رحمـة، وسرعـان مـا عـادت بقنينة نصـف ممتلئة مـن البـترول. وعـلى ضـوء شـمعة صغـيرة فتحـت خـزان اللمبـة، ملأتـه ونظفـت الفتيـل مـن السـخام، ثـمّ أشـعلته. قلـت لهـا:

- *جعلها الله ليلةً مباركة!*

أجابتني:

- *ليبارك الله ليلتك!*

سمعنا صوت لالة كنزة قادماً من الطابق الأرضي:

- *لالة زبيدة مساء الخير، هل يمكن أن تمنحيني بضع وريقات من نعناع؟*

- *سيحملها إليك سيدي محمد.*

أعطتني والدتي باقة صغيرة من أوراق النعناع، حملتها مزهواً للعرَّافة. وجدتها واقفة في الفناء وقد أثقلت الهواء بالبخور واللبان الجاوي وغيرهما من الروائح النفَّاذة. كنت مقتنعاً أشدّ الاقتناع بأن عتمة الفناء تشهد في هذه اللحظة اجتماعاً حاشداً لعفاريت الجن التي جلبتها الروائح الخانقة.

لتشكرني، أعطتني لالة كنزة حفنة من حبوب الكتّان. خمَّنت أن هذه الحبوب جزءٌ من المؤدبة التي نظمتها العرَّافة على شرف العفاريت المُتحلِّقة حولها. جرَّبت ذوقها بحذر فوجدته طيباً ولم أرَ بأساً في تناولها. كانت تعلق بشفتي وبما تحت أنفي فأتصيدها بلساني قدر المستطاع، قبل أن أنظف ما بقي بأصابعي.

كان السُلَّم مظلماً، رغم ذلك لم أشعر بالخوف. فالفراغ الظاهر الذي أراه عامراً بمخلوقات لا ترى تفسح لي مجال المرور، وستنكشف لعيني حالما أبلغ السَّن المناسبة.

سمعت أمّي تقول بصوتٍ جهير:

- *الله أكبر*

سألتها:

- *هل نادى المؤذن لصلاة العشاء؟*

أصخت السمع طويلاً في الظلام فلم أسمع صوت الآذان. يُقال إن النساء يملكن سمعاً أكثر دقة من الرجال عادةً.

لم يتأخر والدي عن العودة، تناولنا طعام العشاء كما العادة.

قبل النوم أعلمني والدي أنه سيرافقني يوم غدٍ إلى السوق كي أتمكن من اختيار لعبي، كما أننا سنزور باب ضريح مولاي إدريس لاقتناء شمعة كبيرة أهديها للفقيه ليلة عاشوراء.

غمرتني السعادة ولم يزعجني إلّا شيءٌ واحد: ما كان بإمكاني أن أفلت من زيارة الحلّاق. فبعد قليل سيصطحبني والدي إلى الدكان الضيِّق بحارة الشّماعين، حيث يشتغل السي عبد الرحمن الحلّاق.

لم أحب يوماً لا عبد الرحمن الحلّاق ولا دكانه.

آوينا للفراش، لكن النوم غادر عيني وطفقت أتخيَّل مجموعة من الشموع الضخمة المزيَّنة بقطع من الدانتيلا الملوَّنة، بالسيوف البرَّاقة والطبول على شكل ساعات شمسية والشمعدانات الحديدية المزيَّنة بأكوابٍ من كريستال.

لم يكْن والدي يتقن فنَّ المساومة المطوَّلة ولا متعة شراء البضاعة بثمنٍ يقلّ فلساً عن الثمن الذي فُرض على بقية المشترين. بعد تناول الإفطار رافقني للتجوال على باعة اللعب. كانت الدروب تدوِّي بأصوات قرع الطبول الصغيرة والشخشيخات من التنك والمزامير. حشد الباعة بضائع إضافية خارج الدكاكين التي ضاقت بمحتوياتها فتدلَّت المعروضات من أرجائها على شكل عناقيد ملوَّنة. عمر المُتسوِّقون الأزقة وتحلَّقوا حول المتاجر: رجال ونساء وصبية وفتيات. كان بعضهم يجرِّب لعباً فيما يصفق آخرون ويثرثرون، بينما يساوم الآباء ويتقافز الأبناء هنا وهناك إلى درجة أن البائع يعجز عن التركيز.

عمرت أزقة المدينة حشود غفيرة من القرويين الذي نزلوا إليها قصد التسوُّق فاشتروا سكراً وتوابل وأقمشة وآلات موسيقية تقليدية، ومرَّوا يسحبون أكوام بضائعهم إلى درجة أن ضاق بهم فضاء الدروب.

تمسكت بيد والدي القويّة بينما كان يشق حشود المُتسوِّقين ليفتح أمامنا الطريق. حصلت بالنهاية على طبلٍ على شكل ساعة ترابية، وعلى عربة خشبية صغيرة عجيبة الشكل، ومزمار إضافي جديد.

ترك لي والدي حرية الاختيار، ثمّ أدَّى الثمن ناجزاً دون مساومة. كنت أُلح عليه بالأسئلة والتعليقات، لكنه نادراً ما يجيبني، بل يكتفي بالابتسام أمام حالة الفرح والهياج التي انتابتني. ثمّ قصدنا باب ضريح

مولاي إدريس واشترينا شمعة يبلغ وزنها أوقية كاملة. كانت باب الضريح تفضي لمحلات بيع الأحزمة الجلدية المُلوَّنة وحوانيت باعة الفواكه الجافة.

هناك كان دكان الحلّاق عبد الرحمن، قرب كرمة قديمة قبالة دكان حلّاق آخر يُدعى ابن عاشر. إلّا أن الحلّاقين لم يدخلا قط في أيّة منافسة.

كان الحلّاقون في ذلك الزمان يقومون بمجموعة متنوِّعة من الوظائف. فعند ولادتي لجأ والدي، الذي قدم حديثاً من قريته الجبلية إلى المدينة، لخدمات السي عبد الرحمن من أجل استشارته في تنظيم حفل العقيقة بشكلٍ لائق. وكانت نصائحه قيّمة في هذا الباب، فهو مَنْ قام، رفقة اثنين من عماله، بخدمة المدعوين في الحفل.

كما أنه أوَّل من حلق شعري وقدَّم نصائح قيّمة لوالدي حول التربية. كان الوالد يقر بهذا النصح ويعتز به.

لم أحب السي عبد الرحمن أبداً. كنت أعلم أنه سيتكفَّل بختاني عندما يحين وقت ذلك، لذا كان جلدي يقشعر من الخوف كلما زرت دكانه أو شاهدته يتناول موسى أو مقصاً بيده.

وجدنا الحلّاق بصدد إجراء عملية حجامة لزبون مدّ له رقبة حليقة، بينما انحنى هو على عنقه. أشحت بوجهي كي لا أرى تفاصيل المشهد.

غرس السي عبد الرحمن محجمين في رأس الزبون، ثمّ استدار نحونا ورحَّب بنا بطريقة لبِقة.

- أرى أن هذا الولد المُدلل قد اشترى الكثير من اللعب: طبل ومزمار وعربة رائعة وشمعة كبيرة. نعم! الشمعة من نصيب الفقيه، ولكن يجب أن تكون العلاقة مع الفقيه طيبة للنجاة من عصا السفرجل!

ضحك كلّ الزبائن الجالسين، لكنني استشطت غضباً. فعصا السفرجل ليست موضوع مزاح! يبدو أن هؤلاء الجالسين لم يُضرَبوا بها يوماً على قاع أقدامهم إلى درجة أن عجزوا عن المشي! لذا يمكنهم

الضحك، لكن عصا السفرجل تثير لدى مَنْ يعرفها مشاعر الهيبة والاحترام!

رفع شيخ ضعيف البنية يحمل لحية كبيرة وعمامة أكبر ستار باب الدكان ودخل متأوِّهاً عاجزاً عن إلقاء السلام، ثمّ ارتمى على أوَّل مقعد مواصلاً زفراته المتعبة:

- تبدو متعباً، عمي حمّاد، كيف يمكن أن أساعدك؟

- سي عبد الرحمن، يبدو أنني سأموت!

- لا تنطق بمثل هذا الكلام الذي لا يليق بمسلم، الله وحده يعلم أجل الحياة والموت! ما الذي يؤلمك؟

- لا يؤلمني شيء، غير أنني اختنق، يصعب علَّي التنفس في الليل، اختنق وينتفخ قلبي من القلق!

- تلزمك مقويَّات يا عمي حمّاد! أعرف وصفة مجربة سأتلو عليك مكوِّناتها، هل تستطيع تذكرها؟

- ذاكرتي جيّدة، قلت لك إن قلبي هو الذي يؤلمني، هات الوصفة!

- إنها بسيطة جدّاً، اطلب من أهل بيتك أن يقلوا بصلة بيضاء مقطّعة في السمن، اخلط هذا البصل المقلي مع ملعقتين صغيرتين من العسل وحبوب الكتان والينسون، أضف إليه بعضاً من القرفة والزنجبيل. عطّر الكلّ بمسحوق القرنفل. ابتلع لقمة من هذا الخليط كلّ صباح، وستختفي كلّ آلامك بقدرة ربّ العالمين!

- سي عبد الرحمن، جازاك الله عني خيراً ونفعك بعملك في يوم الحساب الأعظم! كنت أعرف أنك ستنفعني بعلمك وحكمتك، سأذهب لشراء مكوِّنات الخلطة للتوّ واللحظة!

تحرَّك العمُّ حمّاد بصعوبة من مجلسه، غادر وهو يطلق تأوُّهاته المعتادة.

تفحَّص السي عبد الرحمن مدى التصاق المحاجم برقبة زبونه الغامض، ثمّ شرح لنا الموقف:

- تغيَّب اليوم مساعدي الأوَّل، وغاب صبي المحلّ أيضاً لأنه يقبع في السجن من أجل سبب لا أعلمه. لذا أشتغل وحدي اليوم.

ثمّ أضاف متوجِّهاً لوالدي:

- لذا أرجوك، أيها المعلم عبد السلام، أن تصبر علَّي قليلاً ريثما أنتهي من حجامة هذا الرجل. زارني بالأمس أحد أصدقائك من أجل الحجامة أيضاً: مولاي العربي صانع الأحذية. رجل محترم مُقل في الحديث والحركات. وما يدهشني هو أنه لم ينجب أطفالاً. ربَّما أن زوجته متقدِّمة في السن. يقولون إنه متزوج من امرأة شريفة النسب. لا شكّ أن أهل دارك يعرفونها. يُقال إنها امرأة كريمة، وإن مولاي العربي استطاع، بفضل مالها، أن يُعيد إنشاء مشغله. أعرف أن أعماله تحسَّنت كثيراً اليوم!

نظر والدي بلامبالاة صوب الحلّاق الذي انحنى على رقبة زبونه مرّةً أخرى وجمع بعضاً من أدواته ووضعها في درج صغير.

كنت جالساً على كرسي مرتفع جعل قدميِ الصغيرتين تتدليان في الهواء، أتأمَّل كرسي الحلاقة الباهت الألوان المخصَّص لجلوس الزبناء والبساط المتهالك الذي يزيِّن الجدار ومجموعة الأمواس والمقصّات والمرايا اليدوية.

- ألا تتفق معي أن عليه أن يتخذ زوجةً ثانية. أعرف أن الوقت لم يحن بعد، لكنني واثق من كون أعمال مولاي العربي ستزدهر أكثر في المستقبل. إنه يصنع شرابيل[1] نسائية جميلة الصنعة قوية الخياطة والتطريز بألوان مبهجة تحوز إعجاب النساء. التجارة مع النساء وحدها

---

(1) جمع شربيل وهو خف جلدي تقليدي خاص بالنساء في المغرب. [المترجم]

تمكّنك من جني ثروة! أو تبديدها! يقولون إن النساء في بعض البلدان يذهبن عند حلّاق الرجال لتصفيف شعرهن! يا إلهي لماذا لم أولد في هذه البلدان الرائعة!

تنهَّد السي عبد الرحمن، ثمّ أضاف:

- *في الحقيقة، عليَّ أن أحمد الله على نعمته. فأنا الحلّاق المُفضَّل لدى العديد من الأسر الراقية في مدينتنا. وهم كرماء معي، جازاهم الله خيراً! الحمد لله!*

دخل الدكان زبون جديد:

- *السلام عليكم.*

ردّ السي عبد الرحمن:

- *وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.*

حرَّك والدي شفتيه هامساً بردّ السلام. سعل الزبون الجالس على كرسي الحلّاق ثلاث مرات ثمّ تجمَّد في جلسته. كنا نشاهده من الخلف، كانت نتف لحيته تخرج عن وجنتيه ورقبته حمراء من أثر الشمس. رجل مسن خمَّنت من لون رقبته أنه يعمل في الحقول أو في بعض البساتين المحيطة بمدينة فاس. توقَّفت عن الاهتمام به وحوَّلت ناظري صوب الزبون الجديد. كان وجهه شديد البياض، حاجباه كثيفان، ولحيته شديدة السواد، أشد سواداً من جناح غراب، فيما ظهرت بوادر اللطف على كامل محياه.

جلس على مصطبة مرتفعة بعض الشيء تقابل الباب. لم يتوقَّف السي عبد الرحمن المنشغل بعمله عن النظر إليه والتودُّد له والابتسام في وجهه. بعدما جلس الشاب واستقر في موضعه بادره بالسؤال:

- *كيف حال والدك الموقَّر حفظه الله وبارك له في صحته وفي تجارته؟ أما زال يعاني من ركبته؟ تحسَّنت حالته! الحمد لله! أسعدني ذلك كثيراً! إذن فقد نفعه المرهم الذي أعددته خصيصاً من أجله! نفعه*

أكثر مما كان يتوقَّع هو نفسه؟! وأنت كيف أحوالك يا ولدي؟ دعني أتمنى لك السعادة والتوفيق. عرفت الخبر من والدك، حول الحدث السعيد الذي تنتظره. أعلمني أنك ستتزوج من ابنة السيد عثمان كاتب العدل.

خلال هذا المونولوج الطويل، حاول الزبون، الذي يحمل اسم أحمد، مِراراً الإجابة عن أسئلة الحلَّاق، لكن هذا الأخير لم يترك له الفرصة، بل كان يجيب نيابة عنه! واصل الحلَّاق:

- السيد عثمان رجل من أهل الله! في زماننا هذا، الذي فسدت فيه الأخلاق وانتشر الظلم والرشوة، يجب أن يفرح الإنسان لربط علاقة مع شخصٍ محترم مثل السيد عثمان أو والدك الموقَّر الحاج علي!

استدار الحلَّاق نحو والدي ليقدِّم له الزبون الجديد:

- سيدي أحمد هو ابن الحاج علي تاجر الشاي المعروف الذي يوجد محله بحارة الصيّاغين، لا شّك أنك تعرف دكانه!

- أجل! أجل! لا شكّ أنك تعرفه. لقد حجّ ثلاث مرَّات. ذهب إلى الأماكن المُقدَّسة ثلاث مرات ولمس الحجر الأسود. أسأل الله أن يحشرني في الجنة رفقة الحاج علي وأمثاله. السي أحمد سيتزوج قريباً من ابنة السيد عثمان كاتب العدل الذي آتاه الله العلم والحكمة واللياقة والأدب، وآتاه، فضلاً عن ذلك، العديد من الأملاك والأطيان، زاده الله خيراً على خير!

ثمّ التفت إلى الشاب سيدي أحمد:

- وكيف الحال مع أمور دراستك، لقد عرفتك منذ كنت طفلاً رضيعاً وها أنت اليوم أصبحت عالماً جليلاً!

- لست إلّا طالب علم كغيري من الطلبة!

اغتنم الشاب فرصة انشغال فم الحلَّاق بمص أحد المحاجم المُثبَّتة في رقبة زبونه ليقول له:

- السي عبد الرحمن، تعلم ولا شكّ أكثر ممّا أعلم أنا شخصياً حول أمور زواجي! والداي هما مَنْ يتكفَّل بكلّ التفاصيل، ولم يأخذ أحد رأيي في الموضوع!

- ومنذ متى يُستشار الشباب في الأمور الخطيرة؟ إنهم يعرفون بعض الأشياء ويأخذون العلم عن الكتب والشيوخ، ولكن علمهم لا يغنيهم عن خبرة كبار السن العارفين بتجارب الحياة ومعادن الرجال. الزواج ليس مجرَّد قضاء الليالي مع امرأة جميلة وشابة، بل إنشاء روابط بين أسرتين وإنجاب أبناء قادرين على مساعدتنا في وقت شيخوختنا. إن لي بنتاً وحيدة بلغت اليوم سنَّ الزواج، لذا فصهري سيكون بمثابة ابن! طالما تمنيت أن يكون لي ابنٌ ذكر، ولكن إرادة الله هي العليا!

نزع السي عبد الرحمن المحاجم من رقبة الزبون وذهب لإفراغها خلف ستار. بدت على لحم الزبون آثار دوائر قانية الحُمرة وضع عليها الحلَّاق قطناً والتفت نحونا:

- سأحلق أوَّلاً شعر هذا الطفل الذي لاشكّ أنه قانط من جلوسه معنا ويتمنَّى أن يلعب خارجاً في أزقة المدينة!

لفَّ جذعي بفوطة حمراء وصفراء كبيرة واسترسل:

- أنا أتفهَّم رغبته! أتفهَّمها! الأزقة بروائحها وضجيجها والمارّة العابرون فيها ونداءاتهم وهمساتهم! صراخ وبكاء وأهازيج أطفال! الأزقة الواقعة تحت ظلال الكروم وأشجار الدلب، الأزقة الحالمة المغنية المتباعدة...

شرع في وضع الرغوة على رأسي ودهنها بباطن يديه مواصلاً حديثه:

- الزقاق، حيث يمر الحمار الصغير الرمادي اللون، والقطط المتشردة وعصافير الدوري، وزوج الحمام الملَّون! الزقاق الذي يشهد مرور مواكب الأعراس والجنازات، يحيط مرتاديه برداءٍ يشابه الحنان الأمومي، ويكتسي من أجلهم بألوانٍ نادرة...

صاح سيدي أحمد:

- أقسم بالله أنك شاعر حقيقي يا سي عبد الرحمن! لم أقرأ يوماً نصاً عن الشارع أجمل مما قلته الآن!

- كيف لي أن أكون شاعراً وأنا أعرف القراءة والكتابة بالكاد! لا أنا فقط عاشق لمدينتنا الجميلة فاس! والزقاق فيها هو فرجة متجدِّدة على الدوام!

قال والدي:

- إنك تُحسن الحديث عنها.

- يا سيد عبد السلام، الإنسان يحسن دائماً التعبير عن الأشياء التي يحبها. مجرَّد إبريق عادي من الفخار يمكن أن يحوِّل عاشق الأباريق إلى ما يُسمِّيه سيدي أحمد بالشاعر!

اختار السي عبد الرحمن موسى ذات مقبض من خشب وشحذها لفترة على صخرةٍ مدهونة بالزيت قبل أن يشرع في حلاقة رأسي.

بدأ بأعلى الرأس، ثمّ مال إلى جوانبه. آلمتني الموسى قليلاً، لكنني لم أجرؤ على الاحتجاج. أثرت عليَّ الحرارة المرتفعة داخل الدكان فاستغرقت في النوم. مال رأسي على الشفرة فجرحتني قليلاً. استفقت من نومي وكان العرق يتصبَّب من رقبتي وعنقي، فيما واصل الحلَّاق ثرثرته.

توقَّف أخيراً ونفض بقايا الشعر عن رقبتي وعن عنقي قبل أن يفكَّ عن جذعي فوطته الكبيرة. شعرت بتعبٍ يكاد يُقارب الدوار. بحثت بعيني عن والدي الذي سارع لنجدتي.

- تعال، لنخرج! فهواء الزقاق سينعشك. سي عبد الرحمن، أحتاج حلاقة شعري، لكن الولد يبدو متعباً، سأعود في المساء. أستودعكم الله يا سادة!

وجدنا أنفسنا خارجاً من جديد، وبدا لي الزقاق أجمل من أي وقتٍ مضى. شعرت بالارتياح. وعند وصولنا للمنزل جلسنا لتناول الطعام، فيما كانت أصداء أصوات قرع الطبول الصغيرة تصلنا من السطوح المجاورة.

كانت زينب تقرع على «طَعريجتها»[1] الطينية الرخيصة الصغيرة الحجم فوق سطح الدار. تناولت الطعام بسرعة شديدة. كنت راغباً في إثارة غيظها وحسدها بطبلي الكبير، لذا سرعان ما تدبَّرت الأمر للحصول على قطعتي عصا صغيرتين وعلَّقت الطبل على كتفي، ثمّ شرعت في معزوفة صاخبة من تأليفي ثقبت آذان سكان الزقاق جميعاً.

فكَّرت في تنويع موسيقاي باستعمال أكثر من آلة واحدة. جهَّزت نفسي على شاكلة رجل- أوركسترا. وضعت الطبل أرضاً على جنبه وحصرت البوق بين ركبتيَّ. لعبت يداي بقطعتي العصا بقوة ونفخت في المزمار، في الوقت نفسه، بأقصى طاقة. امتزجت أصوات الطبل بنفير المزمار مُحدثةً جلبة منكرة مزعجة للآذان. انضافت زينب لجوقتي مساهمة في ارتجال أجمل حفل أوركسترالي شهدته دارنا.

ارتفعت أصوات النسوة طالبة خفض الصوت. لم تعجبهن موسيقانا فطلبن منَّا أن نذهب للعزف في بلكونة السطح حتى يستمتع بها الجيران.

قبل ذلك أمرتني والدتي بنزع جلبابي وصداري القديمين، فهي ترغب أن تجرِّب عليَّ قميصي الجديد. ألبستني القميص.

أعجبها عمل الخيّاطة. كان القميص طويلاً تصل أطرافه الأرض وتتجاوز أكمامه طول يديَّ الصغيرتين. كان عنقه مكوَّناً من عِدّة طبقات من الثوب ويعقد بواسطة خيط حريري أبيض.

لم يشغل بالي لحظتها إلّا طبلي فقنطت من تجريب الملابس.

---

(1) آلة إيقاعية شعبية تشبه الدربوكة أو الطبلة، تصنع من فخار وجلد مدبوغ [المترجم].

سرعان ما عاودت ارتداء جلبابي وصداري القديمين وسارعت لسطح الدار من جديد. كانت زينب بانتظاري وقد انضاف إليها فتاتان وطفلٌ آخر من سكان الدور المجاورة، وحمل كلّ منهم آلته الموسيقية. لم يكنْ الطفل يتوفَّر إلّا على طبلٍ صغير وتعريجة مشابهة لتلك التي تعزف عليها الفتيات، فأمسك بمزمارٍ. كانت له دراية أكبر بكيفية النفخ في المزمار البسيط المظهر فأخرج منه زعيقاً أكبر وأكثر صخباً ممّا كنت أقدر عليه. استلقينا في بحرٍ من الأصوات المرحة الصاخبة.

أطلَّت علينا مجموعة من النسوة وقد لبسن أثواباً ملوَّنة أنيقة مبهجة. أثار منظرنا إعجابهن فقمن بتشجيعنا بكلماتٍ طيبة ضاعت في غمار الصخب المدوِّي الذي يصدر عن جوقتنا.

واصلنا العزف والغناء إلى مغيب الشمس. عندها صعدت والدتي لاسترجاعي قائلةً إنني لعبت بما يكفي بالنسبة لليوم. لذا توجَّب العودة لتناول وجبة العشاء والخلود للنوم، فهي تعتزم إيقاظي باكراً للذهاب إلى الكُتَّاب واستهلال العام الدراسي الجديد بتحصيل العلم وتلاوة الآيات المباركة. حملتني إلى المطبخ، حيث كان الحوض الكبير الذي تستخدمه عادةً لغسيل الثياب مملوءاً بماءٍ يفور من شدّة السخونة. أضافت عليه سطل ماء بارد ليصبح معتدلاً. عرَّتني وغمرتني كاملاً في الحوض حتى انقطعت أنفاسي تحت الماء. انتفضت وشرعت في التخبُّط بعدما بدأت فرك جسدي بقوة بقطعة من لحاء الفلين أحيطت بثوبٍ بالغ الخشونة. بعد الحمام، أكلت بضع لقيمات من خبز غمِّس في مرق لحم محلّى بنكهة الليمون. استلقيت على إحدى المرتبات. ألقت عليَّ والدتي غطاءً ساخناً فغططت في النوم، نوم تملؤه فتيات صغيرات مشاغبات وحلاقون يبالغون في الثرثرة.

انتشلني صوت والدتي من أعماق سباتي. سبحت لهنيهة في ثنيات ضوءٍ أحمر تعمره الشرارات والكواكب التائهة، ثمّ فتحت عينيَّ. وسرعان ما عاودت إغلاقهما بحثاً عن ظلمة النوم المريحة المنعشة. صار صوت أمّي أكثر إلحاحاً:

- استيقظ! إنها الثالثة صباحاً، استيقظ لارتداء صدارك وقميصك الجديدين وجرابك المُطرَّز! افتح عينيك! استيقظ!

شرعت في البكاء بصوتٍ خافت، فركت عينيَّ بأصابعي. حاولت مِراراً العودة للنوم، غير أن والدتي كانت صارمة. بلَّلت يدها بالماء البارد ومرَّرتها فوق وجهي فتوقَّفت أذناي عن الهدير. فتحت عينيَّ فوجدت والدي واقفاً مرتدياً جلباباً من الصوف الرقيق. ابتسم وقال لي:

- استعد للاحتفال بعاشوراء في الكُتَّاب رفقة زملائك! تشجَّع واستعد!

نهضت وغسلت عينيَّ وفمي وأنا في حالة من النعاس والخمول. بللت أطرافي بالماء ولم أعد لكامل يقظتي إلّا بعدما ألبستني والدتي القميص الجديد. كان الثوبُ المُتصلِّب يكاد يجرح جلدي. لبست صداري الأحمر ذا الرسوم المُعقَّدة البارزة، وضعت جرابي المُطرَّز على كتفي وأنهيت الأمور بلبس جلبابي الأبيض الجديد الذي كان يراوح منذ مدّة في خزانة والدتي. كان قد تشرَّب رائحة ماء الورد وأوراق البرتقال المُجفَّف التي تضعها أمّي في خزانة الملابس.

ها قد صرت شخصاً آخر! كنت مستفيقاً ومنتبهاً تماماً، مستعداً، بل ومتشوِّقاً للذهاب إلى الكُتَّاب. كانت كلّ ملابسي جديدة، وكذا حذائي. تقدَّمت والدي بثقةٍ وخيلاء لدى نزولنا درجات السلم.

كان الضوء يخرج من كلّ نوافذ غرف الدار الكبيرة، إذ كان السكان متلهفين لبدء العام الجديد بهمةٍ ونشاط. ومَنْ يلازم فراش نومه في فجر يومٍ مثل هذا سيقضي شهور السنة بأكملها في الكسل والخمول.

وصلنا صوت متسوِّل يعبر الزقاق في هذا الوقت المُبكِّر. سمعت صوت ارتطام عصاه بالأرض. لاشكّ أنه كان ضريراً.

كان خفّاي يفلتان من رجلي أثناء سيرنا والثياب أكبر من مقاسي، إذ تعمَّد والداي شراء مقاسات أكبر مني على الدوام لأستعملها في السنوات الموالية! رغم ذلك شعرت بسعادةٍ بالغة.

بمجـرَّد بلوغنـا الزقـاق منحنـي الوالـد قطعـة نقديـة مـن فئـة خمسـة فرنـكات، ووضـع تحـت إبطـي شـمعة كبـيرة. كانـت تلـك هدايانـا لفقيـه الكُتَّـاب بمناسـبة مقـدم السـنة الجديـدة.

كان المـارة ينظـرون اتجاهـي ويبتسـمون. كانـت الحوانيـت مفتوحـة والأزقـة مضـاءة. بذلـت جهـداً معتـبراً لئـلا يسـقط خفّـاي مـن قدمـي، ومـا لبثـت أن رأيـت نوافـذ الكُتَّـاب.

كـدت أسـقط الشـمعة الكبـيرة مـن يـدي تحـت تأثـير المفاجـأة: كانـت واجهـة الكُتَّـاب القـرآني قـد اكتسـت حلـةً بهيجة مـن الأضـواء بعدمـا جرت العـادة أن تكـون بئيسـة غارقـة في الغبـار عـلى مـدار العـام. كانـت لمبـات الزيـت الملوَّنـة تصـدر أضـواء متعـدِّدة برَّاقـة تصنـع عالمـاً مـن الفرحـة والحبـور.

سـارعت الخطـى، أصبحـت أصـوات التلاميـذ أكـثر وضوحـاً في بـرودة الصبـاح، تنافـس في حيويتهـا وفرحتهـا تراقـص الأنـوار الصغـيرة فـوق خلطـة الزيـت والمـاء التـي عكسـت ألـوان قـوس قـزح داخـل اللمبـات. تعزَّز شـعوري بهـذا العيـد العجيـب بعدمـا دلفـت إلى مدخـل الكُتَّـاب وتجاوزت بابـه. لـم أعـد الأمـير الأنيـق الوحيـد، بـل وجـدت نفسـي وسـط مجموعـة كبـيرة من الأسـياد الصغـار الذين يلبسـون أفضل الثياب وينشـدون الأذكار والأدعيـة تحـت لـواء أحـد ملـوك الأسـاطير.

غـادر والـدي فسـلَّمت فقيـه الكُتَّـاب الشـمعة التـي يبلـغ ثمنهـا جنيهـاً كامـلاً وقطعـة النقـود مـن فئـة خمسـة فرنـكات. أفسـح لي زملائـي مكانـاً بينهـم فجلسـت.

رفعـت عقيـرتي مثلهـم بتـلاوة الآيات فيـما تواصل قـدوم تلاميذ آخرين، وشرعـت حزمـة الشـموع الموضوعـة جنـب الفقيـه في التضخُّـم. زادت سـخونة الجـو حتـى صـار خانقـاً، نزعـت قـبّ جلبـابي مـن عـلى رأسي. كان ثـوب القميـص الجديـد يلتصـق بظهـري فيزعجنـي ويخـزه، غطـت حبـات العـرق جبهتـي ويديّ. أُصيب أحـد التلاميذ برعافٍ فنزف أنفـه دماً وتلطَّخت

ملابسه الجديدة ببقع حمراء. رفعت رأسي نحو السقف. كانت شعلات المصابيح الصغيرة تتراقص وتصدر أحياناً شرارات زرقاء. لذت بالصمت محاولاً التقاط أصوات الشعلات التي تُسبِّح بدورها لله مثلما نفعل نحن. امتزجت أصواتها بأصوات التلاميذ. كنت مقتنعاً أشدّ الاقتناع أنها تشاركنا حفلنا، تتفاعل معنا ولا تظلّ حبيسة الأوعية الزجاجية التي تحضنها .

اكتست الأشياء المعتادة والمخلوقات الأكثر بؤساً في ذلك الصباح نفس حماسنا، وشاركتنا حرارة وصدق عواطفنا لدى تضرُّعنا لخالق الأكوان ملتمسين رحمته ورضاه.

بعد تلاوة ما تيسَّر من آيات القرآن الكريم، شرعنا في ترديد مجموعة من الأدعية والأذكار. شاركنا في أذكارنا مجموعة من آباء التلاميذ الذين جلسوا إلى جنبنا على أرضية الكُتَّاب. لم يكنْ لديهم عمل في هذا اليوم، فأحبوا أن يحيوا ذكرى عاشوراء بين جدران الكُتَّاب مثلما تعوَّدوا على ذلك أيّام طفولتهم!

تحوَّلت أضواء اللمبات إلى اللون الأصفر بمرور الوقت واندحر غبش الفجر لدى اقتراب ضوء النهار. تسارعت خطى المارة في الشوارع خارجاً. وتصايح دوريان قرب المصابيح المُعلَّقة فوق ستار نوافذ الكُتَّاب.

رفع فقيه الكُتَّاب كفّيه بالدعاء والتضُّرع لله مُوجِّهاً ناظريه إلى السقف. دعا لعامّة المسلمين بالصلاح والرغد والرخاء وشمل بدعائه الأحياء والأموات. كما دعا الله أن يشيع على ظهر البسيطة السلم والإخاء، وأن يعمَّ الأمن والعدل والتضامن وجه الأرض.

- آمين! آمين!

كانت تلك المرّة الأولى التي تخلَّى فيها الفقيه عن عصا السفرجل. بدا لي وسيم الطلعة في جلبابه الأبيض المُخطط بالسواد وبرنسه الجوخ الرمادي. منحنا ثلاثة أيّام من العطلة، وبما أن اليوم الثالث منها صادف الخميس أصبحت أربعة كاملة! قبّلت يد الفقيه قبل الانصراف،

طلب مني إبلاغ سلامه لوالديّ ودعا لهما دعواتٍ طيبة.

أصبحت الأزقة مزدحمة بالعابرين. ارتدوا جميعاً ملابس جديدة، ومنهم مَنْ كان عائداً إلى داره من السوق حاملاً مقتنياته داخل قفّة من الحلفاء، وقد أبعدها قدر المستطاع عن رجليه مخافة أن تلطخ ثيابه، فيما كان بعضهم يتجوَّل دونما هدفٍ مُحدَّد. أخرجت أمّي من خزانة ثيابها منصورية[1] جميلة رقيقة الثوب مزيَّنة بخطوطٍ صفراء من حرير. كما غطت رأسها بمنديل أسود طويل مخطط بألوان زاهية.

تصاعد بخار الماء من السخّان، كان والداي ينتظران عودتي من الكُتَّاب لتناول الإفطار. طبخت والدتي محشياً ودهنت أوراقه بعسل وزبد طري. كانت وجبة شهية أرفقتها بكوبين كبيرين من الشاي المنعنع.

ناقش والداي، أثناء الوجبة، تفاصيل برنامج يومنا. خلال الصباح سأرافق والدي لزيارة ضريح مولاي إدريس دفين المدينة ومؤسِّسها. بعد صلاة الجماعة نعود للدار لتناول طعام الغداء. ثمّ أرافق والدتي لزيارة صديقتها لالة عائشة. مُنحت حقّ اصطحاب مزماري خلال هذه الزيارات، بينما تعيَّن ترك الطبل المصنوع من الفخار الهش بالمنزل مخافة أن يتعرَّض للكسر.

لكن حسن طالعي رتَّب لي برنامجاً آخر. بعد مسارٍ طويلٍ متعب في الأزقة المزدحمة رفقة والدي، وشراء صحن من الخزف الأزرق من ساحة العدول، حيث يعرض الفخّارون مصنوعاتهم في المناسبات والأعياد، دخلنا ضريح مولاي إدريس، حيث أدينا صلاة التحية قبل أن نعود لتناول طعام الغداء في المنزل. وهنا فاجأتنا لالة عائشة بزيارتها بمجرَّد انتهائنا من تناول وجبتنا. عبَّرت والدتي عن فرحةٍ كبيرة بمقدمها. تبادلت المرأتان التحيات والقبلات والمجاملات، فترك والدي المكان وغادر خارجاً.

---

(1) ثوب نسائي مغربي يقترب شكله من القفطان. [المترجم]

كانت تعتمل داخلي رغبةٌ قوية في الضرب على الطبل والنفخ بقوة في المزمار، وكنت أعلم أن والدتي لن تسمح بذلك في مثل هذه المناسبة. لذا لذت بالصمت منتظراً قدوم المساء لإحياء حفلٍ موسيقيٍ صاخب كنت متعطشاً لضجيجه. جلست في أحد أركان الغرفة منصتاً لحديث زائرتنا التي أوحت لأمّي منذ مقدمها أن بجعبتها أخباراً طارئة، وهو ما أثار فضول والدتي، دون أن ينسيها واجبات الضيافة. نفخت على الفحم وزادت من كمية الماء في السخّان، غسلت الأكواب وفتحت علبة من القصدير استخرجت منها نصف دزينة من حلوى السميد مردِّدة عبارات الترحيب:

- لالة عائشة، تفضلي بالجلوس على الأريكة الكبيرة. سيكون الشاي جاهزاً بعد هنيهة. لا! لا! لا! قلت على الأريكة الكبيرة! في صدر المجلس! أرجوك أن تجلسي في كامل راحتك.

جلست لالة عائشة فوق الأريكة الكبيرة وسط المخدّات وبدأت حكايتها. لم يتعلَّق الأمر في الحقيقية بحكاية واضحة المعالم، بل بمجموعة من الأحداث المتداخلة التي ينعدم الرابط بينها لدرجة أن لالة عائشة نفسها تفلت حبل السرد في بعض الأحيان. في تلك اللحظات تلوحٍ معالم القلق والغمِّ على وجه لالة عائشة وداخل عينيها، ترتبك قليلاً قبل أن تعاود الكلام بوتيرتها الهادئة، تسترجع ابتسامتها وتسترسل في مونولوغها الطويل.

كان وجه والدتي يعكس تعابير القلق نفسها الصادرة من محدثتها، ثمّ نفس العواطف وعلامات الانفراج. كانت تفغر فاها أحياناً كأنها تريد قول شيء، لكن سرعان ما تعاود إغلاقه إذا لم يسعفها التعبير.

وجدت في الإصغاء إلى بعض أطراف حكايتها المهلهلة المتشعبة متعة كبيرة.

وحسب لالة عائشة، فإن المنزل المجاور لدارها يعاني من كون جميع النسوة به يحملن اسم خديجة. وللتمييز بينهن لجأت لإضافة

مهنة الزوج إلى اسم الزوجة: خديجة زوجة البقّال، خديجة زوجة الخيّاط، وخديجة زوجة بائع البترول.

ثم أضافت:

- من الأفضل أن نطلق عليهن ألقاباً من نوع آخر: خديجة الصَّماء، خديجة الحرفاء وخديجة السوداء. هكذا سيعرف الناس عمَّن نتحدَّث!

ضحكنا من أعماق قلوبنا من هذا المزاح. غابت والدتي لهنيهة قبل أن تُقبل حاملة باقة من النعناع والنباتات العطرية الناعمة. بدأت تحضير شاي المناسبات المُعطّر الكبير، وبينما هي تصبه في الإبريق سألت:

- كيف أحوال زوجك؟ وكيف هي تجارته؟ هل وجد شريكاً جديداً أم يعمل وحده؟

- لم يعثر على شريك، لكنه لا يشتغل وحده. لديه ثلاثة عمال. الأحذية النسائية التي يصنعها تجد إقبالاً كبيراً. وقد وعدني أن يهديني في مطلع الخريف قفطان الحرير المشمشي اللون الذي كنت أتمنى اقتناءه منذ زمان.

- الحمد لله! كلّ المشاكل تجد حلولاً مع الوقت ولحظات الأزمة تسقط في النسيان!

أجابت لالة عائشة:

- أجل، معك حق.

انتظرت والدتي تفاصيل إضافية غير أن ضيفتها صمتت، الشيء الذي أثار قلقها.

- فيم تفكرين يا لالة عائشة؟ تبدين مهمومة. أتمنى أن كلّ شيء على ما يُرام في أسرتك!

تنهَّدت لالة عائشة دون أن تنبس ببنت شفة. صبَّت والدتي قليلاً من

الشاي، تذوَّقته وعبَّرت عن رضاها عن المشروب الساخن، ثمّ صبَّت كوباً للالة عائشة وآخر لي. وأخيراً تحدَّثت لالة عائشة! انحنت على والدتي وهمست في أذنها:

- نحن معشر النساء مجرَّد مخلوقات ضعيفة! لنا الله. الله وحده سندنا ووكيلنا. لنحذر من وضع الثقة في الرجال! إنهم... إنهم...

لم تجد لالة عائشة النعت المناسب لإتمام جملتها فاكتفت بتحريك يديها على مستوى كتفيها ورفع بصرها إلى السماء.

سمحت لي والدتي بالصعود إلى سطح الدار للعب بالطبل. استنتجت أن المرأتين ترغبان في الخوض في أمرٍ سريٍّ خطير تخشيان من اطلاع آذان فضولية عليه. اغتنمت الفرصة فصعدت للسطح وشرعت في قرع طبلي بقوة من كلتا جهتيه. كنت أرتجل ألحاناً متوحِّشة وإيقاعات موغِلة في الضجيج العنيف إلى درجة أن أصوات الطبل زعزعت الجدران المجاورة. في غضون ذلك كانت أمّي ولالة عائشة تواصلان حديثهما السريّ الطويل...

في ذلك المساء، صعدت مجموعات عديدة من النساء اللابسات أبهى حللهن فوق سطوح المدينة وتردَّد فيها قرع طبول الأطفال وصياحهم وغناؤهم، فيما تجللت الشمس بحمرة المغيب وسكنت فوق الأفق البعيد مغرقة كلّ المدينة في لونٍ وردي باهت وآخر بنفسجي رقيق. ظهرت أولى نجوم الليل. كانت تلك علامة على انصرام الوقت فودَّعت لالة عائشة والدتي وانصرفت إلى حال سبيلها.

تمّ إيقاد لمبة البترول وكنّا نشعر بالتعب. وضعت الطبل والبوق جانباً بعدما قرفت منهما. ارتديت من جديد ملابسي القديمة فشرعت بالراحة فيها. لم أستبقِ إلّا القميص الجديد الذي داخَله أخيراً بعض اللين، بحكم التصاقه بجلدي الدافئ.

لكي أفلت من ضجيج الطبل الذي واصلت أصداؤه زعزعة دماغي، فتحت صندوق عجائبي. لكن وللأسف، لم يتبقَ في عينيَّ ما يكفي من يقظة لمشاهدة محتوياته.

الفصل الثامن

بعد بهجة الاحتفالات بيوم عاشوراء، عادت الحياة إلى سابق إيقاعها، أي لتوالي أيامها الرتيب الكئيب. ارتفعت حرارة الطقس فغزت كتائب الذباب المنزل وملأته بطنينها وبقايا فضلاتها. خرج البَقّ النائم في الخشب المتهالك من مخابئه بعدما أنهكه صومه الطويل خلال برد الشتاء. كان قد اكتسى لوناً بنياً مغبراً وهزل كأنما أفرغ من دمه.

عندما سكنّا غرفتنا لأوَّل مرّة، كانت مجموعات البَقّ مزدهرة كثيفة الأعداد، فأعلنت والدتي عليها حرباً ضروساً شاملة استعملت فيها كلّ الوسائل، الصريحة المباشرة منها والماكرة المخادعة: الجير، الكبريت، غاز الإنارة، ثمّ الرُقى والأحجبة والأدعية والمساحيق السحرية التي اقتنتها من عطارٍ يدّعي إتيان المعجزات في هذا الباب. لم تنجُ إلّا فئة قليلة من المذبحة التي طالت قبيلة البَقّ، أفراد معدودون مشوَّهون لاذوا بدعامات سقف الغرفة. عجز البَقّ عن مواصلة التوالد، وكان مصيره القتل إنْ غادر أعالي الغرفة إلى أسفلها. كان اقترابه من أيادي

البشر طريقة مُحقَّقة من طرق الانتحار والخلاص السريع من آلام هذا العالم التعيس.

في خضم ذلك، كان الذباب يتكاثر يوماً بعد آخر بطريقة مذهلة. كانت والدتي تطرده كلّ صباح بواسطة ضربات خرقة بالية فيخرج غاضباً مزمجراً من نافذة الغرفة. ثمّ ندلي الستار فننجو منه، غير أنه يتبقَّى منه بضع ذبابات تدور في عتمة غرفتنا.

منذ أوَّل يومٍ من أيّام الحرّ، رفعت والدتي حصيرة الدوم من على أرضية المسكنٍ وطوتها قبل أن تحشرها خلف السرير وتضع المرتبات على الأرضية التي غسلت بالماء.

تمَّدد عدد ساعات النهار وصار جو الكُتَّاب بالغ الضيق والحرارة فغادرناه ذات صباح إلى بناية مجاورة تضاعفه مساحة، مصطحبين ألواحنا ومحابرنا.

كانت البناية الجديدة تضم مدفنَ واحدٍ من الأولياء الصالحين يجهل الناس اسمه، غير أن فتيات الحارة العزباوات تعوَّدن التبرُّك به طلباً لعريس محتمل خلال العام، لذا كُنَّ يقصدنه ويطفن به سبع مرات كلّ يوم خميس. وكانت ثمّة قبورٌ أخرى في هذه القاعة الكبيرة. ضمَّت بناية الضريح كذلك محراباً يتجه إلى الشرق، وعندما رُفع الآذان منذ اليوم الأوَّل لاستقرارنا به أمرنا الفقيه بالوضوء في النافورة الموجودة بركنٍ جانبي.

خلَّف تغيير مكان الدرس أثراً طيباً على صحتي الجسدية والنفسية، شعرت بهمَّة ونشاط ربَّما نجما أيضاً عن كون الضوء يغمر المكان الجديد، وعن اللطف الذي أبداه الفقيه تجاهي، فتقدَّمت بوتيرةٍ أسرع في الدرس والتحصيل. بدأت أحب الكُتَّاب لأوَّل مرّة. تجاوبت ذاكرتي مع الحالة الجديدة فأصبحت قادراً على حفظ خمسة عشر سطراً في اليوم من الآيات المكتوبة على لوحي الخشبي، بعدما لم أتمكن في السابق إلّا من حفظ عشرة أسطر.

وذات يوم جمعة عاد والدي إلى الدار مزهوّاً بعدما التقى فقيه الكُتَّاب صدفةً في الشارع فبشره هذا الأخير بأن ابنه قد يصبح عالماً كبيراً إن هو واصل التحصيل بمثل حماسه وجديته الحالية.

في الحقيقة لم أكُن أصبو آنذاك لشيءٍ من ذلك. ما كان يهمني أن أصبح عالماً. فصورة العالم في مخيلتي كانت تتمثل في شخصٍ بدين غليظ الوجه كثيف اللحية يرتدي ثياباً بيضاء واسعة وتعلو رأسه عمامة ثقيلة. ولم تكنْ لدي أيّة رغبة في أن أشبه هذه الصورة من قريب ولا من بعيد! كنت جاداً في حفظ درسي اليومي لأنني شعرت بمحبة أسرتي تتنامى باطراد مع تقدُّمي في التحصيل، وكذا لأن ذلك مكّنني من تجنُّب الضربات اللاسعة للعصا الطويلة التي كان سيدنا يعبث بها بين أصابع يده. وضعت برنامجاً شخصياً لعملي في الكُتَّاب. ذلك أنني كنت أحفظ بجد من الصباح إلى وقت الظهيرة،أمّا بعدها فأشرد في أحلامي الصغيرة لمّدة ساعتين متواليتين، بينما أُحرِّك فمي متظاهراً بترديد ما يتلوه الفقيه.

بفضل هذه الفسحة من الحلم حافظت على حماسي، لأنها يسرت لي الفِرار من جدران الكُتَّاب إلى عالم الخيال الفسيح الممتع الذي لا يشوبه ألمٌ ولا يخالطه إكراهٌ. لم أقتصر في هذا العالم الشاسع على لعب دور الأمير الصغير الذي تخضع لنزواته المخلوقات والأشياء، بل كنت أتحوَّل أحياناً لشخصٍ بالغ، للرجل الذي حلمت أن أصيره لاحقاً. كنت أتخيلني في المستقبل رجلاً قوي البنية يرتدي لباساً من صوف حريري، ترتسم على عيونه نظراتٌ متوثِّبة ويملك بين جوانحه قلباً تفيض منه مشاعر جياشة.

واصلت نفس النوع من الأحلام ليلاً تحت غطاء النوم فبنيت مستقبلي، وأعدت بناءه مرَّات متعدِّدة من خلال مغامرات وأعمال بطولية تعترضها عقبات كبيرة، إلى حين بلوغ الوقت الذي تبرز فيه جزر سوداء تزرع الفوضى الأولية من جديد في عناصر هذا العالم الناشئ. تختلط الرؤى، تتداخل مع بعضها البعض وتنساب نحو جوف الظلام،

بينما يبرز منها بين الفينة والأخرى جزءٌ صغير، ثمّ يجرفه التيار الذي يمضي إلى البعيد بكلّ مكوِّنات أحلامي. وفي الصباح أعود لانشغالاتي المعهودة من جديد.

وذات يوم اثنين عاد والدي مبكِّراً إلى المنزل على غير عادته، تناول معنا طعام الغداء وحدَّثنا عمّا أصبح يجد من صعوبة في بيع الجلابيب الصوفية الرجالية، معلناً عزمه التحوُّل إلى خياطة ثياب «الحايك»[1] القطنية النسائية بعدما نما عليها الطلب أكثر في الأسواق. ذلك أن «الحايك» ثوبٌ ضروري لا يمكن لنساء فاس الاستغناء عنه في حر الصيف ولا في برد الشتاء، ثمّ أردف متوجِّهاً لوالدتي:

- سوف ترافقينني أنت والولد إلى سوق الصيّاغين. تطلبين من زمان أن أهديك الدمالج التي تحمل اسم «شمس وقمر» المصنوعة من الذهب والفضة. لنذهب لاقتنائها اليوم! أنا متفرِّغ، توفيت والدة العامل الذي يساعدني، وقد غادر إلى البادية ليحضر جنازتها. ولن نستأنف العمل إلّا غداً.

ردّت أمّي:

- وهل توفيت والدته نتيجة مرضٍ ما؟

- لا أظنّ، كانت طاعنة في السنِّ، رحمها الله.

قلت لهما:

- لا يمكنني التغيُّب عن الكُتّاب لمرافقتكما إلى سوق الصيّاغين، فعليَّ أن أحفظ درس اليوم.

أجاب والدي:

- لا تقلق، لقيت الفقيه في طريق عودتي واستأذنت لك في التغيُّب.

---

(1) ثوب نسائي من القطن الأبيض يتكوَّن من قطعةٍ واحدة تلف المرأة فيه كامل جسدها فلا يظهر منها إلّا أعلى الوجه. [المترجم]

أنت تدرس بجد ونشاط، ولا بأس في نصف يوم من الراحة، بل اعتبره مكافأةً لك. لكن ربَّما لا ترغب في مشاهدة الحلي والمجوهرات الجميلة في سوق المزادات؟

- أحب مشاهدة المجوهرات التي تشبه...

سألني والدي:

- تشبه ماذا؟

أطرقت خجلاً، وقلت بصوتٍ يشبه الإفصاح عن سر:

- المجوهرات الجميلة التي تشبه الورود!

أطلق الوالد والوالدة ضحكة صاخبة فشعرت بأن رد فعلهما على ما قلت غير لائق. راودني بعض الشكّ حول درجة الذَّكاء عندهما كليهما.

بمجرَّد الانتهاء من طعام الغداء، خرجت وجلست على درجات سلم الدار منتظراً ساعة مزاد المجوهرات. وضعت يدي على ركبتي وطفقت أفكر في الحوار الذي دار مع والديّ قبل قليل. هل تشبيه المجوهرات بالورود فكرة غبية حقّاً؟ إن ضحكهما يعبّر عن الموقف الذي يتخذه الكبار عادة متى نطق الصغار بأقوالٍ ساذجة بسيطة. بينما كان لديَّ إحساس بأن المقارنة التي عقدتها تعبِّر عن فكرة أساسية كان عليهما أن يتلقياها بالصمت على الأَقلّ! أمّا ضحكهما عليها فكان فضاضة ما بعدها فضاضة!

كنت أعرف بعض أنواع الورود: الخشخاش الذي يزهر في الربيع فوق القبور، الحمّيضة المكوّرة، الأقحوان الذي يهدي السماء قلبه الذهبي، اللبلاب الذي ينتصب تحت أقدامنا حين أرافق والدي في الأيام المشمسة إلى هضاب باب غويصة. وعلى سطح منزلنا تنبت في أوانٍ من فخار نبتة الراعي والقرنفل وورد أصفهان.

كانت معلوماتي في باب الحليّ أقلّ شساعة. شاهدت من قبل مجموعة باذخة منها ترتديها النساء والفتيات الصغيرات في المناسبات

والأفـراح. تصـوَّرت أنها تنقسـم صنفين متباينـين: حليّ الاسـتعمال اليومي الفضيـة المائـل لونهـا للزرقـة الباهتـة، وحـلّي الأعيـاد البرَّاقـة بالجواهـر التـي تتضمَّنهـا، التـي صاغتهـا العفاريت في أماكـن قصيّـة غامضـة تحـت الأرض بطريقـة عجيبـة جعلـت بريقهـا يعكـس باسـتمرار بقية مـن معدنها الأصلي، مـن نـار الصائـغ ونـور الشـمس البـرَّاق. بالنسـبة لي، كانـت هـذه الحـليّ تـأتي من عوالم بعيدة سـحيقة القدم بعدما لبسـتها أميرات ينتمين لعـوالم الخيـال. كان المغفلـون وحدهم يثقون أن هذه الأعمال الهندسـية المبهـرة، التـي تضـم الأحجـار الكريمـة المتلألئـة في أحضـان الذهـب، قـد صُنعـت مـن طرف بعـض الحرفيين المجهولـين في عتمـة دكاكينهم مقابل مقاديـر مـن مـالٍ تافـه. تخيلـت أن هـذه الحـليّ السـحرية نشـأت وحدهـا فجـأة، نبتـت بفعـل مشـاعر الحـب، ثـمّ جـاءت مـن تلقـاء نفسـها لتسـتقر فـوق شـعر وأجسـاد أمـيرات الأسـاطير، وتحـت أقـدام وخطـوات نفـس الأمـيرات وُلـدت، بطريقـة اعتباطيـة، الحـليّ الاعتياديـة الأقـلّ بريقـاً! امتدت لحظتهـا أيضـاً حقـول الخشـخاش وتفتحـت براعـم الزنابـق ونـثر السوسـن والبنفسـج أريجهـما في الأجـواء!

بسـنِّ السادسـة، مـا كان بإمـكاني أن أتحـدَّث هكـذا عـن الحـلي والأزهـار، ومـا كنـت قـادراً عـلى ترتيـب أفـكاري حولهـا. كانـت لغتـي أفقر مـن أن تسـتطيع التعبـير عـمّا يعـجّ بـه خاطـري من صـور متداخلـة. وربَّما أن هـذا العجـز عـن تبليـغ الأفـكار للآخريـن هـو مـا خلـق بداخـلي نوعـاً من الكآبـة الخفيـة المؤلمـة. كان بإمـكاني أن أصفـح عن الكبار متـى عرَّضوني للتقريـع، وللـضرب أحيانـاً مـن أجـل أمـورٍ بسـيطة، لكننـي لم أغفـر لهـم عجزهـم عـن فهمـي.

بالنسـبة لوالـدتي، كنـت ولـداً صالحـاً متـى مـا التزمت بغسـل رجلي قبل الدخـول إلى الغرفـة. بالنسـبة لوالـدي، كنـت مثـار فخـره متـى مـا قلـدت حركاتـه وسـكناته خـلال الاسـتعداد لصـلاة الجمعـة. بالنسـبة للجـيران كنـت نموذجـاً للولـد الصالـح لأنني لا أوسـخ جدران سـلّم الـدار، ولا أحدث كثـيراً مـن الضجيـج خـلال لعبي فـوق السـطوح. سـأتحوَّل لأغبى إنسـان لو

أطلعتهم على أسراري الخفية. فهمت بطريقة غريزية ما يتوجَّب عمله للعيش مع الرجال والنساء من الكبار الذين يحملون شخصياتهم محمل الجد، ويمشون في الأرض مزهوين غافلين إلى درجة الغرور.

مقرفصاً على إحدى درجات سُلّم الدار، واضعاً يديّ على ركبتيّ ظللت أُردِّد:

- *الحليّ تشبه الورود.*

كانت والدتي وفاطمة البزيوية تتجاذبان أطراف الحديث بصوتٍ خافت على مدخل الطابق. وبين الفينة والأخرى ترفع أمّي عقيرتها لطرد قط زينب المزعج الذي يطوف بالمرأتين. خاطبته:

- *اذهب بعيداً عني يا فأر المجاري الوسخ! اذهب لنشر براغيثك في مكانٍ آخر!*

واصلت الجارتان حديثهما الخافت، تخللته ضحكات مكتومة وتنهيدات عميقة قبل أن تعود كلّ منهما لمسكنها. مرّ والدي بمحاذاتي.

- *واصل اللعب! بعد صلاة العصر سآتي لاصطحابكما أنت وأمك!*

وصلني صوت والدتي:

- *ماذا تفعل في السلالم؟*

أجبت بنبرةٍ منافقة:

- *ألعب.*

- *أي لعبة تلعب؟*

- *لعبة الملك.*

ردَّت والدتي كما لو أنها تريد إسماع كلّ أهل الدار:

- *أنا مستعدة لأن أدفع لك ما تريد شرط أن تخبرني ما الذي يمكن لملك أن يفعله وهو جالس القرفصاء على درجات سُلّم المنزل؟*

سمعت ضحكات الجارات، ووجدت زوجة صانع المحاريث الفرصة لتلقي ملاحظة شريرة:

- *لالة زبيدة! سيكون لولدك مستقبل زاهر! يحسب نفسه ملكاً منذ الآن!*

ظلّت جملتها التي حملت نبرةً من الوقاحة دون جواب.

غرقت في أحلامي من جديد. إذا طاب لي أن أصير ملكاً فما المانع؟ ما الذي تفهمه زوجة صانع المحاريث في شؤون الملوك والأمراء؟ فلتقتصر على تقشير خضارها وطحن توابلها والتحسُّر على أن ثمن الزيت قد زاد قرشاً أو قرشين! من أين لها أن تكون لها روح أميرة من الأميرات؟ أنْ تستمتع بخرير الماء في نوافير الرخام! لا تستطع حتى فهم العلاقة بين الحليّ والورود! وتلبس في يدها دوماً نفس الخاتم النحاسي الحقير الذي تعلوه قطعة من زجاج، بينما تعلِّق فوق ثوبها في الأعياد مجرَّد خميسة[1] نحاسية باهتة قبيحة النقوش. مساء اليوم سوف تحصل والدتي على دمالجها الجديدة من فئة «شمس وقمر» وسوف يمتقع لون رحمة من الحسد. سأسمعها تردِّد طيلة الأيام القادمة:

- يا لحظي العاثر! تزوَّجت من صانع محاريث حقير يستطيع بالكاد أن يوفِّر لنا الحبل الذي نربط به الدلو لسقي الماء من البئر! ليس هناك عدلٌ في هذه الدنيا التي فرضت علينا الشقاء المستمرّ وشظف العيش، ووهبت أخريات الرخاء والغِنى والأكل الجيّد والحليّ من الذهب والفضة! يا ربي! متى تنتهي أحزاني؟!

ستجيبها والدتي بتواضعٍ ماكر:

- *يا أختي لماذا تتحسرين على متاع الدنيا؟ الله يوزِّع الأرزاق بالعدل*

---

(1) حلية على شكل يد مكوَّنة من خمسة أصابع. [المترجم]

ويعطي كلاً حسب صفاء قلبه وسلامة طويته!

وتعقِّب باقي النساء:

- *لا إله إلّا الله!*

سمعت صوت المؤذِّن يردِّد عالياً: لا إله إلّا الله، فسألت والدتي:

- *ماما، هل هذا آذان العصر؟*

- *نعم وسيعود والدك بعد قليل. البس جلبابك الجديد استعداداً للخروج، فالذي عليك مليء بالبقع!*

توقَّفت مكنسة الدوم عن الاحتكاك بأرضية غرفة فاطمة البزيوية التي قدمت نحونا، أدخلت رأسها عبر باب غرفتنا وسألت:

- *وهل أستعد أنا أيضاً؟*

أشارت لها والدتي بالموافقة فعادت إلى غرفتها، وسرعان ما سمعنا صوت خزنة خشبية تفتح.

سمعت صوت والدي في مدخل الدار وهو ينطق بجملته الاعتيادية لدى عودته من الخارج: هل بإمكاني المرور؟

أجابه صوت الخالة كنزة الغائر في غرفتها المعتمة المليئة بدخان البخور:

- *تفضل بالمرور أيها المعلم عبد السلام!*

تردَّد صدى خطواته في السُلّم صاعداً فولجت الغرفة من أجل تغيير ملابسي.

كان مدخل سوق الصيّاغين حافلاً بالنشاط مثل باب خلية نمل. تزاحم الناس به ماضين إلى وجهات متباينة، ولم يبد على أحدهم علامة يمكن أن توضح وجهته. كانت والدتي وفاطمة البزيوية تتبعاننا أنا ووالدي بخطواتٍ صغيرة وقد تدثّرتا بحايكين أبيضين. كانت واجهات

الحوانيت العالية تتيح لأعيننا مشاهدة بريق المشغولات البرَّاقة إلى درجة بدت كما لو سكّت من التنك: تيجان وأحزمة من الذهب بالغ الصاغة في تنميق نقوشها حتى كادت تفقد بعضاً من بريقها النبيل. لم يشبه أيٌّ من هذه الحليّ الورود ولم تغلفها أيّة أسرار سحرية. صنعتها أصابع بشريّة دون حب ولا شغف لإشباع صلف الأثرياء. كان أصحاب الحوانيت على صواب حين قدَّروا أثمانها حسب وزنها: تماماً مثل التوابل. آلمني ذلك. كان الزبائن يتجولون بين الحوانيت بينما بدت على ملامحهم علامات الطمع والرغبة في الاقتناء، بينما غالب نسوة ورجال آخرون دموعهم هنا وهناك.

فهمت لاحقاً سبب حزنهم. فهمت كيف يضطر الإنسان للتوجُّه إلى سوق الذهب عارضاً للبيع حليّاً تمثِّل أعزّ ما يملك، تذكّره بماضيه الذي ارتدى فيه هذه الحليّ في الأعياد والمناسبات السعيدة، بينما يضطر اليوم لبيعها لمشترين يقلّبونها من كلّ جانب ويتفحّصونها طويلاً قبل أن يعرضوا عليه نصف ثمنها الحقيقي.

بمجرَّد وصولنا، قصدنا الدلّالون[1] عارضين أنواعاً مختلفة من المشغولات. لم يلِق والدي إلّا نظرات عابرة عليها قبل أن يومئ بالرفض، بينما كانت المرأتان متكئتين على جدار خلفنا تتجاذبان أطراف الحديث. بدا لي أنه مرّ وقت طويل قبل أن يقبل والدي من شخص ناري النظرات دملجين مزينين بجواهر هرمية أحدهما من فضة والآخر من ذهب. ناولهما لوالدتي التي تفحصتهما طويلاً وقلّبتهما، ارتدتهما أربع أو خمس مرَّات قبل أن تطلب من فاطمة البزيوية ارتداءهما أمامها لتتأمل في منظرهما على اليدين. تحدَّثت حول تفاصيل النقوش لمدّة ربع ساعة مع جارتها، قبل أن تعيدهما لوالدي الذي كان يصغي للبائع والثمن المطلوب. اقترح والدي ثمناً أقلّ وهو يُعيد له الدملجين، فاختفى الدلّال وسط الحشود التي جاء من بينها للتشاور. لم نلمح إلّا

(1) سماسرة أو وسطاء بين الباعة والمشترين يدلّون على البضاعة بالصياح في الأسواق التقليدية [المترجم]

يده المرفوعة حاملة الدمالج عالياً وهي تتباعد.

بدت على والدي علامات الاستعجال. ظهر سمسار المجوهرات من جديد طالباً رفع الثمن. فاوض والدي، وعاد السمسار للاختفاء في زحمة السوق الهادرة.

كانت الزحمة تتصاعد والأصوات ترتفع والسماسرة يرفعون عقيرتهم بالأثمان المطلوبة إلى درجة الصياح، ويتراكضون مسرعين في اتجاهات مختلفة قبل أن يمسك أحدهم بذراع زبون ويقتاده خلفه إلى دكان ما. وبين الفينة والأخرى تنشب مناقشات حادة لا تخفت إلّا لتتبعها أخرى غير بعيد عن سابقتها.

أحاطت بنا في بعض المرَّات موجات من الناس مكوَّنة من رجال متوترين ونساء في حالة أقرب إلى الهستيريا، فاضطررنا للالتصاق بالحائط حتى مرورهم نحو وجهاتٍ أخرى.

شعرت بتعبٍ كبير لفت نظر والدي فحملني وضمني إلى كتفه. كان جبينه يتصبَّب عرقاً. شرعت والدتي الغاضبة في لعن الدلّال وما يأتي منه والدعاء عليه بالعذاب في الدنيا والآخرة، متشفعة بأسماء الأولياء والصالحين. عار عليه أن يعامل الناس بمثل هذه الطريقة! ما المؤامرة التي يحبك خيوطها خلال غيابه الطويل؟ هل يحسبنا من سكان الأرياف المغفلين! نحن نعرف دواخل الأمور ولن ندفع إلّا الثمن المناسب للبضاعة! لن يتمكَّن هذا الكافر بالله من خداعنا. لكن «الكافر» لم يكلف نفسه عناء العودة من جديد!

أنزلني والدي فجأة ثمّ اختفى بدوره في الزحام نحو وجهةٍ مجهولة. ارتفعت صرخات في الجانب الآخر من السوق لفتت أنظارنا بسبب حدتها. تداخلت موجات من زحام بشري وانفجرت تعابير الغضب متفرِّقة هنا وهناك قبل أن تتحوَّل إلى هديرٍ بعيد.

ثمّ بدأت جموع من الناس تتراكض في السوق نحو وجهةٍ واحدة. أصيبت والدتي وفاطمة البزيوية بالهلع وشرعتا تردِّدان: «يا الله! يا

الله! » وتشدّان أطراف ثوبهما حتى لا يؤذيها تدافع الجموع المتراكضة. وأخيراً ظهر والدي والدلّال وهما يمسكان بخناق بعضهما ويمشيان، بينما تتبعهما حشود غفيرة من روّاد السوق. كانت عيونها حمراء من الغضب، وكان والدي قد فقد عمامته بينما علت وجنة الدلّال بقعة من الدم.

ذهبا محاطين بجموع الطفيليين.

شرعت المرأتان في العويل والبكاء فجاريتهما في ذلك، وتبعنا الجموع بدورنا كيفما استطعنا إلى أن وجدنا أنفسنا في سوق الفواكه الجافة، ولم يكنْ ثمّة أثر للرجلين المتعاركين ولا للجموع التي ترافقهما! كنت أتوقع أن أجد في هذا المكان آثار فوضى ناجمة عن عِراك كبير، لكن خاب توقعي. كان الناس في المكان يتجاذبون أطراف الحديث، يبيعون ويشترون في جوٍ من الهدوء بينما يردِّد بعض الأطفال أناشيد كانت ذائعة في ذلك الزمان.

صار حزننا خانقاً في هذا الجو وشعرنا بالعزلة، فقرَّرت والدتي العودة إلى المنزل قائلةً:

- لا فائدة من الجري في كلّ اتِّجاه! لنعد إلى الدار وننتظر ونبكي على راحتنا!

بمجرَّد عودتنا نزعت والدتي عنها الحايك وجلست على مرتبة، ثمّ وضعت وجهها بين يديها وشرعت في بكاءٍ صامتٍ طويل. كانت تلك أوَّل مرّة أحزنني فيها بكاؤها. لم يشبه في هذه المرّة النوبات المعتادة التي كانت تبكي خلالها بصخب من أجل «إفراغ قلبها». كانت دموعها تسيل على ذقنها وتهبط إلى صدرها بينما هي جامدة لا تتحرَّك في حالة من العزلة الحزينة المؤثرة.

شرعت بدوري في البكاء بقوة، تمدَّدت فوق الفراش ناظراً محدقاً في السقف ومنتظراً نتيجة أحداث اليوم المقلقة، فقصّة ما جرى بالسوق لابد لها من تتمّة. وعندما تحدَّثت والدتي عن الانتظار، فذلك ما كانت

تقصده دون شكّ. شرع كلّ منّا في تنفيذ برنامجه الخاص: والدتي تبكي وأنا أنتظر. تعوَّدت على هذا التمرين منذ زمان.

أسدل المساء ستار الظلمة فأضاءت المصابيح غرف سكّان الدار الآخرين، بينما بقينا نحن في الظلام. تشكَّلت أمام خيالي الصغير عفاريت كبيرة مرعبة تتفسخ، ثمّ تتكوَّن من جديد، وتتحوَّل لشرارات خضراء تأتي لتلامس جفوني بأشرعتها البنية اللون.

وفي النهاية كسر صوت والدي عتمة الغرفة، فاعتدلت من حالة التمدُّد وجلست. كانت والدتي تواصل نشيجها المكتوم. تردَّد في درجات السُلَّم صدى وقع خطوات والدي، ثمّ فتح باب غرفتنا ودخل سائلاً:

- *لماذا لم توقدوا اللمبة؟ أين أعواد الثقاب؟*

ردَّت والدتي:

- *في الخزانة الحائطية قرب علبة الشاي التنك البيضاء!*

سأل والدي:

- *هل نام سيدي محمد؟*

- *لا يا أبي! أنا هنا!* .

أشعل أحد أعواد الثقاب ورفع اللمبة.

- *ماذا تفعل في الظلام؟*

- *كنت أنتظر عودتك.*

بمجرَّد أن أشعل اللمبة أبصر وجه والدتي فانتبه لعينيها الحمراوين ولدموعها ونشيجها فقال:

- *لماذا تبكين؟ لم يحدث لنا مكروه. كنت فقط أعاقب ذلك الكافر الذي حاول أن يوقعني في مقلب من مقالبه. لكن المياه عادت إلى مجاريها، وها هي الدمالج!*

وضع الدملجين على المرتبة، قريباً، حيث تجلس والدتي فقالت:

- لا أريد هاته الحليّ المنحوسة، أشعر أنها نذير شؤم علينا. لا أرغب في ارتدائها. سيدخل النحس دارنا معها! أرجوك اذهب لبيعها غداً!

- هذه هي الدمالج التي كنت ترغبين فيها، خذيها ولا تنطقي بكلمة زائدة!

التقطت والدتي الدمالج دون حماس، وضعتها في خزنتها الصغيرة ثمّ عقَّبت:

- سترى أن ما أقوله لك هو عين الصواب! نعم، ليس عندي أي قدر من الذَّكاء، لست إلّا امرأة ضعيفة، ولكن قلبي لا يكذب عليّ أبداً، عندما يهرب قلبي من شيء أو من مخلوق لا تخيب فراسته! لم تدخل هذه الدمالج على قلبي أيّة فرحة! سأعد طعام العشاء!

أكلنا بشهية ناقصة وقمنا للنوم بعد قليل. سأتذكَّر دوماً هذه الليلة التي حاصرتني فيها الكوابيس، الغيلان والمسوخ الفظيعة التي تفور من عيونها الدماء وهي تطاردنا أنا ووالدي، مرفقة بجموع بشريّة كبيرة تركض في شوارع المدينة وراءنا لتسرق مالنا. كانت الجموع ترغب بشكلٍ خاص في سرقة صندوق العجائب خاصتي. ظهر والدي معتلياً صهوةٍ حصان أسود، حاملاً صندوق عجائبي تحت ذراعه يشق الجموع بينما ثمّة أيادٍ تحاول عرقلة سيره. تخلّص منها ونشر عرف حصانه مثل راية خفاقة. وجدت نفسي رفقة والدتي وحيدين في بادية شاسعة خالية. كانت والدتي تبكي بصمتٍ بينما يغمر ضوء أشعة الصيف كثبان رمال المكان وأحجاره. ثمّ بدا والدي فوق هضبة مقابلة. كان راجلاً ولا أثر لحصانه معه. لكنه كان يتأبط صندوق العجائب، ثمّ خاطبني:

- لقد استنقذت منهم صندوق العجائب خاصتك، خذه وافتحه إذن!

وضعته على الأرض وفتحته بحرصٍ وتأنٍ شديدين. سحرني المنظر: ورد مبهج قُطف حديثاً يشكّل أرضيّته التي وضعت فوقها حليّ ومشغولات ثمينة ترصعها أحجار كريمة لم أكنْ شاهدت نظيراً لها من

قبل. رفعت رأسي لأقول لوالديّ: «انظرا إلى كنزي!»

نظرا معاً إلى محتوى الصندوق ثمّ قالت والدتي:

- الحليّ الجميلة تجلب النحس على مَنْ يملكها!

شعرت بالبرد وأغلقت الصندوق باكياً.

- سيدي محمد! سيدي محمد لماذا تبكي؟ استيقظ من النوم! استيقظ!

كان ضوء النهار يغمر الغرفة وأصوات دِلاء الماء التي تحرِّكها النسوة في فناء الدار تصلنا بوضوح، بينما يد والدي تتحسس جبهتي، ثمّ فتحت عينيّ وسمعت والدي يعلن:

- لا ليس عنده حمّى، يشكو فقط من كوابيس.

ردَّت والدتي وهي جالسة في سريرها:

- إنه مريض بعد كلّ انفعالات الأمس وما شاهده في سوق المجوهرات، لأنك أصررت عليه أن يرافقنا. لذا لا تستغرب أن يمرض من هول ما رأى!

- الولد لا يشكو من شيء، ربَّما من بعض التعب فقط. لن يذهب إلى المدرسة إذن!

- يا إلهي عاقبني فأنا السبب في كلّ ما حصل! أنا المذنبة فلا تبتلني في ولدي الصغير! يا رجل، أقول لك مجددا إنني ما عدت أرغب في الاحتفاظ بهذه الدمالج، ستدخل النحس إلى منزلنا!

اتجه والدي صوب باب الغرفة وشرع في ارتداء خفّيه:

- سأخرج، أشعر أنني سأفقد صبري إنْ بقيت هنا!

- اذهب فأنت رجل، ومن الطبيعي أن يكون لك قلبٌ من الحجر!

فكرت أنه ما كان على أمّي أن تقول لأبي مثل هذا الكلام. فليس من

الطبيعي أن يكون لرجل قلبٌ من الحجر. سأصبح بدوري رجلاً يوماً ما، ولن يكون لي قلبٌ من حجر. والدي يتصرَّف مع الأحداث كما يجب أن يتصَّرف الإنسان الرزين المحافظ على هدوئه وتبصره، بينما كانت والدتي ترغب أن يتصَّرف مثلها، أن يتوتر ويقلق ويشرع في الصياح من أيّ عارضٍ بسيط.

وفعلاً كان والدي على صواب، فلم يكنْ بي مرض ولا غيره. ومع ذلك ألزمتني والدتي البقاء ممدَّداً في فراشي طيلة اليوم. وبعد الانتهاء من طعام الغداء، جاءت لالة عائشة لزيارتنا بعد طول غياب لم نسمع خلاله شيئاً من أخبارها ولا من أخبار زوجها سيدي العربي صانع الخفاف. حضَّرت والدتي الشاي قبل أن تشرع في سرد ما حصل لها من مشاكل في الفترة الأخيرة. سردت على أسماعها بالتفصيل الممل حادثة سوق المجوهرات والعِراك الذي شاب عملية اقتناء الدمالج، متوقفة بين الفينة والأخرى لذرف الدموع والزفرات والدعوات والتضرُّعات، مجددة نبوءتها السابقة حول كون الدمالج المنحوسة نذير شؤم سيتسبَّب لا محالة في الإضرار بأسرتنا!

في هذه الأثناء كانت لالة عائشة تساير، من باب المجاملة، كلّ ما تنطق به والدتي، تتأوَّه وتزفر وتلطم بدورها وجنتيها.

وأخيراً انتبهت والدتي إلى الوضع فسألت صديقتها:

- *وكيف أحوالك أنت؟ كيف أحوال منزلك وزوجك؟*

لم تحر لالة عائشة جواباً. خبأت وجهها بين راحتي كفيها وشرعت في بكاءٍ مرّ. سالت الدموع بين أصابعها بغزارة واستمرَّت في النشيج إلى أن رأَيت جسدها يعتصر ويهتز من فورة التحسُّر والألم الذي كان يخنق صوتها الخافت. عانقتها والدتي وشاركتها في بكائها. توقَّفت لالة عائشة أخيراً عن البكاء فبدت على وجنتيها آثار الحُمرة، وعلى أنفها بقايا دموعها:

- *لم يبَق لي حبيب ولا قريب في هذه الدنيا يا زبيدة. أنت صديقتي*

الوحيدة وكلّ ما تبقّى من أسرتي. أمّا ابن الحرام الذي ضيّعت كلّ ثروتي من أجل مساعدته فقد هجرني واتخذ عليَّ زوجة ثانية: ابنة عبد الرحمن الحلّاق!

- الله! الله! يا أختي، ما أفظع هذا الخبر!

وعادت المرأتان لأحضان بعضها وللبكاء من جديد.

تضافرت حرارة الجو ولزوم السرير والمشاهد المؤلمة التي حضرتها دون أن أفهم كلّ معانيها لتجعلني مريضاً فعلاً. أصابني صداعٌ مؤلم وحمّى اعتصرت كلّ جسدي، تقيأت على غطائي. جاءت والدتي مسرعة باتّجاهي وشرعت فجأة في الصياح:

- ولدي يموت! ولدي يموت! تعالين يا صديقاتي! يا أخواتي لنحاول إنقاذ الولد!

دلفت الجارات الغرفة تباعاً فأغمضت عينيّ ولم أعد أسمع سوى صوتٍ رهيب لطبول تُقرع حتى تكاد تثقب الآذان.

الفصل التاسع

لم يـأكل شـيئاً منـذ غـداء أمـس. أيقظتنـي هـذه الجملـة التـي نطقتهـا أمّـي بنـبرة متألِّمـة. كانت العتمـة الكثيفة قد خيمت على المـكان، ووالدتي تهمـس باتجـاه قامـة واقفة في الغرفـة لم أتبيَّن ملامح وجهها، ولم أسـمع منهـا إلّا همهمـة غـير واضحة بين الفينة والأخرى، كلـمات غير ذات معنى. غـادرت المرأتـان الحجـرة. حاولـت الحركـة فلـم أسـتطع، كان صـوت قـرع الطبـول الـذي يعتمـل داخـل جمجمتـي يتعـالى مـن جديـد، ويختلـط مـع مشـاهد رمـاد وغبـار أحمـر يُحيـط وجهي بغيمـة مـن الـشرارات الملتمعة. تحـوَّل المنظـر المحيـط بي إلى مشـهد خيـالي. انتـشر الألم الصامـت في عظامـي الفتيّـة فتصاعـدت زفراتي.

عـادت والـدتي، اقتربـت منـي وظلّـت تراقبنـي في صمـتٍ لعِـدّة دقائـق إلى درجـة خلتهـا توقَّفـت عـن التنفس، تحوَّلـت إلى مجـرَّد كتلـة سـوداء مـن ريـش توقَّعـت أن يتبـدَّد ويتنـاثـر في الهـواء، كـما يحـدث عـادةً مـع شـخصيات الكوابيـس التـي تـزورني في ظلمـة الليـل عندمـا أُعـاني الأرق.

تنهَّدت وعادت إلى الوراء فقلت لها:

- أنا مستيقظ، غير أنني أشعر بالألم!

- حالتك تتحسن، بما أنك تستطيع أن توجِّه لي الكلام.

- لماذا يوجد ظلام في الغرفة؟

- لأن ظلام الليل نزل ولم أشعل اللمبة كي لا أُزعج نومك. عانيت من الحمَّى ليلة أمس وصباح اليوم. ولم أتوقَّف أنا عن البكاء، ولكن دموعي لم تنفعك بشيء!

- أشعر بالجوع!

- هذا خبرٌ رائع! سأحضر لك طبق حساء!

غادرتني وعادت بعد هنيهة. ظلّ طبق الحساء في حضني كما هو، كانت رائحة الطعام تشعرني بالغثيان. ألحّت عليَّ والدتي في تذوُّقه وأسندت ظهري إلى مخداتٍ لإجلاسي. دارت حول رأسي جدران الغرفة، وسبحت في فضاء خاضع لقانون حركة الكواكب والنيازك. استطاعت والدتي بالكاد التقاط طبق الحساء قبل أن ينقلب على الأغطية، ثمّ مدَّدتني في فراشي. كانت أصوات قرع الطبول الرهيبة تتصاعد وتشتد داخل رأسي الصغير.

شيئاً فشيئاً توقَّف الدوار الذي يغلِّف أحاسيسي. كانت والدتي جالسة بجوار فراشي على مرتبة أقلّ ارتفاعاً. سمعت زوجة صانع المحاريث تخاطبها:

- لالة زبيدة! كيف حال سيدي محمد؟ لا شكّ أنه يعاني من نزلة برد. غطّيه جيّداً، وأشربيه شاياً ساخناً بالنعناع.

سمعت صوت فاطمة البزيوية:

- لا شّك أنه تعرَّض لضربة شمس. يجب أن تحيطي رأسه بقشور الليمون وأوراق النعناع.

- *ربَّما معكن الحقّ يا أخواتي، لكن إذا لم يشأ الله أن يشفي ولدي فلا شيء سينفع! سأجرِّب كلّ الأدوية المتوفِّرة لعلاجه.*

أعلن والدي مقدمه قبل ولوج باب الدار. عاد باكراً على غير عادته هذه المرة. بينما كان يصعد درجات السُلَّم، أشعلت والدتي اللمبة فعمّ المكان ضوؤها الأصفر. دخل والدي الغرفة وانحنى فوق فراشي. بدت لي عيناه غائرتين من أثر الإرهاق والتوتر الباديين على وجهه الذي شابته الصفرة، لامس جبهتي بيده وهزَّ رأسه، ثمّ استدار دون أن ينبس ببنت شفة.

وضعت والدتي بعض الطعام على الطاولة الواطئة وتعشيا معاً. ربَّما كان هذا أتعس عشاء تعشياه في كلّ حياتهما.

من فوق سريري كنت ألمح الطبق الفخاري المُنمَّق فوق المائدة دون أن أتمكَّن من تحديد نوع الطعام. خمَّنت من الرائحة أنه يتضمَّن مرقاً بالزعفران وخضاراً ولحمة. كانت رائحة الزعفران تثير فيَّ إحساساً جارفاً بالغثيان. كان الوالد والوالدة جالسين صامتين غارقين في أفكارهما، ولم يمد أيٌّ منهما يده إلى الطبق.

فجأة ولج المكان قط زينب، اقترب من الطبق ومن الشخصين الجامدين حوله وماء مُعبِّراً عن تعجُّبه. ماء بخجلٍ واستجداء وأدخل ذيله بين رجليه ورأسه بين كتفيه. ضاع صوت موائه في عتمة الغرفة كما لو كان يسقط في حزمة كاتمة من القطن، فتح عينيه وأسدل أذنيه خلفاً، ثمّ ماء بقوة وجرى خارجاً لا يلوي على شيء.

لم يحرِّك والداي ساكناً ولا نطقا بشيء. كانت أجواء مشابهة لأجواء نهاية العالم تسيطر على نفسيهما الحزينتين القلقتين. شرعت في البكاء فسألني والدي:

- *أين تحس بآلام يا ولدي؟*

- *لا أشعر بأيّة آلام، لكن لماذا لا تتحدَّثان؟*

- *لا يوجد لدينا شيء لنقوله، توقَّف عن البكاء!*

أفاقت والدتي فجأة من سكونها وحملت طبق الطعام إلى المطبخ، ثمّ عادت بصينية الشاي فوجدت والدي واقفاً يتهيأ للنوم.

- *ألن تشرب شايك؟*

- *لا، ومن الآن فصاعداً لا تبالغي في تبذير السكر!*

- *وهل كنت يوماً امرأة مُبذِّرة؟*

- *لا أقصد قول ذلك! ولكن ابتداءً من الغد سيصعب علينا تدبُّر مصاريف الشاي والسكر اليوميين!*

فتّحت عينيّ حتى لا أغفل أياً من تفاصيل المشهد. شحب فجأة لون والدتي. توقَّفت مصعوقة ووضعت صينية الشاي أرضاً. نظرت صوب والدي وسألته بصوتٍ منكسر:

- *أشعر أن مكروهاً كبيراً قد حلَّ بنا...*

ظلَّ والدي واقفاً مطأطأ الرأس مسبلاً عينيه نحو الأرض. صدر فجأة عني صوت التواء عضلي حاد ومؤلم دفعني للقفز من فراشي والصراخ. بدأت والدتي تلطم خديها، ثمّ جلست على الأرض باكية. سارع والدي لإمساك يديها قصد منعها من ندب وجنتيها، وخاطبها بلطفٍ وهدوء:

ألا تخافين من سخط الله يا امرأة؟ ضعي ثقتك في الخالق فلن يغفل عنّا وسيتداركنا برحمته. ما يحدث لنا يحدث مع آلاف المسلمين كلّ يوم. هذا، ولا شكّ، ابتلاءٌ من الله: فقدت في غمرة زحام مزاد ثوب الحايك كلّ رأسمالي الضئيل! وضعت النقود في منديل ويبدو أنها سقطت مني بينما كنت أحاول أن أدخلها في جرابي.

رفعت والدتي رأسها، لم تنبس ببنت شفة، بينما واصل والدي بصوت خافت:

- *لماذا تنوحين؟ علينا أن نحمد الله في السَّراء والضَّراء!*

خرجت والدتي أخيراً من صمتها:

- وماذا سنفعل الآن؟

- سأحاول العثور على شغل!

- كم فقدت من مال؟

- كل رأس المال! لم يتبَق لي حتى ما يلزم لأداء أجرة العامل الذي يساعدني، ولا واجب كراء المشغل! كنت أعتزم أداء كلّ هذه المصاريف وشراء القطن من المبلغ الذي ضاع!

- ألا يمكن للتجار أن يقرضوك؟ أنت معروف بنزاهتك!

- لن أنحدر إلى درجة التسوُّل والاقتراض من أولئك اللصوص! كما لا أرغب في العمل لفائدة آخرين. أنا فلاح جبلي! موسم الحصاد على الأبواب وهم يوظفون حصّادين. وسوف أشتغل بالحصاد في ريف فاس.

- هل تجرؤ على مغادرتنا وطفلك مريض؟

- وهل تريدين أن أترككما تتضوران جوعاً؟ أن تصبحي مثار شفقة جاراتك ومعارفك؟ سأكون على بعد مسيرة يومين فقط من فاس. سيكون سيدي محمد بخير صباح غد. فقط أعدي له حساءً من النعناع البري. وغطيه جيّداً كي يتعرَّق ويُشفى. درجة حرارته المرتفعة نقصت اليوم عن الليلة الماضية.

- هذا عقاب من الله أصابنا. أظنّه من هذه الدمالج الملعونة التي أدخلت النحس إلى دارنا. لماذا لا تبيعها؟

- أنوي فعلاً بيعها! سأترك لكم الثمن المتحصل منها لتصرفوا منه خلال فترة غيابي. لقد ظلّ عاملي إدريس الأقرع وفيّاً لنا. سيزوركم يومياً. أعطيه النقود كي يشتري حاجياتكم من السوق، وامنحيه ما يحتاج من طعام! فهو يتيم بلا أسرة ولا أقارب له في فاس!

ثمّ أضاف والدي وقد غلب عليه التأمُّل:

- سأترككم وحدكم لمدّة شهر. سأحاول أن لا أصرف شيئاً من الراتب. وهكذا سيكون بمقدوري تجهيز مشغلي من جديد بمجرَّد عودتي إلى الديار.

ثمّ ران على المكان صمتٌ ثقيل خانق أسود مثل السخام. شعرت بالاختناق. وددت لو أن جارة من الجارات كسرت الصمت بصيحة فرح أو ألم، أن يحدث شيءٌ خارق ما حتى يتكسر الصمت. حاولت الحديث، النطق بشيء ما فلم يصدر عني إلّا آهة مكتومة لم تتجاوز شفتيّ.

تجمَّدت حركة والديّ اللذين تحوَّلا إلى شخصيات تنتمي لعالم الكوابيس. فتّحت عينيّ أكثر لأستبين ملامحهما فلاحظت أنهما تزدادان غموضاً وتكتسيان سواداً دامساً. شعرت للمرّة الأولى في حياتي بالخواء المطلق يغلِّف ذاتي وبالعزلة القاصمة تهوي على كلّ كياني الصغير. امتلأ قلبي بالحزن الثقيل، وجثمت كرة خانقة على رئتيّ. أغلقت عيني وصلّيت بعمق. شعرت أنني أصبحت على بوابة الجحيم.. يا إلهي، لم أنسَ يوماً هذه اللحظات! لم أنسَ هذا الإحساس بالعزلة الطاغية التي تشبه في امتدادها صحارى الكواكب غير المأهولة، التي يتبخَّر فيها الصدى دون أن يجد له رجعاً ولا أثراً، وتمتد الظلال نحو أغوار القلق والموت. والقلب الذي ينزف ألماً دافقاً، ألم جسدي الذي سحقه انقضاض النحس على منزلنا الصغير. يا إلهي! لم أكنْ لحظتها إلّا مجرَّد طفل صغير لا يعرف أن النهار يُولد من الليل، أن الأرض تهتز وتربو بعد نوم الشتاء، توقظها أشعة الشمس الدافئة فتزهر فيها الورود والحشرات وتغرِّد فوقها الشحارير.

غادرنا والدي فجر غدٍ دون حقيبة سفر، لم يحمل إلّا جراب راعٍ من الدوم اشتراه أمس ومنجلاً جديداً وجراباً آخر من ثوبٍ قطنيٍ مغلق بإحكام خاطته والدتي وشحنت فيه أغذية: زيتون، وتين جاف، وطحينة مُحلّاة بالسكر، وخبز معطر بالينسون وماء الورد، وحبات السمسم.

كنت مستيقظاً لحظة غادر والدي. زوَّدته الوالدة بنصائح وأغرقت وجهها بين راحتي كفيها بعد خروجه من الدار. ظلّت عاكفة فوق سريرها على الوضع نفسه. داخلني الإحساس بأنه قد تمّ التَّخلِّي عنّا، بأننا صرنا أيتاماً.

علم جميع سكّان الحارة لاحقاً بالمشاكل المادية التي نعاني منها وبمغادرة والدي، فأصبحوا ينظرون إلينا بشفقةٍ مغلَّفة كان وقعها علينا أشدّ من الاحتقار الصريح. تركنا الوالد دون سندٍ ولا دفاع، فقد كان وجود الأب ودوره في أسرة مثل أسرتنا يوفِّر حماية خفية لها. لم يكنْ من الضروري أن يملك مالاً ولا ثروة، فمجرَّد وجوده يمنح الأسرة توازناً واحتراماً وثقةً في النفس لا غُبار عليها.

لا يعود والدي للدار إلّا مساء، لكن أنشطة اليوم كلّه كانت مخصَّصة للاستعداد للحظة عودته. لذا فهمت ما الذي يعذِّب أمّي في ذلك الصباح الباكر والبارد، كانت تعرف أن مجمل أنشطة نهارها قد صارت بلا هدف. لن يدفع زوجها باب الغرفة في المساء حاملاً رائحة العمل والعالم الخارجي الحافل الذي لم يربطنا به إلّا هذا الأب.

بالنسبة لي ولأمّي، جسَّد والدي القوة والأمان. لم يسبق له مغادرة المنزل من قبل، لذا بدت لنا الظروف التي اضطرتنا لفراقه بالغة القبح والقسوة.

استيقظت الدار شيئاً فشيئاً، حيّت الشمس واسترجعت ضجتها وأصواتها المعتادة. شعرت بتحسُّن ملموس في صحتي هذا الصباح فجلست فوق سريري. أحسست أن رأسي استعاد خفّته المعتادة، وأن الحمَّى ما عادت تعتصر أطرافي.

- *أمّي، هل يدوم الشهر الواحد طويلاً؟*

أفاقت والدتي من غفوتها. حرَّكت وجهها يمنةً ويسرة كأنها تتحرى المكان، حيث توجد، ثمّ نظرت إليَّ بنظرة متعجِّبة وسألتني:

- *هل قلت شيئاً يا سيدي محمد؟*

- نعم أريد أن أعرف إذا كان الشهر مدّة طويلة؟

- الشهر يدوم شهراً، لكن بالنسبة لنا سيكون الشهر القادم طويلاً جدّاً!

- لا أطيق الانتظار، أنت لا تطيقين الانتظار. أو ربَّما أنك تعلِّمت الانتظار في الماضي، ثم نسيته!

بهتت والدتي من هذه الفكرة فسألتني:

- وماذا تنتظر؟

- أنتظر أن أصبح رجلاً، بينما لا تنتظرين أنت شيئاً، لأنك امرأة كبيرة!

سكتت لهنيهة قبل أن أضيف:

- عندما كنت طفلة صغيرة لم يسمحوا لك بفعل ما تريدين. توجَّب عليك أن تكبري وتصبحي امرأة لتحقيق أحلامك ومشاريعك: شراء الملابس التي تريدين، الخروج للنزهة مع لالة عائشة، طبخ الأطباق التي يعجبك تناولها. أمّا أنا فيتوجَّب علَّي أكل ما تريدين، لا يمكنني الخروج وحدي، وألبس دائماً أقمصة أكبر مني!

سيطر التعجُّب على ملامح والدتي فلم تحر جواباً، بل اكتفت بنظرة متفحصة.

- عندما أصبح رجلاً سألبس جلابيب بيضاء تنظَّف كلّ يوم، سأفطر يومياً، بنصف كيلوغرام من الفطائر المقلية المدهونة بالزبد والعسل، على الأقّل. سأمتلك أربعين قطاً مطيعاً لا توسخ أركان الدار بفضلاتها. كما أننا سنسكن منزلاً آخر فسيحاً تتوسَّط ساحته شجرة لارنج كبيرة.

أضاءت ابتسامة وجه والدتي فعلَّقت:

- لن تقبل زوجتك أبداً رعاية قطيع القطط الذي تنوي تربيته!

- لن أتخذ زوجة، أنت تحبين القطط وستقومين برعايتها!

لم تتمالـك والـدتي نفسـها فغلبها الضحـك. عادت البهجـة إلى وجهها فشـعرت للتـو واللحظـة بتحسُّـن صحتي وبـدأت أُصفق بيدي مـن الفرح.

- *ماذا سيقول عنك الجيران إذا سمعوك تضحك في يوم سفر أبيك؟*

- *سيعود والدي قريباً ونصبح أغنياء من جديد!*

- *لكننا لم نكنْ أغنياء في يومٍ من الأيام!*

- *نحـن أغنيـاء! ألا نتنـاول طعاماً كافياً؟ أليسـت غرفتنـا هي الأجمل في الدار؟*

- *ارتـح يـا ولـدي، مـا دمـت عـلى قيـد الحيـاة لـن تجـوع أبـداً، حتـى لـو اضطـررت للتسـوُّل مـن أجلـك!*

سـمعنا صـوت قـرع خفيـف عـلى بـاب الغرفـة. نهضـت والـدتي للقـاء الطـارق. سـمعت همسـها وحديثها الخافـت لدقائق طويلة مـع زائرتها قبل أن تدعوهـا للدخـول بصـوتٍ ملحّ.

ادخـلي يـا فاطمـة وأعطيـه ذلـك مـن يديـك. سـيرفض أن يتسـلَّمه مني! تعلمـين كـم هـو عنيد!

دخلـت فاطمـة البزيويـة وهي تحمـل في يدها طبقاً يتصاعـد منه البخار السـاخن. اقتربت مني وسألتني:

- *كيف هو حال فقيهنا اليوم؟*

لم أردّ عـلى سؤالها. لم أرغـب فيٍ فتـح أي حـوار مـع هـذه المـرأة التـي ترغـب في خداعـي لتشربنـي محلـولاً كريهـاً.

- *هيأت من أجلك حساء «تادفّي»، ألا ترغب في تذوُّقه؟*

- *كنـت أحـب تنـاول «تـادفّي» عادةً، هذا الحسـاء الذي يطبـخ من أوراق النعنـاع الـبري. غـير أننـي امتنعـت هـذه المـرة وأشـحت بوجهـي صـوب الجـدار المقابـل، مـما دفـع والـدتي للتدخـل لمسـاعدة جارتهـا.*

- اشرب الحساء، أنا واثقة من أنه سيعجبك، وإنْ فعلت سوف أرسل زينب بعد قليل لتشتري لك حبة سفنج[1]!

واصلت المرأتان محاولات إقناعي إلى أن جلست فوق سريري وتناولت الطبق وقلت لهما إنني لا أحب الطعام الحريف.

أكَّدت لي والدتي أن الحساء لا يحوي أي ذرَّة من الأبزار أو الفلفل. نظرت إليها في عينيها وسألتها كيف عرفت ذلك وهي لم تعد الحساء! اضطربت وتلجلجت، بحثت عن كلمات وعبارات فلم تسعفها بديهتها، وعندما أحست بالحرج غادرت إلى المطبخ. تدخلت فاطمة البزيوية:

- أؤكِّد لك أنني لم أستعمل أيّة توابل في إعداد هذا الحساء.

أعدت لها الطبق.

- الجميع يعلم أن «تادفّي» لا يُؤكل إلّا بالتوابل، تريدين أن تستغلي مرضي وتجعليني آكل طبقاً من الدقيق المصبوغ؟

فقدت فاطمة صبرها.

- أقول لك إنه جيّد المذاق، تذوُّقه أوَّلاً قبل أن تقول خزعبلات! تذوَّق!

واصلت الرفض فصارت فاطمة أكثر ليونة. أطلقت عليَّ ألقاباً مداهنة: حلوى محمّضة، شعيرية بالحليب، جبن أبيض صافي. لم أستطع الصمود أكثر في وجه هذه المداعبات والألقاب اللطيفة فتناولت الطبق وشربت الحساء الجيّد في جرعات سريعة.

طلبت بعدها من والدتي أن تهتم بنظافتي. استبدلت قميصي ولبست جلباباً. أحسست بأنني تعافيت، لكن ليس بما يكفي للعودة إلى الكُتَّاب. سأستمتع بعطلة إضافية لبضعة أيامٍ أخرى. أبصرتني رحمة من النافذة فحيَّتني بحرارة.

---

(1) فطيرة مقلية في الزيت على شكل حلقة. [المترجم]

- الحمد لله على شفائك سيدي محمد! قلقنا عليك كثيراً في الأيّام الماضية! عِدنا أن لا تسقط مريضاً مرّةً أخرى! فحالتك أفقدتني شهية الطعام، أقسم على ذلك بالله وبأوليائه الصالحين!

ردَّت والدتي من مطبخها:

- ليمتعك الله مع عائلتك بالصِّحة والعافية!

اتكأت رحمة على نافذتها تريد مواصلة الحوار:

- آمين يا أختي زبيدة! هل غادر سيدي عبد السلام هذا الصباح؟ سمعته ينزل درجات السُلَّم فجراً.

- نعم، غادر.

- أعاده الله إليكم سالماً غانماً!

ثمّ توجَّهت رحمة إلى باقي ساكنات الدار:

- صارت الحياة صعبة بالنسبة للفقراء مثلنا، لكن علينا أن نشكر الله في السراء والضراء!

لم تتلَق جواباً إلّا صوت أحدهم يعطس في الفناء. عطس لثلاث مرَّات متوالية، ثمّ مسح أنفه بصوتٍ مسموع. ذكرني الصوت القوي الصادر من أرنبتيّ أنفه بصوت نفير بوق رمضان الذي يعلم الناس بلحظة الإمساك عن الطعام. أضحكني ذلك.

أمسكت بي والدتي من كتفي، أعادتني إلى سريري وأمرتني بالتمدُّد. لم أكُن بحالة صحية تسمح لي بالمعاندة. أمرتني بلزوم السرير واستظهار بعض من سور القرآن حتى لا أنسى ما حفظت منها، وحتى تحل البركة علًى الدار وعلى والدي الذي غادر نحو المجهول.

جلست على المرتبة منزعجاً. لم أكنْ راغباً في استظهار الآيات ولا في بذل أي جهدٍ يُذكر. اكتفيت بالإصغاء للثرثرات المعتادة بين النساء دون اهتمام ولا تركيز. رغم الجو المشرق وأشعة الشمس الساطعة، بدا لي

العالم المحيط بي مظلماً كئيباً. أحسست بالغثيان من منظر الحيطان المتسخة المقابلة لنافذة غرفتنا. وأخيراً أحضرت والدتي طعام الغداء: حلقتان من السفنج لي وحدي، سمن مملح، وزيتون أسود، وقبضة فجل هدية من جارتنا البزيوية، أو بالأحرى من زوجها البستاني.

بدأت بتناول السفنج فشعرت بأنه عديم الذوق في فمي. مضغته طويلاً قبل أن أبتلعه بغير متعة. بعد رفع المائدة، وضعت والدتي على الطاولة إبريق شاي متهالكاً لم تكنْ معتادة على استعماله وكأسين دون صينية ولا سخان ماء كما تعوَّدنا على ذلك خلال حصة تناول الشاي. وحدها الأسر الفقيرة كانت تُعِدّ الشاي بهذه الطريقة.

أمام دهشتي أعلنت والدتي أنها لن تواصل تضييع الوقت في غسل الصينية والسخان وإبريق التنك والكؤوس في كلّ مرة. لكن فيم تعتزم إذن قضاء وقتها؟ لم أتخيَّل لها انشغالات أخرى غير ما دأبت عليه.

بعد الغداء لبست والدتي حايكها وأوصتني بعدم إحداث فوضى خلال غيابها. ذهبت لتفقُّد أحوال صديقتها لالة عائشة، فقد كان لدى المرأتين الكثير مما يمكن أن يُقال.

أتذكر إلى حدود اليوم تلك الساعات الكئيبة التي قضيتها بانتظار والدتي دون أن أجرؤ على الإطلال من نافذة الغرفة. كنت أرغب في اللعب على درجات السُلَّم وفوق السطوح المشمسة. ألقيت نظرة على صندوق عجائبي. لم يعد صندوقاً للعجائب، بل أصبح تابوتاً يضم جثث أحلامي. كتمت رغبتي في البكاء لأنني لم أرغب في أن تشاهدني الجارات في مثل هذه الحال. مسحت أنفي بقطعة قماش بالية وتمدَّدت على الأرض ناظراً لسقف الغرفة ولثنايا عوارضها الملوَّنة بما يطبع الخشب الطبيعي عادةً من أشكالٍ وبقع. كنت أتخيلها في الماضي متحرِّكة تتراقص من أجلي فأقضي الساعات الطوال متتبعاً رقصها، غير أنها أصبحت الآن مجرَّد بقعٍ جامدة تُثير فيَّ الإحساس بالغثيان.

تصاعدت دقات قلبي نابضةً بإيقاعات الخوف والقلق والغضب.

ترسَّخ فيه إحساس عارم بالخوف رغم أن أجواء الدار صارت عامرة بجلبة الأحاديث واحتكاك مكانس الدوم بالأرضيات. غرقت في النوم بعدما بكيت طويلاً. لم أستيقظ إلّا بعد عودة أمّي. عادت الحمَّى لزيارتي. وعندما لاحظت والدتي ارتفاع حرارتي من جديد، شرعت بدورها في البكاء وهدهدتي بترديد أغانٍ خافتة حزينة.

لم تُعِدّ طعام العشاء. نامت باكراً فيما بقيت أتقلَّب في فراشي يمنةً ويسرةً. ثمّ دوت في الغرفة أصداء قوية لعاصفة تهب على مدينتنا. ارتجّت الباب والنوافذ من أثر الريح والرعد. تصاعد صوت العاصفة القوية، ثمّ انطلق من بين زئيرها فجأة صوت مزمار صغير. كان صوتاً رقيقاً يختلف عن صوت المزامير المألوفة عندنا في ذلك الزمان، المصنوعة من قصبة تضم سبعة ثقوب نعزف عليها لترقص الأشباح تحت ضوء النجوم، بل كان، ولا شكّ، صوتاً صادراً عن مزمار سحري صنعه عفريت من الجن أصابه المس، صوت يعبر تارةً بألحانٍ مؤثرة لذيذة شيطانية متألمة، ويزرع في السامع إحساساً عارماً بالحنين تارةً أخرى. كان عزفاً يتضمَّن نداءً ولوماً ورجاءً، وضحكات ضباع وصرخات ألم طويلة وكلمات حبّ وجملاً تنم عن غضبٍ شديد.

ضحكت موجات الريح لدى تدفُّقها من ثقوب الأبواب والنوافذ بغضبٍ وعنف. لاتقاء شر هذه القوى الغامضة، قرأت ثلاث مرَّات سورة «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» مرتعداً من الخوف، ثمّ دفنت وجهي في المخدة، وغرقت في النوم.

تداول حياتي تياران متوازيان متناقضان. كنت أخضع خلال ساعات النهار لإيقاع التزامات وإكراهات لا أفهم مغزاها، فيما كان الليل فرصة للدخول إلى عالم الأشباح والمخلوقات الخيالية. أغرق آنذاك في عوالمها وأشاهد فواكهها الخيالية التي لا يتيسر ليدي الصغيرة قطافها. كانت حياة مزدوجة تتخلَّلها الأحلام والأوهام والعثرات والفخاخ والمقالب، غير أنني تعوَّدت على وتيرتها. لم أتحكَّم في مصيري، بل درجت على تقبُّل ما يقرِّره لي المحيط. كانت كلّ خطوة على دروب

الوقت تتضمَّن قدراً من الأسرار ما كان يتيسر لي أن أفهمه. كانت اللحظات تتوالى وتحمل في ثناياها قدراً معلوماً من الفرح والابتهاج لا بأس به، إلّا أنه كان عابراً سرعان ما يفضي إلى ما يناقضه من مشاعر الضيق والحزن والقنوط الجارح. فقد كانت أحوالي متقلِّبة تتفاوت حسب مزاج المحيطين بي من الأشخاص الكبار، فيما كان الليل ملكاً خالصاً لي قد أستمتع فيه أحياناً بأحلامي وأوهامي، أو أعارك فيه أحياناً أخرى الكوابيس والعفاريت، مثل روحٍ مُعذَّبة منذ الأزل.

ولعلّ ذلك ما أعطاني رغبةً في المغامرة والتجربة: تجربة الموت. فقد كنت أدخل عالم الموتى والأشباح مع غروب الشمس وأعيش في عالم الغيب، قبل أن أُبعث من جديد إلى عالم الشهادة صبيحة اليوم الموالي حين أبصر أشعة الشمس وأسمع زقزقة العصافير، وآكل خبز القمح الشهي وأشرب من ماء البئر القريبة. وكان خبز الطفولة وماؤها على درجة من اللذة لا توصف، كنت أسعد بمجرَّد وجودهما على مقربة وتحت المتناول، بيد أني كنت أغرق أحياناً في أجواءٍ من الحزن الكثيف والعزلة المقنطة تجعل طعم نفس الخبز مرّاً أشدّ المرارة، يابساً أشدّ اليباس، وبارداً جارحاً لحنجرتي الصغيرة الهشة التكوين.

فضَّلت بالطبع النهار على الليل. فالنهارات تتوالى وفق نسق مُعيَّن يطبعه في الظاهر الضبط والتنظيم، بينما كانت الليالي تعج بالمخلوقات الأسطورية والأماكن والأحداث التي لا يربطها رابط ولا ينظم تسلسلها منطق صريح. كان والداي وأصدقائي في الكُتَّاب والفقيه ذو العصا الطويلة يسكنون بالطبع عالم النهار المُضاء بضوء الشمس، غير أنني لقيت بعضهم أحياناً في أحلام الليل وعوالمه المعتمة وبلدانه السحرية الخطيرة المتعرِّجة الدروب والمسالك. لم تكُن علاقاتي بهم في أحلام الليل شبيهةً بحالتها خلال ساعات النهار. حاولت تجنُّب صحبتهم مِراراً، سواء في عالم الليل أو النهار، غير أنني فشلت في الفِرار منهم. وكنت ألقى منهم معاملةً حسنةً أحياناً وسيئةً أحياناً أخرى، حسب ما يفرض عليهم مزاجهم المتقلِّب. ما كان بوسعي أن أتقي أذاهم لأنني لم

أكنْ إلّا طفلاً صغيراً قليل الحيلة مجبراً على ملازمة فراشه منكمشاً على نفسه، في حين كان الرجال قد مضوا إلى أعمالهم والنساء قد اغتسلن وباشرن أشغال البيت.

أيقظتني والدتي:

- سيدي محمد، تنام في وضعية غير مناسبة، استيقظ قبل أن تُصاب بالتواء في الرقبة!

فتحت عينيّ بصعوبةٍ بالغة، كان ضوء الشمس يعمر المكان.

- انهض وتوضأ، بينما سأقلي لك بيضة لتتناول فطورك!

- أحب البيض المقلي في الزيت مع الفلفل الأحمر والبقدونس!

- أعرف ذلك، سأضع لك الفلفل الأحمر والبقدونس، وحتى الكمون في البيضة!

لم تفلت هذه الجملة من مسامع رحمة التي صرخت عبر نافذة غرفتها:

- نُسمِّي هذه الأكلة الأومليت اليهودية، إنها لذيذة جدّاً!

ردَّت عليها والدتي:

- سيدي محمد ما زال مريضاً ولديه رغبات تشبه وحم المرأة الحامل!

شاركت كلّ الجارات في النقاش. ضحكت بعضهن وتمنت أخريات لي الشفاء العاجل. وقصت الخالة كنزة العرَّافة على مسامعنا حكاية عجيبة. ذلك أن امرأة حاملاً مرَّت بالقرب من دكان بائع جبن أبيض واشتهت قطعة صغيرة منه. طلبتها من الجبَّان البخيل فرفض. بعد مدّة وضعت حملها، برز على بطن الطفل وشم أبيض يشبه كثيراً قطعة الجبن. وشاهدت الخالة كنزة الوشم على بطن الرضيع بأم عينيها.

علَّقت إحدى الجارات ساخرة:

- من حسن حظّه أن الوشم لم يظهر على وجهه أو فوق جبهته.

نادى إدريس الأقرع من باب الدار. طلبت منه والدتي أن ينتظر قليلاً. ذهبت إلى مطبخها لتعد له طعاماً: دهنت قطعة خبز كبيرة بالسمن البلدي ولفّت زيتوناً أسود في قطعة ورق ونزلت للقائه. قبل صعودها درجات السُلَّم استلفت سطلاً من الخالة كنزة ملأته من البئر، حملته بمشقة إلى باب غرفتنا، حيث صبَّته في الجرَّة الخزفية الكبيرة الموضوعة بالمدخل التي تعوّدنا أن نخصِّصها لماء الشرب، ثمّ خاطبتني:

- استعد للخروج، سنذهب اليوم للنزهة رفقة لالة عائشة التي تنتظرنا. سأرافقك إلى حيث تلتقي شخصاً لم تعرفه من قبل، ألست سعيداً بالخروج للنزهة؟ أعدك أن نذهب إلى مكانٍ بعيد...

تدثّرت بحايكها بينما كانت تحدِّثني. عدَّلت من وضعية لثامها ونفضت الغبار عن خفّيها.

- هل تعرف حارة الخلخالين؟ إنها حارة جميلة ذات دروب ضيِّقة ومنازل ملوَّنة السقوف، وهي تتضمَّن أيضاً شجرتي تين نابتتين في جدار. امسح أنفك! أين هو منديلك؟ امسح أنفك!

التفتت باحثاً عن منديلي، عثرت عليه تحت مخدة وقد صار منكمشاً مبللاً. فتحته باحثاً عن مساحة نظيفة كافية. مسحت أنفي بقوة إلى درجة أن المخاط سال على يدي. ألقيت المنديل جانباً ومسحت أصابعي في جلبابي.

تهيأنا لمغادرة الدار، وفي نفس اللحظة ظهرت فاطمة البزيوية التي سألت والدتي:

- إلى أين تتوجهان؟

- عند لالة عائشة التي دعتنا لتقضية العشية معها، فهي وحيدة كما تعلمين!

- وكيف هي أحوال زوجها سيدي العربي؟ ألم يطلّق بنت الحلّاق بعد؟

- لا، ولكنني أعلم أن أصهاره الجدد يذيقونه الحنظل، يتهمونه بالبخل في الإنفاق على ابنتهم، بأنه لا يقتني حتى كفايتها من الطعام! إنه يذوق عاقبة نكرانه لجميل لالة عائشة!

نزعت والدتي عن وجهها الخمار الذي كان يعيق حديثها إلى فاطمة. ما ألذّ أن يعرف المرء أكثر مما يعرف جيرانه حول ظروف الآخرين وأحوالهم! وكأنّ غرف الدار على رؤوسها الطير من كثرة انتباه الآذان إلى حديث أمّي التي نزعت خمارها وواصلت الكلام لتري الجارات مدى ثقة لالة عائشة فيها إلى درجة مقاسمتها أسرار بيتها! أوحت لهن في الأخير أن ما بجعبتها كثير لا ينتهي، غير أنها تتحفَّظ على إعلانه حفاظاً على التقاليد. وأخيراً غادرنا الدار. كنت أتقدَّم والدتي مفتتناً بتنوُّع السلع التي عرضها التُجَّار أمام أبواب حوانيتهم، وعندما وصلنا إلى ضريح سيدي أحمد التيجاني تقدَّمت والدتي نحو مكان وضع النذور. كان عبارة عن ثقبٍ مغطى بمشربية من البرونز جعل في حائط منمَّق بالزلّيج.

لم تلِق والدتي شيئاً داخل ثقب النذور، بل اكتفت بوضع يدها داخله وملامسة الإطار الخشبي المحيط به بوجهها وهي تتلو دعوات خافتة. لم تسمح لي قامتي الصغيرة بالوصول إلى الثقب، قبَّلت زلّيج الجدار بشفتيّ. وظهرت على وجه أمّي علامات الرضا إزاء تعبيري العفويّ عن توقيري لضريح الولي الصالح. خاطبتني:

- تعال يا ولدي، وليحفظك الله من شر العين!

خرجنا إلى الشارع وقطعنا بضعة أمتار قبل أن نصادف بائع خضار يعرض طماطم وفلفلاً كبيراً للبيع على شكل مجموعات تشبه أهرامات صغيرة، سألته أمّي:

- بكم تبيع الطماطم؟

ثمّ انحنت على الخضار وبدأت تقلبها وتختار من بينها. خلطت بين

الفلافل والطماطم. استاء الخضّار من الفوضى العارمة التي أحدثتها في بضاعته، فردّ عليها مغضباً بأن هذه السلعة ليست للبيع لزبونة مزعجة مثلها!

رفعت والدتي وجهها مستاءة وردَّت أن عليه أن يجمع أزباله من الشارع إنْ كان لا يبيعها! بأنه لا يمكن أن نسمح للكسالى أمثاله أن يحتلوا الأرصفة ويعرقلوا مشي المارة! كانت بصدد مواصلة تهجمها لولا أنني جذبتها من يدها وأجبرتها أن تتبعني. تركنا البائع المسكين يغلي من الغضب.

كانت توجد، على اليسار، بوابة كبيرة خشبية مزينة بالمسامير معدنية وبقطعة برونز منقوشة يستعملها الطارق ليقرع الباب.

- *أمّي! مَنْ صاحب هذه الدار الجميلة؟*

- *هذه ليست داراً، إنها مكتب من مكاتب النصارى.*

- *لكنني أشاهد مسلمين يدخلون من البوابة!*

- *هم يعملون مع النصارى، النصارى أغنياء يا ولدي، وهم يدفعون أجوراً مجزية لمَنْ يعرف لغتهم!*

- *وهل سأتكلَّم بدوري لغة النصارى عندما أكبر؟*

- *ليحفظك الله يا ولدي من أيّة علاقة مع هؤلاء القوم الذين لا نعرفهم!*

كانت زنقة الحجّامين تقع يسارنا قبالة سوق النخاسة القديم. بمجرَّد ولوجنا داراً كبيرة بها، نادت والدتي على لالة عائشة. رحَّبت بنا من نافذة غرفتها الواقعة في الطابق الثاني وطلبت منّا أن نصعد نحوها. كانت بانتظارنا وعينها على سخان الماء الذي يتصاعد من فمه البخار الحارق. طغت على غرفتها لحظتها علامات واضحة توحي بالفقر وقلّة ذات اليد. سبق أن عرفنا لالة عائشة في أوقات أفضل. لم تعد أغلفة قماش القطن تزيِّن مرتباتها ولا الأبسطة البهية الألوان تتناثر في أرجاء

غرفتها! اختفت الخزانة الخشبية التي ضمَّت الأواني الخزفية المنمَّقة، كما تركت الساعة الحائطية مكانها فارغاً إلّا من بقعة بيضاء تحدِّد مكانها السابق. لم تنقص أعداد المرتبات غير أنها أصبحت من النوع المحشو بالتبن بدلاً من الصوف، لذا صارت صلبة مزعجة للجالسين. كانت الغرفة تبدو باردةً موحشةً توحي بالحزن والقنوط، بجوٍ من القلق العام خيَّم على جميع سكان هذه الدار المنزوين في الأركانٍ المعتمة من غرفهم ومنعنا من سماع أصواتهم المكتومة. فجأة سمعت مواء قط صغير قادماً من سطح الدار. لاشكّ أنه ظلّ هناك مهملاً لأيّامٍ طويلة، لذا كان مواؤه ضعيفاً وحزيناً.

قدَّمت لنا لالة عائشة الشاي فوق صينية صفراء متهالكة من نحاس انمحت نقوشه. قامت بواجبات الضيافة بأنفةٍ رغم ما طال بيتها من تقلُّب في الظروف وتغيُّر في الأحوال.

سيطر الصمت على ثلاثتنا. كان كلّ منّا يسبح في شواغل عالمه الخاص، ثمّ كسرت لالة عائشة السكون بقولها:

- أقترح أن نستبدل وجهتنا المُقرَّرة بالذهاب إلى حارة الصفّاحين، ففقيه زقاق الخلخالين سافر إلى الجبل ولم يعد بعد إلى فاس. يبدو أن له أسرة في قرية من قرى الجبل. سيدي العرَّافي الذي سنذهب لزيارته شيخٌ ضرير، ذلك ما أخبرتني به لالة خدوّج العلوية التي راجعته أكثر من مرّة وقرأ لها الطالع فأخبرها بأمورٍ تحقّقت لاحقاً. ما زال عندي بقية من أمل يا زبيدة! لسنا إلّا نساء مهيضات الجناح، والسعادة مخلوق هش يصعب الحفاظ عليه! ها أنت تنظرين إلى عش أسرتي الذي تكسَّر، ولن يهنأ لي بال إلّا بعودة الأمور إلى نصابها!

تنهَّدت أمّي وهي تهز رأسها بالموافقة، فقلَّدتها لأنني كنت أعرف أنه ينبغي عليَّ التصرُّف تماماً مثل والدتي في مثل هذه المناسبات.

ردَّت أمّي:

- لالة عائشة، أنا بدوري محتاجة لقراءة الطالع والحصول على

النصيحة. أخاف على بيتي، على زوجي وابني. وعندما ينزل غضب الله على مخلوقات ضعيفة مثلنا فلا حول ولا قوة إلّا بالله! العارفون بالله هم مَنْ يستطيعون نجدتنا. سمعة سيدي العرَّافي وصلت كلّ أنحاء فاس، لا شكّ أنه سيساعدنا في تجاوز هذه المحنة!

- على العبد أن يلتمس الطرق والأسباب وأن يجعل ثقته في الله، الله المعين!

نهضت لالة عائشة من الأرض بصعوبة، فهي لم تفقد الكثير من بدانتها، ثمّ تدثَّرت بحايكها مستعدة للخروج.

الفصل العاشر

لم نجد صعوبة في العثور على منزل سيدي العرَّافي. فقد سارع أهل حارة الصفّاحين لمساعدتنا، وبدوا فخورين بمجاورة رجل مشهور مثله. تطوَّع طفل صغير لمرافقتنا عبر أزقة ضيقة ملتوية معتمة وعامرة بالقاذورات والقطط المترصدة في الزوايا، قبل أن نصل أخيراً إلى ساحة صغيرة تعمرها أشعة الشمس. في هذه الساحة المفتوحة وجدنا مدخل مطحنتين تعملان بتيار الماء وثلاثة بيوت، وحفرة صرف صحي مفتوحة! كان ثمَّة غيوم من غبار وذباب في الجو وروائح متباينة تتصارع: روائح مخلفات منزلية وبول حمير وبخور!

أشار الطفل الذي رافقنا إلى باب المنزل الأوسط. ثمّ حشر إصبعه داخل أنفه وغادر لا يلوي على شيء. فتح الباب وخرجت منه امرأة مسنة مغضّنة التقاسيم تحمل فوق رأسها سلة من قصب. نظرت إلينا مليّاً، ثمّ غادرت باتجاه نفس الزقاق المظلم الذي قدمنا نحن عبره. ولجنا الواحد تلو الآخر الممر المؤدي لداخل الدار. تحسسنا الأرضية

قبل أن نضع أقدامنا لأن العتمة كانت تسيطر على المكان. وبين الفينة والأخرى، كانت أمّي ولالة عائشة تتعوذان عندما تتعثر أقدامهما بقطعة شاردة أو صخرة ناتئة من أرضية الدار غير المستوية.

أوصلنا الممر على اليسار إلى فناء مغمور بضوءٍ طبيعي ساطع فتنفسنا الصعداء. كان بالفناء شجرة عنب باذخة تصاعدت عروشها على حائط إلى أعلى، وبدت أوراقها يانعة بالغة الاخضرار على خلفية البياض الناصع للجير الذي صبغت به جدران الدار. كان يتصاعد من الفناء هدوءٌ كنسي، لا يؤثثه إلّا هديل حمام وزقزقة طيور سنونو. بحثت دون جدوى عن مكان هذه الطيور التي استقبلتنا بفرحة وحبور. لاشكّ أنها تتفرَّج علينا من مخابئها العامرة بالظلّ الرغيد. لبثنا في الفناء دقائق طويلة دون أن نرى مخلوقاً. لم نعرف ما يتوجَّب عمله، ثمّ تجرأت والدتي أن تصرخ:

- *يا أهل الدار!*

ردّض عليها صوت امرأة:

- *تريدون لقاء مَنْ؟*

- *هل يقطن سيدي العرَّافي هنا؟ نرغب في لقائه والحصول على المشورة منه!*

أطلَّ علينا رأس فتاة زنجية صغيرة من نافذة علوية، أشارت للسُلَّم الذي يوجد عن يميننا وقالت لنا:

- *سيدي العرَّافي يسكن في الطابق الأوَّل.*

بمجرَّد أن تجاوزنا أربعة أدراج صدر عن لالة عائشة صوتٌ يوحي بأنها تجد صعوبة في التنفُّس فخاطبتنا:

- *اصعدا أنتما أوَّلاً وانتظراني في المدخل!*

بعدما وصلنا إلى المدخل المفترض، وجدنا ممرّات أخرى وسلالم

ذات درجات متهالكة تقود إلى اتِّجاهات عِدّة. لم تكنْ السلالم المتهرئة لتسهّل المُهمَّة على الزائر المضطر لصعودها. أخيراً وفي نهاية أحد الممرّات وجدنا غرفة سيدي العرَّافي. كان يتصدَّر بابها ستار كبير بألوان صفراء وحمراء يمنع الناظر من الاطلاع على ما بداخلها.

لحقت بنا لالة عائشة وهي تتصبَّب عرقاً وتتنفَّس بصعوبة وتتلو الدعوات *طالبة* المعونة من الله. أزحت الستار بيدي فنطقت والدتي:

- *أهنا يسكن سيدي العرَّافي؟*

- *نعم هنا. تقدَّموا ولا تخافوا يا قادمين. أنا العرَّافي العبد الفقير الضرير الذي لا يرفض أبداً استقبال ضيوف الله!*

خلعنا أحذيتنا ودخلنا الواحد تلو الآخر. خاطبته لالة عائشة وهي تزفر وتتنهَّد بين كلّ كلمةٍ وأخرى:

- *نحن ضيوف الله وضيوفك يا سيدنا!*

- *اقتربوا! اقتربوا! لدينا ماء طاهر لتشربوا وترطِّبوا حناجركم إنْ مسَّكم العطش. عيناي لا تبصران، ولكن قلبي يرى أنكم من أهل الخير والصلاح. إن بينكم طفلاً صغيراً أسمع صوت أقدامه فوق البساط، هل هو ولد أم بنت؟*

أجابت أمّي وهي تخاطبني:

- *ولد! قَبِّلْ يد الشريف يا ولدي واطلب منه أن يدعو لك بالبركة!*

مَدّ الشيخ الضرير يمناه في الفراغ بيننا وبينه وقال:

- *بارك الله فيك يا ولدي! بارك الله فيك يا ولدي! تقدَّم! اجلس إلى جانبي!*

كانت الطيبوبة تشع من وجهه الطويل الضامر الذي شابهت سمرته الشديدة لون الخبز المحروق. ولم يفزعني البياض الحليبي الذي يعمر عينيه الخاليتين من بؤبؤيهما. تقدَّمت نحوه ووضعت شفتيّ فوق ظاهر

يده. ابتسم وجذبني إليه، أجلسني على ركبتيه وتلمَّس وجهي بأصابعه، تلمَّس تقاسيم وجهي الصغير قبل أن تتوقَّف أصابعه فوق جبهتي وتنزل نحو أذني ورقبتي. وخلال هذه المدّة لم يتوقَّف عن القول «عليك بركة الله! عليك بركة الله!». تناول سبحة كانت قربه ومرَّرها فوق ظهري وهو يتلو سوراً من القرآن كنت أحفظها، وإنْ كان حفظاً ناقصاً يشوبه بعض الارتباك، ثمّ خاطبني:

- لا شّك أنك تحفظ سورة العرش، اتلها مِراراً فهي ستحفظك من كلّ شر!

كان سيدي العرَّافي يلبس جبة واسعة من قطن ويعتمر طربوشاً صوفياً بالياً تقلَّص حجمه من كثرة غسله. قبَّلت يده مرّةً ثانية وابتعدت عنه إلى حيث والدتي، ثمّ خرجت زوجته للترحيب بنا. صبَّت لنا بعضاً من ماء الشرب من جرَّة طينية. شعرت كأنني أعرف وجه هذه المرأة. ربَّما شاهدتها من قبل في الحمام العمومي. كان لون وجهها خمرياً أقرب إلى السمرة منه إلى البياض. تتحدَّث بلكنةٍ توحي بانتمائها لمنطقة تافيلالت. كانت حركاتها تنمّ عن أناقةٍ ووقار. ما زلت أتذكَّر، إلى اليوم، تفاصيل وجهها: عيناها المتقاربتان، وأنفها الدقيق، وشفتاها الكبيرتان. أتذكَّر أيضاً أسنانها الكبيرة المغروسة في لثتها الحمراء، وقد بدت عليها آثار السواك.

لم تبدُ على دار سيدي العرَّافي علامات الغِنى. فالمرتبات موضوعة فوق بساط من الدوم وأغطيتها بادية القدم رغم نظافتها وحسن ترتيبها. كانت الغرفة تتضمن خزانة برفوف وضع فوقها وعاء فريد من تنك أبيض، مخصص على ما يبدو لتخزين السكر، انمحت نقوشه المُذهَّبة بفعل توالي الشهور والأعوام، فيما كان جلباب سيدي العرافي معلَّقاً فوق سريره.

طلب الرجل من زوجته أن تحضر له قفّته، ظللنا ساكنين قبالته. وأصابتني حالة من التوتر الممزوج بحب الاستطلاع لاعتقادي أننا سنحضر بعد قليل أمراً له أثر عظيم.

وضعت الزوجة بين يدي سيدي العرَّافي قفة من ضفر دائرية الشكل يعلوها غطاء مخروطي. مدَّ الأعمى يده نحو الغطاء ورفعه بتؤدة ورفق، فمددت عنقي لأشاهد ما تحته. شعرت بالتوجُّس والخوف، توقعت أن يخرج من القفّة وحشٌ خرافي أو سحابة دخان تتبخر لتسفر عن عفريت ينحني أمامنا ليلبي كلّ رغباتنا. لم تتضمَّن القفّة أي شيء خارق. كان بها بخور شعبي ولبان جاوي. نظرت إلى الأشياء التي تتجه لقبضها يد سيدي العرَّافي وابتسمت.

كانت محتويات القفّة تذكّرني بما جمعته في صندوق العجائب خاصتي. يبدو أنه مطلع على «سري». جميع الناس يقولون إنه رجل عالم، ولابد لكل عالم من صندوق عجائب! فهمت لحظتها سبب فرحته وهدوئه رغم عماه. صحيح أنه لا يمكنه رؤية الشمس والورود والعصافير، ولكن أحلام ليله مليئة بالمخلوقات العجيبة التي يستدعيها كلّ مكوِّن من مكوِّنات صندوقه. كدت أتحرَّك من مجلسي، غير أن نظرة صارمة من والدتي ألزمتني السكون.

قرأ سيدي العرَّافي أدعية وأوراداً طويلة، بينما كانت يداه تحلِّقان فوق محتويات القفّة مثلما يحلّق طائرٌ فوق عشه.

ثم توقَّف عن الحركة وخاطبنا:

- لا تنتظروا مني أن أكشف لكم عن مكنون الغيب. المستقبل لا يعلمه إلّا الله المحيط القدير. هذه المحارات والتمائم تساعدني كي أتلمَّس آلامكم وهواجسكم، كي أقترب من قلوبكم. وعندما أُحدِّثكم فأنتم تسمعون حديث قلبي إلى قلوبكم. سيدي محمد! أليس هذا هو اسم الولد الصغير الذي يرافقكم؟

ردَّت والدتي بصوتٍ خجول:

- نعم سيدي!

- سيدي محمد يعرف صحة ما سأقول لكم، فالطفل البريء ما زال في قلبه قبسٌ من نور الملائكة الكِرام، والحقيقة نورٌ يراه الصغار

قبل الكبار. اقترب يا سيدي محمد، اقترب! واختر شيئاً من بين الأشياء الموجودة في القفّة بعد أن تغمض عينيك!

نفَّذت تعليماته حرفياً فوقعت أصابعي على كرة من زجاج بحجم بيضة، استقرَّت في راحةِ يدي. كانت زرقاء اللون، تفحصتها قبل أن أسلِّمها له. كانت لامعة شفَّافة تتضمَّن داخلها فقاعة هواء مسجونة تحيط بها فقاعات أصغر بدت شبيهة بأجرامٍ سماوية تسبح حول كوكبٍ ما.

تلمَّست أصابع سيدي العرَّافي كرة الزجاج البيضاوية طويلاً قبل أن ينطق بكلماتٍ خرجت متثاقِلة، متباعِدة، مهيبة من شفتيه:

- اسمع أيها الطفل المُبارَك وتذكَّر دوماً ما سأقول! إن حجرة الألماس تُسَمَّى اليتيمة في لغة العارفين، لأنها وحيدة لا شبيه لها، ولأن بقية الأحجار الكريمة لا تشابهها في الجمال ولا في الصلابة. كلّ إنسان يمكن أن يحمل لقب الألماس، أن يتسمَّى اليتيم أو الوحيد! من الآن فصاعداً اطرد من قلبك الحزنَ! إنْ تخلَّى عنك الخلق فانظر إلى داخل نفسك. أتفهمني يا ولدي؟! قلبك يتضمَّن قدراً لا يحيط به العَدّ من العجائب والغرائب! عندما تعزف عن النظر إلى كنوزك تعتلّ صحتك وتصبح كالأهبل! انظر لداخل البيضة التي ناولتني. بداخلها توجد صورة الشمس، إنها هنا في حضرة نورانية بمأمن من الدنس. حاولْ أن تكون، فتح الله عليك، مثل هذه الصورة وستنجُ من كلّ شر! بركات الله عليك يا ولدي! بركات الله عليك يا ولدي! قرِّب جبهتك من شفتي كي أُقبِّلها!

قبَّل جبهتي وقرأنا معاً بصوتٍ مرتفعٍ دعاءً من الأدعية.

شعرت بعدها بتأثر شديد ودمعت عيناي. شعرت كأنني أسبح في بحرٍ من السكينة والهدوء. وكان لهذا المشهد فعل السحر على والدتي ولالة عائشة، فظلتا واجمتين ساكنتين بدورهما. أزاح سيدي العرَّافي القفّة من أمامه وطلب من زوجته أن تسقيه ماءً. قدّمت له الماء في كوبٍ طيني، ثمّ خرجت من المكان. مسح الضرير شفتيه بقطعةٍ من

قماش قبل أن يضعها تحت ركبته ويخاطب المرأتين:

- ألهمكما الله أن تقصدا هذه الدار، لأن بقلبيكما جراحاً مؤلمة! لكنني لست إلّا عبداً ضعيفاً أعطاه الله بركة لمساعدة إخوانه وشفاء آلامهم. اقتربا وافعلا كما فعل هذا الطفل المبارك، لتختر كلّ منكما شيئاً من بين محتويات القفّة!

تنهَّدت لالة عائشة وأدخلت يدها في القفة لتخرج محارة ناولتها الفقيه. كانت محارة عادية، لكنها تحوَّلت بين أصابع سيدي العرَّافي إلى محارةٍ ذات بياض ساطع، إلى حلية صاغها فنان خزف في لحظة إشراقٍ وسعادة!

- ما هو اسمك أيتها السيدة ذات القلب الفاضل؟

- عائشة، يا شيخنا!

- اسم الزوجة المُفضَّلة لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم! لذا أنصحك أن تطردي الحزن من على وجهك. نعم لقد قاسيت وما زلت تقاسين كثيراً، لذا لا تعيرين كلامي كثيراً من الانتباه. اسمعيني جيّداً: جرحك يبدو عميقاً، لكن الشفاء قريب! أتعلمين أيتها المرأة أن الابتلاء يورِّث الهناء، أن الموت يسبق البعث والنشور، وأن الوحدة تمهِّد للعودة؟ عودة أمواج من الحنان؟ اجتنبي القنوط من رحمة الله وتقلُّبات الأقدار المُقدَّرة! نحن مجرَّد عِباد ضعاف على هذه الأرض، علينا تقبُّل مشيئة الله. لقد طوَّحت العاصفة بعشّك الصغير في ظلماتها، لكن بإذن الله سيعود العشُّ إلى مكانه ويُعاد بناؤه! سيكون هناك ربيعٌ جديد وأزهارٌ جديدة على أغصان شجرة اللوز!

صدرت عن لالة عائشة تنهيدة وشهقة وانهمكت في بكاءٍ طويل. أخرجت والدتي منديلها القماش لتمسح الدموع من عينيها أيضاً، شعرت بدوري بالراحة والتجدُّد. لاقت كلمات سيدي العرَّافي أرضية خصبة فانغرست جذورها في دماء عروقي. وسمعت الشيخ يدندن لنفسه هذه الدندنة الغريبة التي ما زالت في أذني إلى اليوم:

«على وقع الأيام

على وقع الليالي

تكرّ سبحة الأقمار الجديدة

تحصي الفصول»..

ثمّ خاطب المرأتين كلتيهما:

- إن الدموع تفعل فعل الندى على زهر القلوب، لكن إذا تحوَّلت إلى مطر تغرق الزهور فتموت. كفكفا دموعكما ولنقرأ الفاتحة جميعاً!

قرأنا الفاتحة:

باسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

الرحمن الرحيم

مالك يوم الدين

إياك نعبد وإياك نستعين

اهدنا الصراط المستقيم

صراط الذين أنعمت عليهم

غير المغضوب عليهم ولا الضالين

آمين...

بعد لحظة صمت مدَّت والدتي بدورها يدها إلى قفّة سيدي العرَّافي والتقطت منها أوَّل شيء عثرت عليه: كان عبارة عن جوهرة سوداء رسمت عليها تصاوير ملوَّنة صغيرة.

ابتسم الشيخ الضرير وسأل والدتي عن اسمها.

- زبيدة!

- يا أختي زبيدة، قبل مدّة طويلة فقدت بصري، تحوَّل جسدي من شدّة اليأس والقنوط إلى كتلة رماد ساخنة لا تجد لها مكاناً على ظهر الأرض. بدا لي أن كلَّ ماء الأرض لن يروي عطشي، اختفت الشمس واستحال الكون بالنسبة لي إلى خريف مظلم أبدي، فلجأت إلى الله:

- شمس وماء يا إلهي!

شمس وماء يا إلهي!

استجاب الخالق لدعائي، فاسترجعت الأرض ربيعها وحنانها. ذهبت فوق الهضبة لأدفئ عظامي الباردة، رويت مفاصلي في عيون ماء صافية واستعاد حلقي، بعدما ارتوى، لكنةَ الماضي الذي نسيته. يا أختي! حذار من اعتبار ما يحدث معك شراً مستطيراً، تقبَّلي إرادة الله واعلمي أن أولياء الله الصالحين، دفناء هذه المدينة الطاهرة، يمنحونك بركاتهم. تبرَّكي بزيارة أضرحتهم، واعلمي أنك حين ترفعين كف الدعاء بسلامة الغائب فإن ملاكك الحارس يدعو الله بدوره أن يجازيك بنفس ما تمنيت للغائب، أحضره الله!

ثمّ اختتم سيدي العرَّافي كلامه بسورة التوحيد:

- «قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد».

غرق الجميع مرّة أخرى في الصمت والتفكير. لم أعرف ما هو مصدر الشعور العارم الذي دفعني لحظتها للانقضاض بسرعة على يد سيدي العرَّافي وتقبيلها. وكانت تلك نهاية جلستنا معه. نهضت المرأتان بتثاقل وتدثرتا بحايكيهما من جديد، ثمّ انحنتا برفق على كتف سيدي العرَّافي لتقبيلها قبل أن يدلين بتستّر وخجل قطعة بسيطة من النقود في باطن يد الشيخ. غادرنا الغرفة نحو الباب مرفوقين بدعوات الشيخ. وبمجرَّد أن عتبت الزقاق الخارجي شعرت بخفّة مَنْ أُزيح عن كاهله عبءٌ ثقيل. بدا لي الكون في حلّته القشيبة الأولى المبهجة، بدت لي أشعة الشمس متراقصة بفرحة فوق جدران الأزقة ومعروضات المتاجر وعمائم المارة وجلابيبهم!

قلت لنفسي إنّ نبوءات سيدي العرَّافي ستتحقَّق لا محالة. لكن أيّة نبوءات؟ فالرجل اكتفى بتلميحات غامضة! هل فهمت قصده فعلاً؟ يبدو أنني كنت أفهم كلّ شيء بحضرته. ورغم أننا ابتعدنا عن داره، تبقّى في ذهني أثر حضوره في صورة إحساسٍ عارم بالحرّية لم أعهده في قلبي من قبل. تحوَّلت كلماته إلى موسيقى داخلية تعزف في عمق كياني الصغير. تبخَّر شعوري بالتعب، وسرت في أوصالي طاقةٌ فياضة فشرعت في الرقص! لم تنتبه كلٌّ من لالة عائشة ووالدتي إلى حالي الجديد، فقد كانتا تمشيان غارقتين في أفكارهما.

فجأة توقَّفت عن الحركة وجريت محاولاً الاختباء في تلابيب أمّي. سألتني :

- *ماذا بك؟ لماذا تبدو خائفاً؟ تكلَّم يا ولد!*

اعتصمت بالصمت.

تدخَّلت لالة عائشة قائلةً:

- *ماذا أصاب الولد؟ لَعَلَّه يشكو من مغصٍ في البطن؟*

- *لا يريد أن يقول شيئاً! إنه يرتعد من الخوف، ماذا بك؟ تكلَّم يا رأس البغل!*

غادرت تلابيب الحايك، تنفَّست الصعداء أخيراً وأجبتها:

- *أشعر بالخوف!*

- مِمَّنْ؟

- *رأيت فقيه كُتَّابنا يمرّ قريباً منّا، ذهب في اتِّجاه الزقاق على اليسار، كاد يراني!*

- *ولماذا تخاف أن يراك؟ ألست مريضاً؟ ألست برفقة أمك؟ إن الطفل الذي يرافق أمّه لا يمكن أن يتهم بالتهرُّب من الدراسة!*

- *نعم لكن الطفل المريض لا يتنزه في الأزقة، ولو كان برفقة أمه!*

- لو كان الفقيه قربنا لشرحت له أنك رافقتني ليكشف عليك الطبيب.

- ما كان ليصدقك! سيعتبره عذراً كاذباً ويعاقبني بشدّة لدى عودتي إلى الكُتّاب!

تنهّدت والدتي وقالت للالة عائشة:

- لم يعد بإمكاني إعادة هذا الطفل لجادة الصواب، إنه يجادلني مثل رجلٍ كبير!

ردّت صديقتها:

- ليبارك الله خطواته إذن!

واصلنا السير في صمت. وعلى جسر «بين المدن» شاهدت بائع رمان يقتعد الرصيف. كانت حبات الرمان تميل إلى الاخضرار ولم تنضج بعد، رغم ذلك وقفت أمامه بعنادٍ رافضاً التحرُّك. فهمت والدتي القصد من وقفتي فخاطبتني من بعيد:

- بإمكانك البقاء هنا إلى يوم غد، لن أشتري لك رماناً غير ناضج، فهو يمرض العيون.

- أريد واحدة فقط لأتذوّقها!

- لن تتذوّق منها حتى حبة واحدة!

ثمّ جرّتني من يدي لترغمني على مواصلة السير فشرعت في البكاء. واصلت المسير قليلاً، ثمّ كفكفت دموعي ومسحتها في كُمِّ جلبابي. وسرعان ما نسيت حزني بفعل المشاهد المبهجة في الأزقة والشوارع، عادت إليَّ فرحتي فبدأت الثرثرة إلى أن وصلنا الدار.

لم تُحدِّث والدتي جاراتها عن زيارتها لسيدي العرّافي. فنحن نقطن بجوار عرّافة مشهورة، وكان على والدتي أن تقصدها أوّلاً قبل الذهاب إلى شخصٍ غريب عن الحارة. غير أنها لم تثق يوماً في مواهب الخالة كنزة. وكنت أشاطر والدتي الرأي، فقد كان يداخل أنشطة كنزة، برأينا،

جانب شيطاني متطلب يلزمه استعدادات ومصاريف كثيرة قبل اللجوء لخدماتها. ما كان لدينا أموالٌ كافية لشراء بخور يناسب أنوف وأذواق جوقة الجن التابعة لكنزة، إضافة لاحتراز والدتي وخوفها أن تبوح العرَّافة بأسرارها للجارات. رغم أن لا أحد من جيراننا كان يجهل حقيقة وضعنا، فإن والدتي كان تتوهَّم العكس. قالت للجارات إنها ذهبت في نزهة باتجاه حارة بعيدة رفقة لالة عائشة، لأنه ما كان بمقدورها أن لا تقول لهن شيئاً بالمطلق، غير أنها تكتَّمت على قصة سيدي العرَّافي زاعمةً أن هدف النزهة كان زيارة أضرحة الأولياء والصلحاء للتبرُّك والمساعدة في شفاء ابنها الوحيد. فالأدوية البشريّة لا تكفي إذا لم ترفق ببركات رجال الله.

يوم غدٍ أخبرتني والدتي أنها ستعفيني من الذهاب للكُتَّاب طيلة فترة غياب والدي متعلِّلة بسببين وجيهين: أوَّلهما أن صحتي لا تسمح بسبب هزال جسدي وامتقاع لون وجهي حتى صار يشبه لون الرمان ناقص النضج! وثانيهما أنها تحس بالعزلة وتكره أن تلازم الدار وحدها في غياب زوجها، فمجرَّد وجودي إلى جانبها يُخفِّف أحزانها.

بغرض النزهة واستدرار بركات الأولياء والصالحين على أسرتنا، قرَّرت والدتي أن نزور كلّ أسبوع واحداً من أضرحة فاس. فقد كانت مدينتنا تعج بمدافن المنحدرين من النسب الشريف ومؤسِّسي الزوايا الصوفية والصلحاء الذين تنسب لهم العامّة خوارق وكرامات. وكان لكلٍّ منهم يوم زيارة معلومٌ. يوم الاثنين يُزار ضريح سيدي أحمد بن يحيى، ويوم الثلاثاء سيدي علي ذياب، والأربعاء سيدي علي بن أبي غالب... كنت أعلم كلّ هذا، كما كان كلّ الناس في ذلك الزمان يعلمون به ويقرّونه ويعتبرونه شيئاً عادياً لا غبار عليه ولا حرج فيه، بل عملاً مباركاً مندوباً إليه! لم يخطر على بال أحدٍ أن يُشكِّك في ما جرت عليه عادة الأسلاف في مثل هذه الزيارات. ولم يخطر على بال أحدٍ أن يجترئ على السخرية منها. فقد كان لتراتب الأيام وتواليها معنى منظمٌ واضح. بالنسبة لي، كانت للأيام أيضاً ألوانٌ محدَّدة. كان يوم الاثنين عندي مقروناً بالرمادي

الفاتح، والثلاثاء بالرمادي الغامق المدخَّن، فيما كان لون يوم الأربعاء مشعَّاً برَّاقاً مثل ألوان أمسية ربيعية. وكان لون الخميس أزرق بارداً مناقضاً لسخونة وصفرة يوم الجمعة. فيما اكتسى السبت صفرةً شاحبة كانت مقدمة ضرورية لاخضرار يوم الأحد. لم أتحدَّث لأيٍّ كانٍ عن هذا الترتيب الذهني الذي ابتكرته لنفسي. ولو كنت امرأة أو رجلاً ثرياً للبست لكل يوم لباساً باللون الذي يناسبه، لكانت حياتي أجمل وأسعد وأكثر توازناً، لكنني لم أكنْ امرأة، وما كان عندنا مالٌ يذكر، خاصّة بعد السفر المفاجئ الذي اضطر إليه والدي. أصبحت وجباتنا قليلة متكرِّرة، وأصبحت الوالدة تعجن خبزنا من شعير تخالطه كمية يسيرة من الحنطة. ما عادت تضحك كثيراً، ولا تروي قصصاً عجيبة، كما درجت على ذلك سالفاً. لكن تبقَّت لنا النزهات الطويلة التي كنّا نقوم بها مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع لزيارة أضرحة الأولياء والصلحاء، حيث كنا نرفع الأدعية نفسها، وننشد تحقيق نفس الآمال، نبكي في كلّ مرّة من التأثّر قبل أن نقفل عائدين إلى دارنا. أتعبتني هذه الزيارات المتواترة المتكرِّرة، وما كان بوسعي أن أمتنع عن مرافقة الوالدة إليها، لأنها تعتقد اعتقاداً راسخاً أن حضور طفل بريء إلى جوارها أدعى لاستجلاب بركة الأولياء واستدرار عطفهم عليها وعلى أسرتها.

وذات صباح، طرق باب الدار طارقٌ وسأل أن كان هذا مقر سكن المعلم عبد السلام النسّاج. ردّ عليه الجيران بالإيجاب، ونادت كنزة الشوَّافة والدتي:

- *زبيدة! زبيدة! ثمّة شخص يسأل عنكم!*

كانت والدتي قد سمعت كلّ شيء من قبل، فوقفت وسط الغرفة محتارة متوجِّسة واضعة يدها على قلبها دون أن تنبس ببنت شفة. هل هذا الشخص بشير خير أم حامل لأخبار مشؤومة؟ أم هو شخص اقترض منه والدي مالاً ونسي أن يخبرنا حول الموضوع؟ كان ما خلَّف لنا الوالد من مالٍ قد قارب الانتهاء ولم تبقَ منه إلّا فرنكات معدودة كنّا ننوي أن نشتري بها فحماً نطبخ عليه.

ردّت أمّي أخيراً:

- إذا كان هذا الغريب يريد مقابلة زوجي فقولي له إنه غائب عن الدار!

نقلت كنزة جملة أمّي بصوتٍ مرتفع للغريب الذي ردّ عليها بحديث لم نتبيَّنه، فترجمته لنا كنزة بقولها:

- زبيدة! هذا الرجل جاء من البادية يحمل لكم أخباراً عن المعلم عبد السلام. ويقول إن لديه مقتنيات مرسلة من طرف زوجك يريد أن يسلِّمها لكم.

استرجعت والدتي شجاعتها وأشرق وجهها بابتسامةٍ عريضة. قالت مخاطبة نفسها: ذلك ما كنت أتوقَّعه! ثمّ توجَّهت صوب درجات السُلَّم ونزلت عليها بسرعةٍ كبيرة. كانت تلك أوَّل مرّة أرى فيها والدتي تجري باتجاهٍ ما. تبعتها مسرعاً بدوري دون أن أتمكَّن من اللحاق بها. وعندما وصلت إلى الطابق الأرضي وجدتها تتحدَّث إلى الغريب من شِقّ الباب المُوارب وهو يقول:

- هو على ما يُرام، يعمل كثيراً ويدخر كلّ راتبه، يقول لكم أن لا تقلقوا بشأنه، وقد كلَّفني أن أعطيكم هذا!

لم أشاهد بالضبط ما أعطاه لأمّي، لكن لاحظت أنها قبضت شيئاً ما وشدَّت عليه بعناية بين أصابع كفِّها.

سلَّمها أشياءً أخرى قائلاً:

- كما أرسل أيضاً هذه الأغراض، وهذا كلّ شيء. سأغادر غداً إلى البادية وألتقي المعلم عبد السلام بمجرَّد وصولي للقرية. هل لديكم ما تريدون إبلاغه به؟

- قُلْ له إنَّ صحة سيدي محمد تحسَّنت!

- الحمد لله! كان المعلم عبد السلام منشغلاً كثيراً بهذا الموضوع.

أنا ذاهب، أترككم في رعاية الله!

- *لترافقك السلامة يا بشير الخير!*

أغلقت والدتي الباب وصعدت إلى غرفتها مسرعة.

انطلقت أسئلة الجارات بنفس السرعة. أطلَّت رحمة من نافذتها ووضعت كنزة سطول الماء جانباً فيما تخلَّت فاطمة البزيوية عن نولها الذي كانت عاكفةً عليه. كانت جميع النسوة يسألن والدتي عن أحوال أبي وعمله الجديد والمكان الذي يوجد به. لكن ردّ والدتي كان عائماً غير واضح تكثر فيه عبارات المجاملة، بينما كان فضول الجارات ملحّاً ثقيلاً، إذ كُنَّ يرغبن في معرفة ماذا أرسل لنا الوالد. شعرت أن والدتي تتعمَّد تركهن دون جوابٍ شافٍ. وعندما وصلت إلى غرفتنا وجدت على المائدة المستديرة اثنتي عشرة بيضة وقدراً من فخّار يتضمَّن سمناً بلدياً وقنينة من زيت الزيتون الأخضر الغامق اللون. كان وجه والدتي مشرقاً من الفرح، خاطبتني:

- *انظر ما أرسله لنا أبوك، لم ينسنا! رغم أنه في بلدٍ بعيد فهو يفكِّر فينا! وأرسل لنا أيضاً نقوداً: انظر! انظر!*

فتحت يديها فرأيت ثلاث قطع نقدية فضية ناصعة البياض تلمع عليها أشعة جعلتها تشبه وجه القمر.

رغم أن كلمات والدتي كانت خافتة محتاطة، إلّا أن الآذان الفضولية المتربصة التقطت كلمة «نقود» من هذا المونولوغ. وتداولت الجارات الكلمة السحرية بينهن من أذنٍ لأخرى. عادت الجارات إلى سابق أشغالهن. كن يعلمن أن والدتي لن تستطيع أن تكتم عنهن طويلاً أخبارها السعيدة، بينما فكَّرت أنا فقط في جولتنا نحو الأضرحة التي ربَّما يطالها الإلغاء. كنت مرتاحاً لفكرة التخلص من هذه النزهة الرتيبة المتعبة. أُصبت بعدوى الفرح الغامر الذي سيطر على والدتي وفكَّرت أن كلّ ما يحيط بي يعبق بالأناشيد، بأننا أصبحنا أغنياء، بعدما كان الفقر يمسك بتلابيبنا قبل أسبوعٍ واحد فقط، يطل علينا من سقف غرفتنا، ويرشح

من ثنايا ملابسنا ومن أثاثنا البسيط. وها قد ظهر المبعوث الغريب في حياتنا صباح اليوم، فأزاح عنها ستار الهَمِّ والقلق، وسمح لنا أن نتطلع إلى المستقبل بثقةٍ وهدوء وأمل!

خاطبتني أمّي:

- سيدي محمد، اصعد للسطوح لتلعب هناك. عندي اليوم أشغال كثيرة لا تسمح لي بمرافقتك إلى ضريح سيدي علي المزالي. سنزور الضريح في الأسبوع القادم إن شاء الله، أو في الأسابيع التي تليه!

لم تكْن لديّ رغبة في الصعود فوق السطوح التي تصب عليها الشمس اللامعة أشعتها لتخلق بها حرارة لا تُطاق. أطللت من نافذة الغرفة، كانت الخالة كنزة تواصل تنظيف الأرضية قرب البئر، وقط زينب قد أرهقه الحر فنام في ركنٍ من أركان الفناء. سمعت أمّي تتحدَّث لفاطمة البزيوية على عتبة الغرفة. شكرتها فاطمة. توجَّهت نحو غرفة رحمة وظلَّت معها لفترةٍ أطول، نزلت إلى مسكن كنزة الشوَّافة وثرثرت معها إلى حدود نهاية الصباح.

لم يتبَق على طاولة أكلنا المستديرة إلّا ست بيضات، فقد اقتسمتها والدتي مع جاراتها. وكنت أحب أكل البيض إلى حَدٍّ أن فمي يتبلَّل ريقاً عند رؤية واحدةٍ منه. وقبل أن تشرع في إعداد طعام الغداء صعدت والدتي إلى السطوح وثرثرت مع المرأة الزنجية التي تقطن فوق الدور العلوي من المنزل المجاور. وبحلول المساء، كان أهل الحارة عن بكرة أبيهم قد علموا بخبر مقدم مبعوث والدي، وبالأغراض والمقتنيات التي أحضرها لنا!

زارتنا لالة عائشة زيارةً مفاجئة، لم أستغرب من حضورها، فقد كانت صورتها ترافق كلّ الأحداث العائلية المُهمَّة التي تعيشها أسرتنا. وما كانت فرحة والدتي لتتم دون أن تشاركها فيها صديقتها القديمة.

وضعت والدتي طعام الغداء، وضحَّت بالبيضات الست مرّةً واحدة فأكلناها مقلية. قصّت على مسامعنا خلال الوجبة تفاصيل حدث اليوم.

وصفت مبعوث والدي وصفاً دقيقاً، رغم أنها لم تلمحه إلّا لدقيقة أو دقيقتين من شِقِّ الباب المُوارب في مدخل الدار المعتم! تحدَّثت عن أثر المفاجأة وعن تخوِّفها الأوَّل قبل أن تحمد الله على نعمته.

- وكيف أحوالك أنت يا لالة عائشة؟

- الحمد لله! الحمد لله! تعالي غداً لزيارتي وستعلمين بالخبر السار!

- هل عاد زوجك أخيراً إليك؟

- ليس بعد، ولكنه على الطريق الصحيح. إنه يدفع ثمن ما سبَّبه لي من آلام! تعالي غداً وسأخبرك بالتفاصيل. جئت فقط لدعوتك لزيارتي غداً.

ثمّ تدثَّرت لالة عائشة من جديد بحايكها وغادرت إلى دارها.

الفصل الحادي عشر

كانت لالة عائشة تطارد الذباب بمنديلٍ قديم وتوجِّه له اللوم كما لو تعلَّق الأمر بسربٍ من أطفالٍ مشاغبين:

- *هيا اخرجي أيتها الحشرات اللعينة، تنشرن القذارة على كلّ شيء تلمسنه، وعندما أرغب في النوم تزعجنني بطنينكن!*

انتبهت لوجودنا بباب مسكنها، فتجمَّدت ذراعها في الهواء وأشرق وجهها بالابتسام:

- مرحباً بكم، *تفضَّلوا بالدخول، الذباب لا يُطاق مع هذا الحرّ الشديد. الذباب والحرّ علامتان من علامات البلاء الذي يسلِّطه الله على عباده، تحدَّثي يا زبيدة! ما لكِ صامتة؟*

كان بود والدتي أن تبدأ الكلام، لكن كيف يمكن أن تُكلِّم امرأة أصابها جنون إبادة الذباب فشرعت تركض بين أركان الغرفة، تهوي بمنديلها بعنفٍ هنا وهناك. وكانت أسراب الذباب تواجه حرب مضيفتنا بمكرها

المعهود، فتنزل على مخدّة في ركنٍ ما، وما يقترب أن منها منديل لالة عائشة حتى ترتفع إلى سقف الحجرة وتقوم بطلعات جوية دائرية قبل أن تحط من جديد في مكانٍ آخر على السرير أو على مرتبة.

توقَّفت لالة عائشة عن حربها، واتجهت نحو المطبخ لإحضار السخّان النحاسي، فيما كانت الصينية موضوعة من قبل فوق المائدة وقد غطيت بثوبٍ شفاف مكَّنني من رؤية الكؤوس وإبريق الشاي. وأخيراً بدأت والدتي ولالّة عائشة الحديث بما تبدأ به النساء عادةً من استفسار عن أحوال الصِّحة والأسرة، رغم أنهما التقتا أمس وطرحتا على بعضهما نفس الأسئلة وتلقتا نفس الأجوبة، مع بعض الفروق البسيطة، حيث إن لالة عائشة عانت أمس من الأرق، إلّا أنها انتبهت لأن ذلك يعود فقط لاستعمالها فراش نوم صلب غليظ، وبمجرَّد ما غيَّرت المرتبة بأخرى أكثر نعومة غرقت في النوم كما تنام صخرة في الماء. سألتهما متظاهراً بالسذاجة:

- *هل تنام الصخور يا أمّي؟*

- *اسكت أو اطرح أسئلة معقولة!*

ذكَّرت هذه الواقعة أمّي بحادثة إسقاط بنت جارتنا زينب لحجرٍ ثقيل على الأصبع الكبير لرجلها اليُمنى.

- *يا الله! وهل حدث ذلك بعد مدّة طويلة من مغادرتي داركم؟*

- *لا، حدث هذا قبل سنتين، لكنني أتذكَّره كما لو حدث أمس، كنت أفرم بقولاً في سطح الدار عندما سمعت بكاء الطفلة الصغيرة...*

في نفس اللحظة دوَّى في الدار صوت بكاء رضيع. اندهشنا من هذه الصدفة وغرقنا في نوبة من الضحك إلى درجة أن عينيّ دمعتا. سمعنا صوتاً رجولياً يقول:

- *الحمد لله! الحمد لله! الضحك نعمة من نعم الله!*

استدرت لأشاهد الرجل الذي تجرأ على دخول غرفة تثرثر فيها

امرأتـان لا تمتـان لـه بقرابـة، لكننـي فُوجئـت بامـرأة واقفة في بـاب الغرفة. نظـرت علـى التـوالي نحـو أمّـي ولالة عائشـة، غير أنـه لم تبدُ عليهـما علامة الدهشـة. بـادرت لالـة عائشـة الزائـرة الجديـدة بالقـول:

- مرحباً بك يا سلّامة!

وشرعـت أمّـي في سؤالها عن أحـوال الصحة والـزوج والأطفال. علمت لاحقـاً أنـه لم يكـنْ لهـا زوج ولا أطفـال، وبأنهـا تعمـل «خاطبة». اسـتدارت لالـة عائشـة صـوب والدتي وقالـت لها:

- هذه هي المفاجأة التي كلّمتك عنها!

- يا لهـا مـن مفاجـأة طيبـة! مـرّ وقـتٌ طويل منذ آخـر مرة التقيت فيها سلّامة، وكان ذلـك في عـرس إحـدى بنـات عـم لالـة عائشـة، زوجـة تاجـر الأبسـطة. كان عرسـاً رائعاً.

- لدى سلّامة اليوم أخبارٌ جيّدة؟ هل تخمنين أخبار مَنْ؟

- لا! في الحقيقة لا أدري!

كنـت أعـرف والـدتي جيّداً، فهـي لا تقـول إلّا أنصـاف الحقائـق. لم تلـقِ إليَّ سلّامة بـالاً، ولم تعـرني اهتمامـاً بالمـرّة. كنـت أصغـر مـن أن ألفـت نظرهـا. وفاقـم الأمـر أنهـا كانـت تنتمـي لسـلالة العمالقـة الأسـطوريين. جلسـت في صـدر المجلـس واضعـة يديهـا علـى ركبتيهـا مثل تمثـال صلب جامـد مـن الصخـر ولم تنبـس ببنـت شـفة. لم تتحـرَّك عضلـة مـن شـفتيها الغليظتـين بينـما شرعـت تحـدِّق في محتويـات الغرفـة. شـعرت إزاءهـا بالخـوف الممـزوج بالفضـول. لاحظـت وجـود بقيـة شـوارب خفيفـة فـوق شـفتها العليـا. انتظـرت أن تتحـدَّث إلى درجـة أننـي لم أنتبـه إلى مـا كان يـدور لحظتهـا بـين لالـة عائشـة ووالـدتي. نطقـت أخـيراً بصوتهـا الرجـولي، قالـت إنهـا سـتخبر أخواتهـا بالجديـد بعـد الانتهـاء مـن شرب الشـاي، ثـمّ أضافـت:

- أستطيع أن أؤكد لكن أننا بصدد أحداثٍ كبيرة سنشهدها قريباً!

صدرت عن لالة عائشة ضحكة صغيرة تنم عن حالة من الفرح الجارف، ضحكة شابة طرية ربيعية إلى درجة أن المرأة خجلت من نفسها فاكتسى وجهها بحمرة خفيفة، نهضت على عجل، ذهبت لإحضار السكر والنعناع.

انطلقت والدتي في الكلام، تحدَّثت عن ذكرياتها حول الأعراس التي حضرتها. حُضر الشاي في زمنٍ قياسي، ملأت لالة عائشة الكؤوس ولم تمنحني إلّا نصف كأس من الشاي فاحتججت على الأمر مطالباً بكأس مملوءة عن آخرها، مثلما تعوَّدت على ذلك في منزلنا. نظرت والدتي نحوي شزراً وعضَّت بقواطع فكِّها العلوي على شفتها السُفلى محذرةً إياي. وأخيراً انتبهت سلَّامة إلى وجودي فتبسمت في وجهي. كانت أسنانها صفراء، غير أنها مغروسة بقوة في فكيها.. قالت:

- أعطيا الولد كأس شاي كاملة، سأمنحه حلوى. قلَّبت بين تلابيب قفطانها قبل أن تستخرج منها منديلاً معقوداً فسختته وأخرجت منه كعكتين وقطعة من حلوى كعب الغزال. حصلت على كعب الغزال وتقاسمت النساء الكعكتين.

بعد لحظة صمت أخرى، زاد منسوب الفضول عند والدتي ولالة عائشة فنطقتا معاً في الوقت نفسه:

- هاتي أخبارك يا سلَّامة! لا تتركينا ننتظر!

- نعم سأبدأ الكلام، لكن هل تستطيعان أن تصبرا قليلاً وأن لا تقاطعانني حتى أنتهي من حديثي؟

- تحدَّثي! احكي لنا ما جرى! نتوسَّل إليك!

- أنا أعرف أن قلبكما أبيض متسامح، وقبل أن أبدأ، هل تعدين بأن تسامحيني على ما صدر مني اتجاهك يا لالة عائشة؟

أشارت لالة عائشة بيدها وتنهَّدت، تنهَّدت والدتي كذلك. تنهَّدت سلَّامة أيضاً، تنهَّدت بدوري مقلِّداً النسوة، لأنني شعرت أن عليَّ التصرُّف

مثل الجميع. لكن يبدو أن أحداً لم يلقِ إليَّ بالاً. كانت سلامة قد شرعت في الحديث:

- شاء الله (وكلّ ما يحدث لنا إنما هو بمشيئة العليم القدير) أن أكون الوسيطة في هذا الزواج الذي أصابنا الضرر منه جميعنا. تضرَّرت أنت يا لالة عائشة لأنك فقدت محبة زوجك لفترة قصيرة، وتضَّررت لالة زبيدة لأنها صديقتك المخلصة ويؤلمها ما يؤلمك. اكتشف مولاي العربي أنه عقّد أمور حياته وسبَّب لنفسه مشاكل كان في غِنى عنها. أمّا ابنة الحلَّاق فتضَّررت لأنها ستصبح عمَّا قريب امرأة مطلقة قد لا تجد لها زوجاً في المستقبل، لكن ما العمل؟ هذه مشيئة الله، لم يخلقنا على وجه الأرض إلّا لابتلائنا!

تنهَّد الجميع مرّةً ثانية، قبل أن تواصل سلَّامة:

- بدأ كلّ شيء عندما كلَّفتني «الكبيرة» ابنة معلمي الفاضل مولاي عبد السلام أن أشتري لها حِنَّاء من السوق. وبمجرَّد ما دخلت السوق ربت أحدهم برفقٍ على كتفي، استدرت ففوجئت بمولاي العربي واقفاً قبالتي مبتسماً كعادته. تبادلنا التحية كالعادة، تحدَّثنا عن الأجواء الماطرة التي كانت تعم المدينة لحظتها، والتي امتدت طيلة شهرٍ كامل، بعدها سألته عن أحوالك يا لالة عائشة. ردَّ عليَّ أن أمورك بخير، غير أنه طأطأ رأسه ونظر إلى الأرض في حالٍ من القنوط...

- ماذا يحدث معك يا سيدي العربي؟ هل تخبِّئ عني شيئاً من أمور أهل بيتك؟

- لا أخبئ عنك شيئاً، لكنك قد تحزرين أنني أعيش معذَّباً في بيتي، وإذا تفضلت، يمكن أن تساعديني!

كما تتصورون، لم أفهم تماماً القصد من كلامه. في نفس اللحظة مرَّ بيننا حمار محمَّل بالسكر، استندت إلى جانب جدار، وطلبت من مولاي العربي أن يقترب مني. اتَّجه نحوي فاصطدم به أحد المارة عن غير قصد، تبادل معه بعض الشتائم قبل أن يلحق بي ليحدّثني عن شواغله.

- كما تعلمين، أمور تجارتي تسير على ما يرام. بإمكاني أن أفتح بيتين. أكبر ما يؤلمني هو عدم توفُّري على ذرية، على ولدٍ يرثني. نعم أنا أُقدِّر كثيراً زوجتي الحالية لالة عائشة، وهي تبادلني ولا شكّ نفس الشعور، لكن لا يمكنني البقاء دون أطفال.

قاطعته ونصحته أن يبحث عن علاجٍ لدى الأطباء، غير أنه ردَّ عليَّ بجوابٍ قاطع:

- تعلمين جيّداً أنني لا أثق بالأطباء ولا بأدويتهم، وتعلمين أن هذا الأمر له دواءٌ واحد متوفّر لديك إذا أردت أن تساعديني!

فتحت عينيّ من الدهشة وتظاهرت أنني لا أفهم قصده، فواصل:

- الحلّ يكمن في العثور على زوجة ثانية!

- لا يمكنني أبداً أن أفعل ذلك يا سيدي العربي، أنت تعلم أنني أحب كثيراً لالة عائشة، ولا أرغب في القيام بما يؤلمها!

- لالة عائشة لا تمانع في هذا الأمر، هي أيضاً تريد أن تراني أباً لطفل صغير! لكن أرجوك أن لا تحدّثيها في الأمر حفاظاً على شعورها!

قال ذلك ودسَّ في يدي قطعة نقدية من الفضة، طلب مني أن أُفكر جيّداً في الأمر وأن أزوره في مشغله قبل نهاية الأسبوع...

كنت أغلي من الفضول لمعرفة تتمَّة القصة، لكنني شعرت بحاجة ملحة للذهاب إلى المرحاض، فاستأذنت والدتي في النزول إلى الطابق التحتي.

أغضب تدخلي والدتي التي صرخت في وجهي أن أتوقَّف عن مقاطعة النسوة وأذهب إلى حيث أشاء. خرجت من الغرفة ونزلت إلى الطابق السفلي، حيث الحمام في ركنٍ من أركانه. دفعت بابه فوجدته مغلقاً، تنحنح شخصٌ كان بداخله، توجَّب الانتظار، بدأت في البكاء. أخيراً خرج هذا الشخص فاندفعت لداخل الحمام، ثمّ خرجت منه مسرعاً للعودة إلى فوق وسماع بقية قصة مولاي العربي، لكن بمجرَّد ما وضعت رجلي

في الدرجـة الأولى من السُلَّم سـمعت صـوت امـرأة يخاطبني بغضب:

- يا لـك مـن ولـدٍ قليـل الأدب! ألا تسـتطيع إغـلاق بـاب الحـمام بعـد استعماله؟ اغلـق البـاب! أنـت لسـت في منزلكـم هنـا! أنـت مجـرَّد ضيـف. وعـلى الضيـوف أن يتحلَّـوا بـالأدب في منـازل الآخريـن!

طأطأت رأسي غاضباً، ثمّ ذهبت لإغلاق الباب.

- لسـت مجـرَّد زائـر هنـا! أنا ابن لالـة زبيدة صديقة لالة عائشـة. واعتقد أن لالـة عائشـة لـن يعجبها أنك وصفتني بكوني ولـداً قليل الأدب!

- أنـت فعـلاً قليـل الأدب، وسـافل ومتسـخ! هـل تظننـي أخـاف من لالة عائشـة؟ إذا واصلـت النظـر نحـوي بوقاحـة سـأحضر مقصاً واقطـع أذنيك!

صرخت بقوة:

- ماما! لالة عائشة! هذه المرأة تريد أن تقطع أذني! آهٍ! أذني! أذني!

أطلت لالة عائشة من النافذة:

- ما الذي يجري؟ ما الذي يجري؟

حاولـت امـرأة الطابـق السـفلي أن تـشرح لهـا مـاذا جـرى بالضبـط، لكننـي كنـت أبـكي وأزعق بأقصى ما تسـتطيع حبـالي الصوتية، وهـو ما منع صوتهـا مـن الوصـول إلى فـوق. أشـارت لي بيديهـا كي أتوقَّـف عـن الضجيج غير أننـي واصلـت الصيـاح. خرجـت والـدتي إلى حيـث كانـت لالة عائشـة، خرجـت باقـي نسـاء الطابـق السـفلي لمسـاندة جارتهـن، لكـن سـلَّامة حسـمت الموضـوع عندمـا تكلَّمـت:

- هـذا طفـل صغـير ليـس إلّا. لا يمكـن أن يُـلام عـلى خطـأٍ أو نسـيان، وليـس مـن المعقـول أن ينشـب خصـام بسـببٍ بسـيطٍ مثـل هـذا. سـيدي محمـد اصعـد فـوراً! وجـدت في قفطـاني قطعـةً أخـرى مـن حلـوى كعـب الغـزال، سـتعجبك حتـمًا!

مسحت وجهي في جلبابي وصعدت السُلَّم بخيلاء.

عـادت النسـاء لسـابق أشـغالهن، وعـاد الهـدوء إلى الـدار. بمجـرَّد دخـولي غرفـة لالـة عائشـة نظـرت إليَّ والـدتي شـزراً. كانـت نظـرة طويلـة ذات معنـى، وكنـت أخـاف مـن عواقبها أكثر مـن أي شيء آخـر. كانت نظرة كفيلـة بإسـكاتي لمـدّة طويلـة.

دافعـت سلَّامة عنـي وجنَّبتني عقـاب أمّي. ابتسـمت في وجهي، وكانت قطعـة كعـب الغـزال بانتظاري فوق الصينية. أمسـكتها، لكننـي عجزت عن أكلها.

بـدأت لالـة عائشـة في تحضـير شـاي آخر. جلسـت بـين مخدَّتـين ناظراً نحو الأرض كي تنسـاني النسـوة. سـمعت والدتي تتوجَّه بالكلام إلى سلَّامة:

- وما المشكل مع هذه اللحمة؟ ألم تكن طرية أو جيّدة؟

- حسـب نـاس الحـارة أجمعـين، كانـت اللحمـة مـن نوعية جيّـدة، لكن بنت عبـد الرحمـن كانـت تبحث فقط عن سبب لافتعال شـجار. مـن جهةٍ، مـولاي العـربي يـكاد يكـون بعمـر والدهـا، ومـن جهـةٍ أخـرى فهـو لا يملـك الإمكانيـات لتلبيـة كلّ نزواتهـا. قلـت لـك مـن قبل إن هـذه الفتـاة مجنونة، منـذ متـى رأينـا ابنـة حلَّاق تفـرض عـلى زوجهـا أن يقتني لهـا زوجـيّ دمالج مـن ذهـب، أن يمنحهـا النقـود في يدها لتشـتري تفاهـات، أن تنظِّم حفلات شـاي لاسـتقبال صديقاتهـا، وأن تلعـب بالطبـل في كلّ وقـتٍ وحين؟

قاطعتها لالة عائشة:

- لكن يقولون إنها تعمل؟ أليس لديها صنعة في يدها؟

- إنهـا تخيـط تنميقـات مطـرَّزة توضع على ظهـر الأحذية النسـائية التي يصنعهـا مـولاي العـربي عـادةً. فعـلاً، كلَّفهـا بإنجـاز عمـل أو اثنـين، لكنهـا تأخَّـرت كثـيراً في إتمـام العمـل. طرَّزتهـا بطريقـة معيبـة، وفي النهايـة، طلبـت ضعـف الأجـرة التـي تمنـح عـادةً لمطـرِّزات أحذيـة النسـاء. توقَّـف مـولاي العـربي عـن منحهـا عمـلاً، غـير أنهـا غضبـت منـه واتهمتـه بعلاقـات غـير لائقـة مـع نسـاء الحـارات البعيـدة اللـواتي يدفـع لهـن لإنجـاز هـذا الجـزء مـن صناعتـه.

الجميع يعرف طبعاً أن مولاي العربي رجلٌ وقور لا يقوم بمثل هذه الأفعال، هذه اتهامات فتاة غبية وغيورة ليس إلّا. كلّ هذا يجوز ويمكن تحمُّله، لولا أن والدتها دخلت على الخط وبدأت تزورها ثلاث أو أربع مرَّات في الأسبوع. تحشر أنفها في كلّ شاذة وفاذة من أمور الزوجين وتدفع ابنتها لأن تصبح متطلبة أكثر فأكثر، توهمها أنها تملك حسناً خارقاً لا يجوز أن يتمتع به زوجٌ مسنٌّ تفوح منه رائحة العرق والجلد المدبوغ، ولا يستطيع أن يُدلِّل زوجته الشابة كما يجب!

انعكست آثار هذه النصائح على المسكين مولاي العربي! حاله اليوم لا تسر عدواً ولا صديقاً، لم يجد في هذه الزيجة إلّا المشاكل والعذاب. أعلم أنه يأتي لزيارتك نادراً يا لالة عائشة، ذلك لأنه يحس بالذنب حول تصرُّفه معك. وهو لم ينسَ ما فعلت من أجله في محنته. ما كانت أمّه ولا أخته لتسانده في المصيبة التي تعرَّض لها مثلما ساندته أنت بكرمك، لكن ماذا تريدين؟ الرجال مخلوقات ضعيفة!

منذ تحسَّنت أحوال تجارته لم يصبح له غير حلم واحد: أن يدفئ عظامه المُسنَّة بزوجة تؤنس خريف أيامه الباردةً وتنسيه التعب والكدح، لكن حال بنات اليوم أصبح عجيباً غريباً! ما عدن كما قبل من جهة القناعة والحياء، يفضلن الزواج من شبابٍ حمقى في مثل سنهن ليتحكَّمن بهم كما يشأن.

مولاي العربي رجل وقور بحق وحقيق، وتلزمه امرأة رزينة تليق به. وهذه المرأة هي أنت يا لالة عائشة! وقد أخطأ عندما غفل عن هذا الأمر!

اتجهت كلّ الأنظار لباب الغرفة. سمعنا همهمة خافتة تصدر منه، فقالت لالة عائشة:

- *من بالباب؟*

- قريب.

- *هذه أنت يا زهور! ادخلي! تفضلي بالدخول!*

أطلَّت زهور بوجهها الصغير الذي حمل الكثير من الماكياج.

- *هل يمكنك أن تمنحيني قليلاً من النعناع؟*

- *تفضلي ها هو النعناع! لكن ادخلي أوَّلاً وتناولي معنا كأس شاي.*

- *شكراً، لكنني لا أستطيع، لأن زوجي سيعود قريباً.*

- *إذن فهو لم يعد بعد لحدود الساعة! اجلسي معنا ولو للحظة قصيرة!*

دخلت زهور، كانت شابة جميلة الوجه تفيض حيوية وترتدي ملابس بألوانٍ مبهجة، صافحت والدتي وسلَّامة. تمنيت أن تجلس بجواري، وذلك ما كان. كما أنها داعبت وجنتي بأصابع يدها الصغيرة. اندمجت في حديث النسوة وسألتهن إنْ كُنَّ يعلمن أن مولاي العربي قد قام فعلاً بتطليق ابنة الحلَّاق. ردَّت النسوة بالإنكار، غير أن زهور بادرتهن بقولها:

- *الوالدة سلَّامة لا يمكن أن يفوتها شيء من أمور هذه الزيجة! لكن لباقتها المعهودة تمنعها من الخوض في بعض التفاصيل. كلّ سكان حارة «العدوة» يعلمون ما يلاقيه مولاي العربي يومياً مع زوجته الشابة، يبدو أن هذه الفتاة حمقاء أو مُصابة بمس. إنها تهدد أسرتها لأتفه الأسباب بتكسير الأثاث والانتحار بإلقاء نفسها من السطوح. سمعت هذه الأخبار من مصادر موثوقة.*

مثلاً، الجمعة الماضية طلبت من زوجها أن يقتني لها، في نفس اليوم، منديلاً غطاء رأس ذا أهدابٍ طويلة. عاد مولاي العربي بعد ساعتين بمنديل قرمزي رائع يتضمَّن تطريزاً جميلاً. ألقت بنت الحلَّاق على المنديل نظرة احتقار، ثمّ أمسكته بأطراف أصابعها وطوَّحت به في فناء الدار، ثمّ قالت لزوجها:

- *هل تحسبني امرأة ريفية؟ كيف تجرؤ أن تقتني لي منديلاً بهذه الألوان السوقية؟ لا شكّ أنك اشتريته بثمنٍ بخس! اعلم أن على الشيخ الطاعن في السنِّ مثلك، الذي يرغب في زوجة في عمر ابنته، أن يرضي*

كلّ رغباتها، وأن لا يهديها إلّا الثياب النفيسة. أمنحك شبابي وجمالي وتأتيني بمنديلٍ لا يليق ...!

غضب مولاي العربي غضباً شديداً وبدأ يقرعها بعنف. أمسكت بنت الحلَّاق بكأس وكسرته على حافة النافذة وحاولت أن تقطع أوردة عنقها بقطعة زجاج حادة تبقَّت في يدها من الكأس المكسورة. سارع مولاي العربي لتجريدها من قطعة الزجاج فبدأت تتخبَّط وتبكي وتُشهد الجيران أنه يعتدي عليها بالضرب! وتصرخ شاكيةً من أنه لا يحضر طعاماً كافياً لبيته ولا يشتري لها إلّا ملابس مرقَّعة بسبب بخله الشديد!

اعترفت سلَّامة أنها لم تكنْ على علم بهذه الواقعة.

- ومَنْ أخبرك بذلك يا أُخيَّتي؟

- بعض الناس! وفي فاس لا يخفى خبُر أحدٍ على أحد! كما علمت أيضاً أن ابنة الحلَّاق مصابة، بصفة خاصّة، بآفة الكسل. وهي لا تغادر فراشها أبداً قبل الزوال. عندما يقضي مولاي العربي الليلة عندها يغادر صباحاً دون إفطار، دون أن يذوق كأس شاي. كما أن اللحم والخضار تنتظر حلول المساء كي تتفضل لالة بنت الحلَّاق بطهيها! مولاي العربي لن يستطيع تحمُّل هذه الحياة لمدّة أطول. أصبح يفضل قضاء الليل أحياناً في مشغله عوض المبيت عند زوجته الشابة. كما أن خجله يمنعه من الحديث حول هذه الأمور عند لالة عائشة التي أصبحت تستقبله ببرود، كما يحق لها أن تفعل، منذ زواجه الثاني!

سرت همهمة بين المستمعات، حاولت والدتي أن تقول شيئاً، ثمّ تنهَّدت وتراجعت عنه، تنهَّدت باقي النسوة.

لم يعد لدى زهور ما تضيفه فصمتت.

وفجأة بدأت النسوة في الحديث في نفس الوقت عن بنت الحلَّاق، عن الحلَّاق نفسه، عن زوجته وعن المرحومة والدته (أغرق الله عظامها في نار جهنم!). تذكَّرن قصصاً وأحداثاً كثيرة غير مُشرِّفة حول هذه الأسرة. عند سماعهن يتخيَّل المرء أن الحَّلاق وزوجته وبنته يشكِّلون

معاً حثالة المجتمع، وبأن الكلاب نفسها لن تكلِّف نفسها عناء نهش جثثهم إنْ تركت في العراء بعد موتهم. كانوا بالكاد ينتمون إلى الجنس البشريّ، ومُحال أن يحسبوا في عِداد المسلمين! وبما أنه لا توجد أمّة على وجه الأرض أكثر كرماً وتسامحاً من أمة سيدنا محمد (عليه أزكى الصلاة والسلام)، فإن مثل هذه الأسرة لا يجوز أن تدخل في عِداد جمهور الأمّة، ولا أن تعيش بين اليهود والنصارى الذين لن يقبلوها حتماً بين ظهرانيهم!

ارتفع ضجيج النسوة بهذا الحديث واحتدَّت حناجرهن. وكان صوت سلَّامة يهدر مثل الرعد، وأصوات الأخريات ترافقه فيما يشبه عصف الريح أو انحدار مياه السيول الجارفة وتطويح العواصف بأوراق الشجر في بداية الخريف.

كان كلّ ما يقلنه ينزلق على سطح مخيِّلتي دون أن يترك عليها أثراً. فما كنت أفهم معاني جميع كلامهن. وما كان يهمني أن أفهمها، بل كان كلّ تركيزي ينصبّ على طريقة النطق عندهن وإيقاعه وموسيقاه التي أخذت بها إلى درجة أنني نسيت أنني أمسك كأس شاي في يدي فانزلق مني وأهرقته على ركبتيّ. لحظتها توقَّف الحديث بين النسوة فنظرن جميعهن باتجاهي في صمتٍ مخيف. كانت المفاجأة والغضب يغليان في جميع العيون المركِّزة علَيَّ. فكَّرت في البحث عن عذرٍ مقبول على فعلتي فلم أجد شيئاً، أدركت أن البكاء نفسه لن ينفعني، فرفعت وجهي إلى السقف وزفرت زفرةً قوية.

الفصل الثاني عشر

سرت في أرجاء الدار موجةٌ من الابتهاج المنعش في ذلك اليوم مسَّت قلوب قاطنيها، بل مسَّت حتى قلب كنزة الشوَّافة المعروفة بتحفظها، فردَّدت كلمات أغنية، كانت رائجة في ذلك الوقت، بصوتٍ مسموع. أنصتت، من نافذة غرفتنا، لصوتها المبحوح بعض الشيء، لكنني تبيَّنت رغم ذلك كلمات مثل: القلب، عين الغزال، شفاه الورد. رسمت هذه الكلمات معاني أشياء جديدة وجميلة في مخيِّلتي كأنما تمَّ استخراجها، بعد فترة طويلة من السبات، من تحت بساط مغبر كان يغطيها. كانت تلك الكلمات تتصاعد في سماء الصيف البيضاء محرِّكة أجنحتها بخفّة مفرحة تجعل العوالق تتناثر منها، عوالق وبقايا خيوط عنكبوتية قديمة. ردَّدت مطولاً بعدها كلمات عين الغزال وشفاه الورد. حزرت أنها كلمات جميلة رغم أنني لم أكنْ أفهم القصد منها ولا معانيها الحقيقية في تلك السنِّ المُبكِّرة. وما كنت أعرف كيف تكون عين الغزال، ولا كنت رأيت الغزال نفسه من قبل! فيما كانت شفاه

الـورد تُشكِّل عنـدي معنـى ملموسـاً أقـرب للفهـم. توصلـت، بعـد طـول تفكـير، إلى أنـه لا يتوجَّـب عـلى كلمات الأغـاني أن يكون لهـا معنى واضح. وعقـدت العـزم عـلى أن أكتـب أغـاني لاحقـاً، طالمـا أن الأمر يبدو بسـيطاً. قـدرت أننـي أعـرف كلـمات كافيـة قد تفـي بالغـرض. نويت أن أتحـدَّث، في أغـانيَّ المسـتقبلية، عـن الليـل ووجـه يشـبه جـمال القمـر، وأسـنان مثـل جواهـر معقـودة في خيـط مـن حريـر، وشـفاه ورد أو مرجـان. تطلَّب الأمر العثـور عـلى اسـم امـرأة أنسـب لهـا كلّ هـذه الأوصـاف، فـما هـو اسـم المـرأة اللائـق لذلـك؟ فكَّرت طويـلاً في الموضوع، إنْ اخترت اسـم عائشـة فسـتبدو بالـضرورة امـرأة بدينـة وثرثـارة مثل لالة عائشـة صديقـة والدتي. كانـت رحمـة تقطـن معنـا الـدار نفسـه، ومـا كانـت توحـي لي بإمكانيـة تحلِّيهـا يومـاً بوصـفٍ مـن هذه الأوصاف. زبيدة هو اسـم والـدتي، لكن ربَّما لم يكْـن مـن اللائـق أن يضـع الإنسـان اسـم والدتـه في أغنيـة. زينـب تُثـير حنقـي! أمّـا رحمـة فأبصرها من النافـذة تعجن خبزها، ولا يمكـن أن يتغنَّى الإنسـان بامـرأة منحنيـة تعجـن الخبـز داخـل إنـاء فخـاري عـلى الأرض!

ربَّمـا يحسـن بي أن أختـار اسـم زهـور أو خديجـة، وزهـور هـو الاسـم الأفضـل:

ذكرى صورتها الجميلة تراود مخيِّلتي!

وجهٌ مزيَّن صبوح وفمٌ جميل البسمة!

وجنتاي تحمرَّان بمجرَّد تذكُّر أن يديها قد لامستهما!

كانـت صـورة زهـور، التـي تعـرف الكثـير عـن أسرار بنـت الحـلاَّق سـيدي عبـد الرحمـن، تسـكن مخيِّلتـي.

شرعـت رحمـة في الغنـاء أيضـاً. كانـت كلـمات أغنيتهـا تسـتدر عطـف الأوليـاء وتشـكو مـن الأرق والهـزال. ولم تكـنْ هزيلـة ولا عانـت يومـاً مـن الأرق! بـل كانـت تغـط في النـوم وتملأ غرفتهـا شـخيراً إلى حَـدٍّ أن الأطبـاق الخزفيـة تتزعـزع في مطبخهـا، مـن فـرط شـخير صاحبتهـا!

لم أفهـم تتمَّـة أغنيتهـا التـي تتحدَّث عن عيون شـخصٍ ما تشـبه نجوماً

تعلوها حواجب مقوَّسة مثل السيوف.

كانت كنزة الشوَّافة ورحمة زوجة صانع المحاريث قد فتحتا باب الغناء فتبعتهما إليه فاطمة البزيوية. وانضاف للجوقة صوت والدتي الذي بدا خجولاً ثمّ تقوَّى شيئاً فشيئاً، قبل أن يملأ الدار. قرَّرت أن أشارك في الإنشاد بدوري، خاصّة وأن الأمر لا يتطلّب شروطاً ولا قواعد، كان كلّ ينشد ما يروقه. وكان ما أغنيه يتلخَّص في عبارتين: «يا ليل! يا قمر!».

بغض النظر عن محدودية الكلمات، فإنني أقسم بأغلظ الإيمان أن التنويعات التي أضفيتها عليه تستحق أن تبقى في الأذهان، رغم أنه يصعب على العقل البشريّ العادي أن يسجل مجموع التغييرات المزاجية والشقلبات الإيقاعية المفاجئة التي أنتجتها في تلك اللحظة المُتحرِّرة من الهذيان الغنائي!

وسط هذا الجدل العام الذي عززه الطقس الربيعي الدافئ تحت شمس أبريل، سمعنا فجأة طرقاً قوياً على باب الدار. صاحت رحمة: مَنْ الطارق؟

أجابها صوت طفولي رقيق يكاد يشبه مواء قطة. توثَّبت من أثر الفضول، امتقع لوني وأطللت من نافذتنا. دعت الخالة كنزة الطفل للدخول إلى الفناء. بعد هنيهة، حسبتها دهراً، دخل المكان طفلٌ بعمر الثانية عشرة. إنه علال اليعقوبي، زميلي في الكُتَّاب. أُصبت بالهلع، وقفزت أبحث عن مخبأ خلف السرير. كانت أوصالي ترتعد وأسناني تصطك داخل فمي من الفزع، والبرودة تغشى صدري الصغير وتغلِّفه كأنها تنوي أن تستقر به إلى أبد الآبدين. تحدَّثت والدتي للطفل الزائر، سمعتها تقول له:

- تحسَّنت صحته، اشكر الفقيه على اهتمامه بتلميذه، لكن أرجو أن تخبره أن حالة سيدي محمد لا تسمح له بعد بالعودة إلى مقاعد الدرس، اذهب يا ولدي، فتح الله لك أبوابَ العلم!

نادتني والدتي:

- *سيدي محمد، أين أنت؟*

لم أجبها فتوتَّرت أعصابها:

- *أين أنت يا ابن الكلب؟ لِمَ لا تجيب؟*

كنت عاجزاً عن الجواب فلذت بالصمت.

بدأت والدتي في رفع عقيرتها باللوم والتقريع، شاكية من عنادي، وداعية أهل الدار، وسكان الحارة، وجمهور المسلمين، أن يكونوا شهوداً على ما تقاسيه معي!

- *ما أقسى القدر الذي يفرض على امرأة مسكينة أن تعيش دون زوجها رفقة ولد له رأس بغل عنيد. لا سلَّط الله مثل هذا القدر على عدو، ولو كان يهودياً أو نصرانياً! ماذا جنيت حتى أستحق هذا العناء يا الله! ارحمني يا الله من هذا الحال!*

ربَّما أن أبواب السماء كانت مفتوحة فعلاً حين فاهت أمّي بهذا الدعاء. ففي نفس اللحظة دخلت الصغيرة زينب تعدو لاهثةً وتصرخ من الزقاق:

- *خالتي زبيدة! خالتي زبيدة! عندي لك خبر طيب!*

- *خبر طيب؟*

توقَّفت والدتي عن تقريعها ودعائها. أطلَّت على زينب التي وقفت وسط الفناء لاهثةً عاجزة عن تفسير سبب هياجها. غادرت النساء أشغالهن المعتادة وأطللن على الفناء. غادرت مخبأي فيما كانت زينب وسط الفناء تقوم بحركات متعبة أذكت فضول الجميع. رفعت أخيراً رأسها صوبنا وقالت:

- *رأيت... في الشارع... المعلم... عبد السلام!*

قطع الصمت جملة زينب قبل أن تخاطبها أمّها رحمة:

- توقّفي عن قول ما لا تعرفين أيتها الكذّابة الصغيرة!

- رأيت بّا عبد السلام في الشارع قرب بائع الدقيق، غير بعيد عن جامع شجرة اللارنج. كان يحمل في يده دجاجتين ويتحدّث مع رجلٍ ريفي ذي وجهٍ طويل مثل إبريق...

ضحكت كنزة من داخل غرفتها وقالت:

- إذا كان ما تحكيه زينب صحيحاً، فنحن سعداء بعودة المعلم عبدالسلام ونتمنّى له مقاماً طيباً.

لم تقُل والدتي شيئاً، بل عادت إلى غرفتها وقد انتابتها حالة من السرور أعجزتها عن الحركة والنطق، كانت تسبح في الهناء.

ارتميت نحو درجات السُلَّم دون أن أدري فعلاً إلى أين اتجه. وما إن قطعت عشراً من الدرجات حتى سمعت صوت والدي يرتفع نحونا من الطابق السفلي:

- أيوجد أحد في المدخل؟هل بإمكاني المرور؟

ردَّت كنزة الشوَّافة:

- تفضل بالدخول أيها المعلم عبد السلام، هذا يوم مبارك ردَّك الله فيه سالماً إلى أسرتك، شكراً لله على عودتك!

أجاب والدي:

- بارك الله فيك على متمنياتك الطيبة.

عدت أدراجي مسرعاً، كنت أريد رؤيته يدخل الغرفة علينا. بدا لي السُلَّم مكاناً معتماً غير مناسب لأن يستقبل فيه الإنسان أباه بعد هذه الغيبة الطويلة. وجدت والدتي في نفس مكانها من الغرفة لم تتحرَّك منه. بدا لي كما لو أنها تحس بألمٍ ما، بدوري لم أكنْ بكامل اللياقة. سالت على جبهتي قطرات عرق باردٍ واضطربت يداي قليلاً. تردَّد صوت خطوات والدي على أرضية طابقنا، ثمّ أغلق ظلُّه باب الغرفة:

- السلام عليكم.

ردَّت الوالدة:

- وعليكم السلام، هل كانت رحلة مريحة؟

- كانت رحلة طيبة وموفقة بحمد الله! تعال هنا لأراك عن قرب يا سيدي محمد!

اقتربت من والدي فوضع الدجاجتين أرضاً، كانت أقدامهما مربوطة بشريط من دوم فبدأتا في الصياح لشعورهما بالذعر. بدت لي صورة والدي متغيِّرة عن سابق حالتها. كان وجهه قد اكتسى لون الفخَّار، وهو ما أثار استغرابي. كانت تفوح من جلبابه روائح التراب والعرق وفضلات البهائم. عندما مرَّر يديه تحت إبطي ورفعني لأصبح بمواجهة عمامته استرجعت ثقتي في نفسي وبدأت بالضحك. خرجت والدتي بدورها من حالة الجمود وضحكت. حملت الدجاجتين إلى المطبخ، عادت لتساعد والدي على إفراغ قبّه الذي كان يتضمَّن بيضاً. أفرغت خراجه من آنية زبد بلدي وقنينة زيت زيتون وقطعة فطائر قروية من سميد. انتابتها فورة من النشاط فبدأت ترتِّب المقتنيات، تنفخ على النار وتتحرَّك يمنة ويسرة وتتحدَّث دون انقطاع. كنت جالساً على ركبة الوالد أحكي له ما مررنا به من أحداثٍ جسام خلال غيابه. كنت أحكي ذلك بطريقتي، دون ترتيب ولا تسلسل، ولا خضوع لحقيقة الوقائع، دون المنطق الذي يجعل روايات الأشخاص الكبار رتيبة فاقدة للنكهة والحس. كنت أقفز من حدثٍ لآخر، أضخِّم تفاصيل وأصنع أخرى عند الحاجة، وعندما تحاول والدتي التدخل لتصويب شيء ما في روايتي يطلب الوالد منها أن تتركنا لحالنا.

سمعنا أصوات الجيران تتمنَّى لنا استمرار سعادتنا، وزغردت نسوة أخريات من قاطنات الدور المجاورة للتعبير عن مشاركة فرحتنا، شكرت والدتي الجميع بعباراتها المعتادة.

عاد إدريس العوَّاد من عمله فأخبرته زوجته بحدث اليوم. ناداني من غرفته:

- سعدنا كثيراً بعودتك إلى أهلك أيها المعلم عبد السلام!

- اصعد إلينا يا إدريس!

كان إدريس صانع المحاريث بنفس سنِّ والدي، فكلاهما قارب نهاية الأربعينات. وكانت بين الرجلين عشرةٌ قديمة، كما كانا يتبادلان مشاعر الاحترام. صعد إدريس العوَّاد إلى غرفتنا.

بعد التحية المتعارف عليها تجاذب الرجلان أطراف الحديث. خاضا في مواضيع عن جودة محاصيل العام، عن أسعار المواد وأخبار الأصدقاء المشتركين.

قال إدريس لوالدي:

- ها قد عدت للتو إلى فاس، وربَّما أن أهل دارك لا يعرفون أيضاً بالخبر، ولكن طلاق مولاي العربي من بنت الحلَّاق فد نطق به يوم أمس أمام كاتبي العدل!

- الحمد لله! سيتمكَّن مولاي العربي أخيراً من استعادة الراحة والهدوء. عرفت منذ البداية أنها ليست إلّا نزوة عابرة. أليس جنوناً أن يعتقد الرجل أنه يستطيع قيادة ركابين في وقتٍ واحد؟ فالإنسان منّا يستطيع بالكاد التفاهم مع زوجة واحدة. لقد خاض مولاي العربي هذه التجربة المُرَّة، وأظنُّها ستنفعه، ها قد عاد إلى رشده ليصبح من جديد مثل الناس العاديين، لنحمد الله على ذلك!

سمعت صوت والدتي:

- سيدي محمد! تعال لتحمل صينية الشاي إلى مجلس الرجال!

نفذت أوامرها وحملت الصينية الثقيلة على ذراعيّ الصغيرتين من المطبخ إلى حيث يجلس الرجلان. شعرت بالزهو من قدرتي على ذلك. صبَّ والدي الشاي.

استمرّ الحديث بين والدي وضيفه. لكنه تحوَّل إلى همهمة غير

مفهومـة بالنسـبة لي. اجتـاح التعـب أطرافي، شـعرت بالحـزن والعزلة. لا!
لا أريـد النـوم، لا أريـد البـكاء. فـلي، أنـا أيضـاً، أصدقـاء كـثر يسـتطيعون
مشـاركتي الفرحـة. أخرجـت صنـدوق العجائـب من تحـت السريـر، فتحته
بتـؤدة وإجـلال، كانـت أشـكال متنوِّعـة مـن الأحـلام تنتظـرني داخلـه.

فاس / 1952

الفهرس

تقديم	5
الفصل الأول	13
الفصل الثاني	25
الفصل الثالث	41
الفصل الرابع	53
الفصل الخامس	69
الفصل السادس	85
الفصل السابع	101
الفصل الثامن	123
الفصل التاسع	141
الفصل العاشر	161
الفصل الحادي عشر	179
الفصل الثاني عشر	191

صدر في سلسلة

كتاب الدوحة

	2011	
1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
	2012	
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرّية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنيّة	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
	2013	
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسيّة	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللّغة العربيّة	مجموعة مؤلفين

	2014	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنّان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلي العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة «العصفور الصغير»	مختارات شعرية
	2015	
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبَّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل - ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زينة المعنى (الكتابة، الخط، الزخرفة)	يوسف ذَنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة وتقديم: بوداود عمير
55	مأساة واق الواق	ترجمة: عبدالسلام الغرياني
	2016	
56	بين الجزْر والمدّ (صفحات في اللّغة والآداب والفنّ والحضارة)	محمد محمود الزبيري
57	ظلّ الذّاكرة (حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة»)	مي زيادة
58	الرحلة الفنّية إلى الديار المصريّة (1932) تحقيق: رشيد العفاقي	قسم التحرير «مجلّة الدوحة»
59	قيصر وكليوبترا	أليكسي شوتان -تعريب: عبد الكريم أبو علو
60	الصين وفنون الإسلام	إسماعيل مظهر
61	براعمُ الأمل (مُختارات شِعْريّة للكاتب الصيني وانغ جو جن)	ترجمة: مي عاشور
62	التّوت المُرّ	محمد العروسي المطوي
63	درب الغريب	غونار إيكليوف
64	من والد إلى ولده	أحمد حافظ بك
65	التلــــميذ	بول بُورجيه
66	ملحَمة جلجامِش	تقديم وترجمة: طه باقر
67	أريجُ الزّهر	الشيخ مصطفى الغلاييني
	2017	
68	اعترافات إنسان	محمّد فريد سيالة
69	مريود	الطيب صالح
70	المقالات الصحفية	عبدالله كنون
71	قصص قصيرة	نجيب محفوظ
72	بول بولز - يوميات طنجة	إبراهيم الخطيب
73	فنّ الحَياة	سلامة موسى

74	أَقْوَمُ الْمَسَالِكِ فِي مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْمَمَالِكِ	خير الدين التونسي
75	كتاب الأخلَاق	أحمد أمين
76	رِحْلَةٌ جَبَلِيَّةٌ رِحْلَةٌ صَعْبَة	فدوى طوقان
77	قِطافٌ (مُختَارَات مِن الْقِصَّةُ الْقَصِيرَةُ في قَطَر)	مجموعة من الكتاب
78	الرحلة الجوية في المركبة الهوائية (من شرقي إفريقية إلى غربيها) ج: 1	جول غابرييل فيرن، ترجمة: يوسف اليان سركيس
79	الرحلة الجوية في المركبة الهوائية. ج: 2	جول غابرييل فيرن، ترجمة: يوسف اليان سركيس
	2018	
80	مذكرات دجاجة	إسحق موسى الحسيني
81	ماذا يقول غاندي عن اللاعنف والمقاومة والشجاعة؟	نورمان ج. فينكلستاين- ترجمة: أحمد زراقي
82	نشأة اللوحة المسندية في الوطن العربي	د. نزار شقرون
83	مِن سِيَر الأَبْطَال والعُظَمَاءِ القُدَماء	إس. إس. بيو - ترجمة: يعقوب صروف - فارس نمر
84	مقالاتٌ في الأدب العربيّ	إغناطيوس كراتشكوفسكي
85	سِرُّ النَّجَاح	صموئيل سمايلز - ترجمة: يَعقُوب صَرُّوف
86	مِنْ آثَارِ مُعَاوِيَة مُحَمَّد نُور	مُعَاوِيَة مُحَمَّد نُور
87	إنشَاءُ المُكَاتَبَاتِ العَصْرِيَّة	أحمد الهاشمي
88	أجراس أكتوبر - مُخْتَاراتٌ مِنَ الشِّعْرِ السُّوفْيِيتِّي	ترجمة: عبدالرحمن الخميسي وآخرين
89	حكايات من لافونتين	اختارها وترجمها: جبرا إبراهيم جبرا
90	مع بورخيس	ألبيرطو مانْغيل - ترجمة : إبراهيم الخطيب
91	الرواية الجديدة والواقع	لوسيان جولدمان، ناتالي ساروت، آلان روب غرييه، جينفياف مويلو. ترجمة: رشيد بنحدو
	2019	
92	غزلان الليل (حكاياتٌ شعبيَّة أمازيغيَّة)	إميل لاوست - ترجمة: إدريس الملياني
93	الذُّبَابَةُ	المؤلف: جورج لانغلان - ترجمة: خليفة هزّاع
94	ترجمة النفس (السيرة الذاتية عند العرب)	عبد اللطيف الوراري

من إصدارات سلسلة كتاب الدوحة

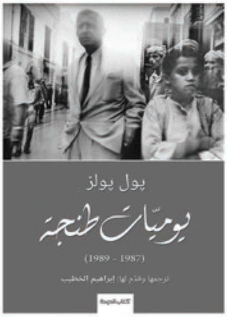

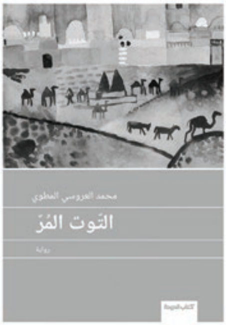

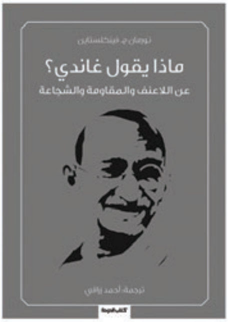

«حدَّثني والدي عن الجنَّة، لكن لندخلها علينا أن نموت أوَّلاً. كما أضاف أنّ قتل النفس من الكبائر المُحرَّمة، وأنّ مَنْ يقتل نفسه لا يدخل مملكة الجنان. لذا لم يتبقَ لي إلّا الانتظار، انتظار أن أصبح رجلًا، ثمّ أموت لأُبعث قرب نهر السلسبيل. الانتظار! الانتظار هو الوجود. لم تخفني فكرةُ الموتِ لحظتها. كنت أصحو من النوم وأفعل ما يُطلَب مني أن أفعل. وفي المساء تغرب الشمس فأعود للنوم بانتظار الصباح لأفعل الشيء نفسه. كنت أعلم أنّ يوماً قد انضاف لآخر، أنّ توالي الأيّام يفضي لتراكم الشهور، والفصول، والأعوام. عمري ست سنوات، ثمّ سأبلغ السابعة والثامنة والتاسعة، ثمّ العاشرة. وفي العاشرة يصبح المرء رجلاً. في سن العاشرة سيمكنني التجوال وحيداً في كُلِّ الحارة، سأتجاذب أطراف الحديث مع الباعة، سأتعلَّم الكتابة، كتابة اسمي على الأقلّ، سأتمكَّن من زيارة إحدى العرَّافات لقراءة طالعي، سأتعلَّم كلماتٍ سحريّة وأصنع طلاسم».

دولة قطر
وزارة الثقافة والرياضة
كتاب الدوحة